الأجزاء الكونية

بين النقل والعقل

تأليف

عبد العزيز بن خلف العبد الله

غفر الله له ولوالديه



الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أوجد كل شيء من العدم ، وجعل هذا الكون مجالاً لتفكير عقلاء الأمم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد ، فهذه نبذ في ذكر الأجزاء الكونية جمعتُ فيها بين ما جاء بالنصوص الشرعية وما أنتجته العقول البشرية من ظواهر هذا الكون الواسع .

ولما كان هذا الكون كله من نتائج القضاء والقدر ، فقد جمعت كتاباً أسميته « العبر في نتائج القضاء والقدر » .

وهذه النبذ في هذا الكتاب استوعب أكثرَها كتابُ « العبر » إلا أنني رأيت أن أفردها في كتاب يخصها لأن الأجزاء الكونية تحتاج إلى إشباع في بحثها .

والله أسأل أن يتقبل ما عملناه ، وأن ينفعنا به وإخواننا المسلمين ، إنه على كل شيء قدير .

فضل استعمال الفكر في الأجزاء الكونية

استعمال الفكر في مخلوقات الله تبارك وتعالى ، من أفضل الأعمال التي يمارسها المسلم . قال الله تبارك وتعالى : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقتَ هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١]

وقد عقد النووي رحمه الله في « رياض الصالحين » باباً فقال : « باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله تعالى » ثم ذكر هذه الآيات وأمثالها .

وقد ذكر الله تعالى الذين يتفكرون في مخلوقاته وحقيقة أمره ونهيه في ستة عشر موضعاً من القرآن العزيز ، والآيات بدعوة الله تعالى لعباده في النظر والتفكر والتذكر لما أودع في هذا الكون من العجائب ، كثيرة جداً .

قال القرطبي رحمه الله تعالى عند آيات آل عمران : ختم الله تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته ، إذ لاتصدر إلا عن حي قيوم قدير قدُّوس سلام غني عن العالمين حتى يكون إيمانهم مستنداً إلى اليقين ، لا إلى التقليد .

وقوله تعالى : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) التفكر : تردد القلب في الشيء ، وقد مر رسول الله ﷺ على قوم يتفكرون في الله

فقال : « تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره » وإنما التفكر والاعتبار وانبساط الذهن في المخلوقات كما قال تعالى : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) [آل عمران : ١٩١]

وحكي أن سفيان الثوري رضي الله عنه صلى خلف المقام ركعتين ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشي عليه ، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته ، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال : أشهد أن لك رباً وخالقاً ،اللهم اغفر لي ، فنظر الله اليه فغفر له » وقال ﷺ :« لا عبادة كالتفكر » وروي عنه عليه السلام قال: « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . وروى ابن القاسم عن مالك قال : قيل لأم الدرداء : ماكان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت:كان أكثر شأنه التفكر ، قيل له : أفترى التفكر عملاً من الأعمال ؟ قال : نعم هو اليقين ، وسئل ابن المسيب عن الصلاة بين الظهر والعصر ، فقال : ليست هذه عبادة ؛ إنما العبادة الورع عما حرّم الله والتفكر في أمر الله ، وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وقاله ابن عباس وأبو الدرداء، وقال الحسن: الفكرة مرآة المؤمن ، ينظر فيها إلى حسناته وسيآته. وقال القرطبي رحمه الله : قال ابن العربي : واختلف الناس أي العملين أفضل التفكر ، أم الصلاة ؟

فذهب الصوفية إلى أن التفكر أفضل ، فإنه يثمر المعرفة ، وهو أفضل

المقامات الشرعية .

وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل لما ورد في الحديث من الحث عليها والدعاء اليها والترغيب فيها . ا هـ

وهذه الصلاة المذكورة المراد بها صلاة النافلة ، والمقصود أن الذي يتفكر في آيات الله ومخلوقاته هو في عبادة ، كما أن المصلي في عبادة، فاختلاف العلماء إنما هو في أي العبادتين أفضل .

وأما الحديث الذي نقله القرطبي أول البحث « تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره » ، فهو أحد ثلاثة أحاديث رواها أبو الشيخ ، وذكرها في « الفتح الكبير » .

الأول ، ذكره القرطبي وهو عن ابن عباس .

الثاني ، عن أبي ذر عن النبي ﷺ « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا » .

الثالث ، عن ابن عباس أيضاً عن النبي ﷺ « تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله تعالى ، فإن بين السماء السابعة إلى الكرسي سبعة آلاف نور ، وهو فوق ذلك » انتهى .

والحق أن التفكر في ذات الله لا يجوز لما لذلك من الأثر على إيمان المؤمن ، لأنه عز وجل فوق مستوى العقول البشرية ، فلا يجوز للمسلم أن يتناول التفكير في ذات الله تعالى ، ويجب عليه الإيمان القطعي بأنه فوق

عرشه ، بائن من خلقه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ولا يوصف إلا بما وصف به نفسه بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، تعالى الله عن الشبيه والمثيل علواً كبيراً ، وسيأتي كلام بهذا المعنى آخر الكتاب إن شاء الله .

وقال البغوي عند قوله تعالى: (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) [آل عمران : ١٩١]

قال ابن عون : الفكرة تذهب الغفلة ، وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء، وما جليت القلوب بمثل الأحزان، ولا استنارت بمثل الفكر.

وقال ابن كثير : قال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلا علم ، ولا علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر ابن عبدالعزيز: الكلام بذكر الله عز وجل حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة.

وقال بشر بن الحارث الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه

قلت : التفكر في عظيم خلقه يدل على عظمته عز وجل .

قال ابن كثير: قال الحسن عن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر ، انتهى .

وقد أكثر علماء الاسلام الثناء على التفكر لما يجدون في نفوسهم الطاهرة من الإحساس بتعظيم الخالق عز شأنه، وهذه الأمور التي اقتضتها دعوة

الله تعالى وثناؤه على عباده أهل التفكر في مخلوقاته في السماء والأرض تدفع المسلم عما يكرهه الله تعالى ويأباه عليهم من الإعراض عن هذه المقاصد العالية المفضلة . وقد قال الله سبحانه وتعالى في ذم المعرضين :(وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) [يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦].

قال القرطبي عند آية [البقرة: ١٦٤] (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر) إلى قوله تعالى : (لآيات لقوم يعقلون) .

قال : فآية السموات : ارتفاعها بغير عمد من تحتها ، ولا علائق من فوقها ، ودل ذلك على القدرة ، وخرق العادة ، ولو جاء نبيٌّ فتحدّى بوقوف جبل في الهواء دون علاّقة كان ذلك معجزاً ، ثم مافيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نيِّرة وممحوَّة آية ثانية ، وآية الأرض : بحارها وأنهارها ومعادنها وأشجارها وسهلها ووعرها .

وقال ابن كثير في تفسيره : يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلق في السموات والأرض من كواكب زاهرات ، ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ،

وحيوان ونبات، وثمرات متشابهات ،ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات وغير ذلك ، انتهى .

قال بعضهم :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

لقد خسر من كفر بالله ، وأبعد النجعة من وضع نفسه في سجل العقلاء وهو جاحد لوجود الخالق ،صانع المصنوعات وبارىء النسمات ومحصي الذرات خالق الأرض والسموات .

إن الله تبارك وتعالى قد يظهر من آياته وبيناته على يد من شاء من خلقه كافرهم ومسلمهم تحت إرادة واحدة يتصرف في الجميع بمشيئته الجبارة .

ولذلك كان من أعظم ثمرات التفكر في عظيم مخلوقاته تعالى ما أثبته العلم الحديث من عظمة الكون وأجزائه وذراته وأبعاده وأحوال أجرامه وطباعها، فإن تلك العلوم تزيد في إيمان المؤمن وتفتح في ذهنه صفحات من العلم بعظمة الجبار .

وينبغي للمؤمن الموهوب صلاحاً في تفكيره وسلامة في بصيرته ، أن يستعمل التفكير الجاد الهادف لما وراء ذلك من الحكمة والعلم ، وسنأتي على ذلك في آخر الكتاب إن شاء الله تعالى .

واعلم أن الكون بحكم الواقع ينقسم إلى ثلاثة أقسام .

الأول : الأرض وما فيها وما هو متصل بها .

الثاني : ما نراه فوقنا من هذه المنطقة الفضائية بما فيها من أجرام مضيئة وغير مضيئة .

الثالث : السماوات العلى بما فيها وما فوقها من الكرسي والعرش ، وهذا التقسيم هو الذي بنينا عليه كتابنا في تفصيل الأجزاء الكونية ، وسيأتي التفصيل إن شاء الله تعالى ، غير أن هنا قواعد تختص بهذه الأقسام لابد من الأخذ بها في مجال الحكم على شيء منها للأخذ بما جاءت به المسموعات في حقائق النظريات والمحسوسات .

القاعدة الأولى

أن ما يسمى بالسموات العلى وما فيها من كائن متحرك وساكن وما فوقها ،فلبعده عنا وخفائه عن إدراك حواس البشر وقواه الحسية والمعنوية،فإن من المحال عليه أن يعلم شيئاً إلا بالتوقيف من النصوص الشرعية الثابتة ، فلا مجال للاجتهاد والتكلف في ذكر شيء من أجزائها وأبعادها وما فيها وما عليها ، لأن الله قد استأثر بعلم ذلك إلا ما أدركه الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام .

فالواجب على المسلم عدم الخوض في علم تلك المنطقة إلا على قدر ماوردت به النصوص الشرعية وظهر من المنطوق والمفهوم من ألفاظها ، ومن تجاوز هذا فقد خاض فيما لا يعنيه .

المنطقة : مادون السموات العلى خاصاً فيما نراه من فوقنا ، فهذه المنطقة قد أمرنا الله تعالى بالنظر اليها بالبصر والبصيرة ، والتفكر في آياتها البينات في مواضع كثيرة من القرآن ، وأجاز لنا في نص كتابه العزيز محاولة التجاوز اليها والازدياد من العلم بها بالحس والمعنى ، فهي مجال التفكير والاعتبار الى الأبد .

ونحتاج إلى النص فيما لم نعلمه ملموساً عن هذه المنطقة بما فيها من أجرام مضيئة وغير مضيئة في أحجامها وأبعادها ومحتوياتها من حيوان وجماد ونبات وغير ذلك، غير أنها ليست أموراً تعبدية يلزم لها النص لأن الجهل بها لايضر المسلم ،والعلم بشيء من أحوالها لاينفع المسلم بدينه إلا للاعتبار والعظة وحيث قلنا : لايلزم النص على شيىء منها لأنها ليست من الأمور التعبدية ، فإنه متى ظهر لمعلوماتنا شيىء عن أحوالها فإننا نؤمن إيماناً قاطعاً بأن ذلك لايخالف النصوص الشرعية ، وعلينا أن نلتمس من النصوص مايؤيد ذلك إن أمكن ، وان عدم النص بالمنطوق أو المفهوم ، فإن الحس لايحتاج لنص يدلنا عليه .

فهذه الشمس مضيئة ، وذات حرارة ، وكروية الشكل ، وعظيمة الجرم ، وبعيدة عنا ، كل ذلك لايحتاج إلى دليل شرعي ، وكذلك مانراه من الأجرام الأخرى . وماورد في القرآن والسنة عن أحوال الكون كله يقضي بالاعتبار والدعوة إلى التفكر في ذلك .

وقد كان من الناس من ينكر بعض ما أدركه العلم الجديد عن أحوال الأجرام الفضائية وأبعادها ، مستنداً بانكاره وتكذيبه ذلك بأنه لم يرد في في النصوص الشرعية ، وهذا غفلة وجهل بحقيقة ماتنبني صحته على النصوص الشرعية لأنه لا وجه في الشرع ولا في العقل أن يأتي مثل هذه الامور بنص القرآن والسنة ، فينبغي فهم هذا .

فالناس متى توصلوا إلى إدراك محسوس في الأرض والسماء فإنهم لايحتاجون معه الى دليل شرعي ، فهذا السحاب كنا نجهل حقيقته وبُعْده وكيفه ، فلما جاءت الطائرات علمنا ذلك كله مباشرة ، فلا حاجة إلى نص يخبرنا عما نلمسه من السحاب ، وهكذا كل أجزاء الأرض والفضاء في حد سواء ، فمن أنكر ماظهر على مسرح الحياة الانسانية من علوم الكون مستنداً على عدم الأدلة الشرعية التي تدل عليه فإنه جاهل قد أظلمت عليه الآفاق .

القاعدة الثالثة

الأرض ، فإنها أرضنا ومستقرنا ، وقد خلق الله تعالى للانسان أكثر ما كان على ظهرها وما كان في بطنها من الخيرات والنعم .

فالإنسان لايحتاج إلى أدلة شرعية على ماهو محسوس ملموس منها ، أو ماهو عليها جملة وتفصيلاً ، كحركتها وسكونها ، وبحارها وجبالها ، وأوديتها وكنوزها بجميع أنواعها ،لأن هذه أمور محسوسة ملموسة،والجهل بالشيىء في زمان أو مكان أو فرد أو أفراد ، لا يلزم منه نفيه ، وكل ماورد في

الكتاب والسنة عن الأرض وماعليها جملة وتفصيلاً ، فانما هو لتذكير الناس بنعم الله تعالى عليهم ليشكروه حق شكره ، وليعبدوه حق عبادته، فهو يقول في هذا المعنى (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) [نوح : ٢٠] فهذا ليس لتعليم الناس بأن الأرض مبسوطة سهلة، لأن كل إنسان يلمس هذا ، ولكن الله يذكر الناس أنه عز وجل خلق الأرض بتلك الصورة المحسوسة الملموسه رحمةً لخلقه ، وتسهيلا لسلوكهم منها سبلا سهلة واسعةً ، اذ لم يجعلها حزوناً وتضاريس وعرة على الانسان ، وكذلك قوله : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي) [الحجر : ١٩]

وهكذا فإن جميع ماورد في القرآن العزيز في ذكر الأرض ، فإنما هو للتذكير بنعم الله تبارك وتعالى ، اللهم إلا ماكان من خلق الأرض في أربعة أيام وفتقها وما استأثر الله تعالى بعلمه ، فهو مع كونه إخبار عن بدء الكون فإنه تذكير بنعمته سبحانه وتعالى حين أوجد الكون من العدم ، وتعظيم لقدرته تعالى، وكلُّ ما هو في ادراك الانسان من المحسوسات في السماء والارض مما لا يحتاج لإثبات أحواله الملموسة الى أدلة شرعية ، فإن هذا خاص بمن كملت فيه موارد إدراكه ، واستقامت له حواسه السمعية والبصرية والذهنية، أما من نقصت حواسه هذه ، فإنه يحتاج الى مايسد هذا الفراغ ، إما من النصوص الشرعية إن كان قد ورد فيها نص ،وإما من العقل الصحيح ، وقد لا نحتاج إلى شيىء من ذلك لأنها ليست من الدين الذي يلزم الانسان تعلمه . وأهل

الأرض كلهم يحتاجون الى مايسد الفراغ فيما جهلوه عن أحوال مافوقهم من الأجرام الفضائية ، فهم جميعاً كمن نقصت حواسه من الناس ، فإن وجدوا نصا صحيحاً من النصوص الشرعية ، أخذوا به ، وإلا التمسوا ما يسد هذا الفراغ من نتائج العقل .

القاعدة الرابعة

يجب على المسلم أن يعلم أن النصوص الشرعية من الكتاب والسنة لاتناهض شيئاً من المحسوسات والمعنويات التي يلمسها الناس في الأرض والسماء ، سواء كان ذلك بالمنطوق من تلك النصوص أو بالمفهوم ، وهذه قاعدة في تطبيق النصوص الشرعية على كل ماظهر أو يظهر على مسرح الحياة ، ومن قال بخلاف هذا ، فإنه جاهل في مقاصد النصوص الشرعية جملة وتفصيلا .

فلو فرضنا محاولة ذلك ، فجاء أحد بنص تأوّله لمخالفة المحسوس ، فإن التناقض في هذا قد جاء من قبيل الفهم الذي فهمه الناقل حتى تأول مخالفة الحق ، وقد يجيىء هذا بوقت لايكون المحسوس ظاهراً بمخالفته النص الذي استدل به المتأول ، كما كان الحال حينما تأول العلماء النصوص الشرعية على عدم كروية الارض وأجمعوا على نفي كرويتها ، وسيأتي هذا مفصلا في ذكر الأرض إن شاء الله تعالى ، وما ذلك إلا لأن الادلة الشرعية التي قد استدلوا بها على نفي الكروية لاتنفي ماثبت من كرويتها ، وإنما جاء التناقض من قبيل التأويل لا من قبيل النص ، فكثير من الجهال يتعاظمون رد ماقيل في مثل ذلك لظنهم أن هذا رد لنصوص القرآن ، وما علموا أنه رد للفهم الذي تأول النص فأخطأ تأويله .

القاعدة الخامسة

إن العلوم الكونية التي وردت في القرآن والسنة مما جعل الله تعالى للانسان فيه حق البحث والتأويل والتفكر والاعتبار، فقلما نجد نصاً من هذا النوع إلا والسلف والخلف قد خاضوا بتأويله، وما كان من هذا النوع فانه مما جعل الله تعالى فيه للعقول البشرية مجالاً، فتأتي التأويلات مبنية على مدارك المفاهيم وحدود النتائج العقلية.

وحكمة الله تعالى قضت بأنّ ما لم يكن من الأحكام التشريعية، وما لم يأت بتأويله توقيف، لا يسع المسلم تجاوزه عن معاني القرآن، فانه مما جعل الله تعالى للعقول البشرية فيه مدّاً وجزراً، وما يذّكر إلا أولوا الألباب.

ولا نكاد نجد نصاً من القرآن العزيز ولا من السنة المطهرة في أبحاث الكون إلا ونجد علماء السلف والخلف يقولون بتأويله أقوالاً متباينة لأمرين:

الأول: أن ذلك نتيجة المفاهيم التي جبلت على التباين والتباعد في نتائجها.

الثاني: أنها من الأمور السمعية فقط.

وحيث إن الكون ينقسم إلى حسي ونظري، فان مما لا شك فيه أن الأمور الحسية والنظرية لا تستكمل حقيقتها النقول السمعية أبداً، لأن حقائق الأمور السمعية الثابتة، في مرتبة علم اليقين. وأما النظرية والحسية، فان حقائقهما في

مرتبة عين اليقين ، ومرتبة عين اليقين أعلى من مرتبة علم اليقين فقط ، لأن أعلى مراتب علم اليقين هي النصوص الشرعية ، ومع ذلك لا تفي بحقيقة النظريات والمحسوسات .

فالله تبارك وتعالى ذكر الجنة ووصفها ،وكذلك السنة وصفتها ، غير أن حقيقتها أعظم من وصفها بدرجات كثيرة ،لأن فيهامالا عين رأت،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وكذلك النار ، فانه تعالى ذكر النار ووصفها وحذّر منها، وكذلك الرسول ﷺ ، غير أن الكثير من المسلمين مع أنهم يعلمون هذا علم اليقين يعصون الله تعالى ، ويتهاونون فيما يبعدهم من النار ، فلو كانوا يرونها عين اليقين لما عصى الله تعالى أحد من كافر ولا مسلم

وهذه قاعدة هامة ينبغي تأملها والأخذ بها في مقاصد التأويل ، وخاصة في الأحوال الحسية والنظرية الكونية .

ومن نظر اختلاف السلف والخلف في مقاصد التأويل لألفاظ القرآن والسنة ، وتأمل كثيراً من الأمور التي آلت إليها المحسوسات والنظريات في هذا الزمان ، أدرك ما ينبغي للمسلم في الأساليب السمعية والنظرية والحسية .

ولقد كان السلف الصالح يذكرون ما في اللفظ الوحد من مقاصدالتأويل الكونية وغير الكونية أقوالاً كثيرة متباينة ينقلها خلف عن سلف ، ولاتكاد تجد نقداً ولا اعتراضاً في الغالب ، لعلمهم بحقيقة ما خاضوا فيه ،ولأن

المفروض في هذا التباين أنه لابد من وقوع السلبية والايجابية في حقيقة ذلك، لأنها من نتائج المفاهيم التي خلقها الله متباينة ، وعلى هذا الأساس قال علماء السلف الصالح : « كل يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله ﷺ » وهذا هو الحق .

فمن الممكن أن تكون التأويلات كلها إيجابية حقاً ، وقد يكون بعضها إيجابي ، وبعضها سلبي ، وبعضها يقع تأويله في الدنيا ، وبعضها في الآخرة ، وبعضها في الدنيا والآخرة معاً ، لأن هذا الأسلوب هو مقام ألفاظ الحكمة ، وألفاظ القرآن والسنة هما أصل الحكمة وأكملها ، بل هما أعلى مراتب الحكمة ، فإذا نظرنا إلى أقوال العلماء في تأويلهم لمعاني القرآن والسنة، رأينا أنه يبلغ بهم الأمر إلى خلاف طويل ، وينقل بعضهم عشرين قولاً أو أكثر أو أقل في الجملة الواحدة ، وعند فقدان النظريات والمحسوسات المميزة ، يقتضي الأمر قبول تلك الأقوال لأنه في مجال المسموع فقط ، ومتى عثرنا على ملموس أو منظور ، فإن ماسواه يتبخر ويذهب عن مسرح الاجتهاد والتأويل،وأعظم مثل على ذلك ما مر ذكره قريباً عن القول بكروية الأرض وعدم كرويتها وسيأتي .

ومثل ذلك ماتعني ألفاظ القرآن والسنة وقوعه في آخر الزمان ، فهي في جملتها قد تكلم علماء السلف والخلف في تأويل ألفاظها ، وجرح وتعديل أسانيدها، وخاصة ماورد فيها من أحاديث السنة وكثر القول فيها كما هو معلوم، غير أن الحكم على معانيها وقبول أسانيدها ، موقوف على وقوع النظريات

والمحسوسات في زمانها ومكانها البعيد والقريب .

كما أن تأويلات السلف الصالح رضي الله عنهم قد أخذت مكانها من التحفظ وعدم التقليد الأعمى لأنهم قـــدوة الناس في كل زمان ومكان،فهم يقولون ولسان الحال يقول : «كل يؤخذ من قوله ويترك إلا محمد ﷺ » .

وكان كثيرمن الأئمة الأعلام يقول : إذا صح القول عن رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي عرض الحائط ، وهذا البحث في مقاصد التأويل من السلف والخلف ، هو بمقتضى إرادة الله عز وجل ، لأن حكمته تعالى قضت بذلك ، فلو شاء أن يقول في كتابه العزيز ورسالته إلى خلقه قولاً لا يتجاوزه أحد من عباده بأي تأويل ، لكان ذلك ، ولو شاء أن يقول رسوله ﷺ في ذلك أيضاً قولاً يوضح فيه معاني هذه الجمل ويحدد فيه المقاصد الرّبّانية تحديداً واضحاً لكان ذلك ، لأنه عزوجل على كل شيء قدير ، ولكن حكمة الله تبارك وتعالى اقتضت ذلك ليأخذ الأولون والآخرون من السلف والخلف والى قيـــام الساعة من مقاصد القرآن والسنة الحكمة والنور ،(ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم)[الانفال:٤٠] . وقد دعا رسول الله ﷺ لابن عباس بقوله : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وهذا من الأدلة القطعية على أن التأويل فهم وموهبة من الله تعالى أساسها العقل المخلوق في الانسان ، والحق نور ولا بد أن يظهر هذا النور بارزاً على ممر العصور والدهور ، فقد يأتي تأويل لفظ أو ألفاظ بحقيقته المثلى في زمن الصحابة ، وقد يأتي في الزمن

الذي بعدهم ، وقد يأتي بعد ألف سنة ، وقد يأتي بعد عشرات الآلاف من السنين ، وهذا مما يجب الإيمان به لأن القرآن العزيز هو للخلف كما هو للسلف، ومن نفى هذا أو ظن به عدم الصحة ، فإنه أجهل الناس بالواقع .

القاعدة السادسة

علم الكون كغيره من الأمور التي لاتدرك حقيقتها وتلمس فوائدها إلا بأصلين يقومان في الانسان .

الأول : العقل . والثاني : العلم . فأما العلم، فإنه كالشمس التي ينظر بنورها المرء الى أهدافه ، والعقل كالبصر ، فلافائدة لنور الشمس عند من فقد بصره، وحيث تقدم العقل هنا على العلم ، فإن من لاعقل له يعتبر في عداد المتروكين، ولم يتوجه اليه خطاب سواء في ذلك النصوص الشرعية أو غيرها .

ولنبدأ بشرح هذين الأصلين في مستوى مجتمعاتنا البشرية كافة ، وفي بلادنا خاصة لأننا أحوج مانكون إلى نظرة هادئة هادفـــة إلى مانحن فيه ، ومايدور حولنا من العقول والمفاهيم والمحسوسات والمعنويات ، وماطرأ من الاكتشافات والاختراعات التي نحتاج إلى فهمها فهماً سليماً يثبت الوقائـع ولا يتنافى مع ديننا وإيماننا بالله سبحانه وتعالى ومقاصد التشريع.

وإذا أطلقنا هنا العقل ، فانما يراد به العقل السليم .

وأما العلم ، فإنه ينقسم إلى مصدرين :

المصدر الأول : النصوص الشرعية . والثاني : ما أدركه الانسان من العلوم القديمة والحديثة المختصة بالاجزاء الكونية ، وقد علمت من القاعدة

الرابعة أن النصوص الشرعية لاتخالف الأمور التي وقعت ملموسة حسية كانت أو معنوية .

وأما ما أدركه الانسان من العلوم الكونيـــة في القديم والحديث، فسنأتي عليها إن شاء الله تعالى في ذكر أجزاء الكون .

قاعدة هامة

يجب على المسلم أن يعلم علم اليقين أن الله تبارك وتعالى لم يخلق هـــذا الكون من أجل الإنسان فقط ، لأنه لو خلقه من أجله فقط ، لخلق فيه عقلاً يدرك به حقائق هذا الكون السفلي والعلوي ، ولكن الذي هو الحق ، أن الإنسان خُلق ضعيفاً ، وخلق في جزءٍ كذرة من ذرات الكون ، وقد حدد الله له مفاهيمه ونهاية مـــدارك تفكيره ، وحدد له مداه في المحسوسات والمعنويات ، بل إن الإنسان لضعفه وتفاهة شأنه في جانب مخلوقات الله ، أعجز من أن يدرك حقيقة نفسه وكنه ذاته .

فمن لم يؤمن إيماناً قاطعاً بأن الكون كـــله هو فوق مستوى العقول البشرية ، فإنه جاهل مركب لا يدري ، ولا يدري أنه لا يدري .

وما أوتيه الإنسان من علم الكون، فإنه محدود بما أراده الله تعالى لتقوم الحجة على خلقه بما يظهره لهم من الآيات البيِّنات التي تدل على عظمة هـــذا الكون (ليهلك من هلك عن بينةويحيامن حي عن بينة وإن الله لسميع عليم) [الأنفال : ٤٠]

قال القرطبي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله) [آل عمران : ٨]

التأويل يكون بمعنى التفسير ، كقولك : تأويل هذه الكلمة على كذا ، ويكون بمعنى ما يؤول الأمر اليه .

واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول اليه ، وأوّلته تأويلاً ، أي : صيّرته ، وقد حدّده بعض الفقهاء فقالوا : هو إبداء احتمال في اللفظ مقصود بدليل خارج عنه .

فالتفسير : بيان اللفظ ، كقوله : (لا ريب فيه) أي : لاشك ، وأصله من الفسر ، وهو البيان . يقال : فَسَرت الشيء (مخففاً) أفْسِره (بالكسر) فَسْراً .

والتأويل : بيان المعنى ، كقولك : لاشك فيه عند المؤمنين ، أو لأنه حق في نفسه ، فلا تقبل ذاته الشك ، وإنما الشك وصف الشاك ، وكقول ابن عباس في الجد أباً لأنه تأول قول الله عز وجل (يابني آدم).اه.

لقد تقدم شيء من الكلام في أسلوب السلف والخلف من علماء الاسلام في تأويلهم لألفاظ القرآن العزيز ، وقد نأتي على بعض التفصيل في ذلك ضمن الكتاب .

فالتأويل لمقاصد القرآن والسنة قائم أبداً ، ولا يصح في

الشرع ولا في العقل أن نقول : إن التأويل قد انتهى بزمان أو بأحد من البشر ، لأن التأويل وسيلة تظهر به الحكمة ، ويشرق به النور على كل ما يجهله البشر في كل زمان ومكان إلى أن يسرى على كتاب الله عز وجل فلا يبقى في الأرض منه آية ، كما جاء ذلك عن رسولنا محمد ﷺ .

قال الله تعالى : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبيِّن لكم كثيراً مما كنتم تُخْفُون من الكتاب ويعفوا عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتَّبع رِضْوانه سُبُل السَّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) [المائدة : ١٥ ، ١٦]

فالقرآن العزيز نور وكتاب مبين يهدي به الله تعالى من طلب الهداية منه ، ويخرجهم به من ظلمات الجهل إلى نور الحق بإذن الله عز وجل ، وهذا قائم إلى يوم القيامة ، ولله الحمد والمنَّة .

وقد جاء في مقاصد التأويل ما يفهم منه الأمر والنهي في ظواهر ألفاظ القرآن والسنة ، أو بمعنى آخر الترغيب فيه والترهيب منه ، وكثير من الناس قد يستعملون الترهيب والزجر أكثر من الترغيب في التعرض لتأويل ألفاظ القرآن والسنة .

فمن هؤلاء مخلصون صادقون ، ككثير من السلف الصالح ، لأنهم كانوا يستعملون هذا النهي والزجر ورعاً وتخوُّفاً ، وكثير من الناس يستعملون هذا جهلاً بالحق ومتابعة للغير .

وبعض الناس يستعملون ذلك الزجر والنهي لقطع الطريق على من تناول التأويل وإن كان لا يضمر خيراً وإنما تشبث بالأنكار فقط.

وقد ورد في صريح السنة وصحيحها دعاؤه ﷺ لابن عباس بقوله: « اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل ».

وهذا يستدل به على أصلين في تناول التأويل.

الأصل الأول: أن التأويل مباح ومحبوب عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ عند ما تكون نتيجته الحق والتوجيه الصحيح السليم الذي هو أقرب إلى الحق والحقيقة.

الأصل الثاني: أن التأويل والفقه هو موهبة من الله تبارك وتعالى، ونتيجة من نتائج العقل السليم فقط. ومحال أن يكون مسموعاً، لأن المسموع شيء، والفهمَ شيء آخر.

وهذا الذي دعا به رسول الله ﷺ لا نزاع في أنه من مقاصد الترغيب في التفقه في الدين وتناول التأويل.

وأما ما وقع بين الخلف من علماء الإسلام في التأويل والرأي في القرآن والسنة، هل المعنى الذي تقتضيه الألفاظ الواردة تعني النهي أو لا؟

فلتمام الفائدة أود أن أنقل باختصار بعض أقوال علماء الإسلام مما تقوم به الحجة ويزيل الشبهة في تناول التأويل بحقه المشروع.

قال الله تعالى في سورة آل عمران: (هو الذي أنزل عليك الكتاب

منه آيات محكمات هُنّ أم الكتاب وأخرُ متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنـــا به كُلٌّ من عند ربنا وما يَذَّكر إلا أولوا الألباب) (آل عمران : ٧)

قـال القرطبي : اختلف العلماء في المحكمـات والمتشابهـات على أقوال عديدة ، فقال جابر بن عبد الله وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما : المحكمات من أي القرآن : ما عرف تأويله وفُهِم معناه وتفسيره. والمتشابه: مالم يكن لأحد إلى علمه سبيل ،وهو مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه.

قال بعضهم : وذلك مثل قيـام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدجال ، وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور . ثم قال : قلت: هذا أحسن ما قيل في المتشابه ، إلى أن قال : وقيل : القرآن كله محكم ، لقوله تعالى : (كتاب أُحكمت آياته) (هود : ١) وقيل : كله متشابه، لقوله : (كتاباً متشابهاً) (الزمر : ٢٣) ثم قال : قلت : وليس هذا من معنى الآية في شيء ، فإن قوله تعالى : (كتاب أحكمت آياته) (هود : ١) أي في النظم والوصف ، وإنه حق من عند الله . ومعنى (كتاباً متشابها) أي يشبـه بعضه بعضاً ويصدّق بعضـه بعضاً ،وليس المراد بقوله: (آيات محكمات وأخر متشابهات) هذا المعنى ،وإنما المتشابه في هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه من قوله تعالى :(ان البقر تشابه علينا) [البقره: ٧٠] أي التبس علينا ، يعني يحتمل أنواعاً كثيرة من البقر.

والمراد بالحكم مافي مقابلة هذا ، وهو مالا التباس فيه ، ولايحتمل إلا وجهاً واحداً . وقيل : إن المتشابه مايحتمل وجوهاً ، ثم إذا رُدَّت الوجوه الى وجه واحد ، وأبطل الباقي ، صار المتشابه محكماً . اه.

قلت : وهذا كمثل تأويل الألفاظ التي تأولها العلماء من أمور الكون ، ومن حوادث آخر الزمان ، وما أشبه ذلك، وقد مر الكلام عليه .

قوله تعالى : (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتَّبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) [آل عمران : ٧]

قال القرطبي : قال شيخنا أبو العباس رحمه الله تعالى : متبِّع المتشابه لايخلو أن يتبِّعه ويجمعه طلباً للتشكيك في القرآن وإضلال العوام كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن ، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسمة ... إلى أن قال : وقال أبو اسحاق الزجاج: معنى (ابتغاء تأويله) أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم ، فأعلم الله جل وعز أن تأويل ذلك ووقته لايعلمه إلا الله .

قال : والدليل على ذلك قوله تعالى : (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله) [الاعراف : ٥٣] أي يوم يرون مايوعدون من البعث والنشور والعذاب (يقول الذين نسوه من قبل) أي تركوه (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أي قدَّر ربنا تأويل ما أنبأتْنا به الرسل .

قال : فالوقف على قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله) [آل عمران :٧]

أي لا يعلم أحد متى البعث إلا الله .

قال : قوله تعالى : (والراسخون في العلم) اختلف العلماء في قوله (الراسخون في العلم) هل هو ابتداء كلام مقطوع مما قبله ، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع ، فالذي عليه الأكثر أنه مقطوع مما قبله ، وأن الكلام تم عند قوله تعالى:(إلا الله) .

قال : وقال الخطابي : وروي عن مجاهد أنه نَسَق (الراسخون) على ما قبله ، وأنهم يعلمونه ، واحتج له بعض أهل اللغة ، فقال : معناه : والراسخون في العلم يعلمونه قائلين : آمنا به ، كُلٌّ من عند ربنا .

قال : قلت : فقد روي عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل ، وأنهم دخلوا في علم المتشابه ، وأنهم مع علمهم به يقولون : آمنا به ، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم .

قال : واحتج قائلو هذه المقالة أيضاً ، بأن الله سبحانه مدحهم بالرسوخ في العلم ، فكيف يمدحهم وهم جهال ؟! .

وقد قال ابن عباس : أنا ممن يعلم تأويله . وقرأ مجاهد هذه الآية وقال : أنا ممن يعلم تأويله ، حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالي ، ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون التأويل ، وأطنب في ذلك ، وفي قوله عليه السلام لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » مايبين لك ذلك ، أي علِّمْه معاني كتابك ، والوقف على هذا يكون عند قوله : (والراسخون في العلم) قال شيخنا

أبو العباس أحمد بن عمر : وهو الصحيح ، فانّ تسميتهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون أكثر ممن يعلم المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب ، وإلا فأي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ؟!

قوله تعالى:(وما يَذَّكَّر إلا أولوا الألباب) قال : أي : ما يقول هذا ويؤمن ويقف حيث وقف ويدع اتّباع المتَشابه إلا ذو لُبٍّ وهو العقل اهـ.

وقد ظهر من هذا السياق أن الذي يميل إليه القرطبي رحمه الله هو أن الوقف على آخر الجملة من قوله تعالى:(والراسخون في العلم)وقد أتى بما يؤيد ذلك من أقوال العلماء الأعلام .

فقوله عز وجل (وما يذكّر إلا أولو الألباب) هذا يدل على أن فهم التأويل وتذكُّره هو من خصائص العقول التي سلمتْ من الانحرافات .

وأعظم دليل على ذلك قوله تعالى : (وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) فعلمنا بذلك أن هذا هو الموقف الذي نهى الله فيه عن التعرض لتأويل شيء من القرآن لقصد الفتنة والشر والضلال والإضلال.

أما ماكان خالياً من هذا كله ،فانه لايدخل في هذا النهي ،وهو ظاهر من لفظ القرآن ومما ساقه القرطبي آنفاً عن علماء السلف والخلف .

وقد ورد في السنة النهي عن تفسير القرآن بالرأي .

قال القرطبي في مقدمة تفسيره : « باب ماجاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي » .

روى الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « اتقوا الحديث عني إلا ماعلمتم ، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » .

قال: وروي أيضاً عن جندب قال: قال رسول ﷺ : «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » ، قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وأخرجه أبو داود وتكلم في أحد رواته .

قال القرطبي : قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري في كتاب الرد : فُسِّر حديث ابن عباس تفسيرين، فذكر الأول ثم قال : أثبت القولين وأصحهما معنى: من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار . وقال في حديث جندب : فحمل بعض أهل العلم على أن الرأي معنيٌّ فيه الهوى .

قال القرطبي : وقال ابن عطية ، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته ، والنحويون نحوه ، والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فان القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه . قلت : هذا صحيح ، وهو الذي اختاره غير واحد من أهل العلم .

ثم قال القرطبي : وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع ، لقوله تعالى : (فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) [النساء : ٥٩] قال : وهذا فاسد ، لأن النهي عن تفسير القرآن لايخلو إما أن يكون المراد

به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط ، أو المراد به أمر آخر ، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه ، فان الصحابة رضي الله عنهم قد قرؤوا القرآن ، واختلفوا في تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ ، فان النبي ﷺ دعا لابن عباس ، وقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » فان كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ، فما فائدة تخصيصه بذلك ؟! وهذا بيّن لا إشكال فيه ، وإنما النهي يحمل على وجهين :

أحدهما : أن يكون له في الشيء رأي وميل من طبعه وهواه ، فيتناول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى ، وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ولكن مقصوده أن يلتبس على خصمه ، وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة ، فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، وتارة يكون له غرض صحيح ، فيطلب له دليلاً من القرآن ، ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول : قال الله تعالى : (إذهب إلى فرعون إنه طغى) [النازعات : ١٧] ويشير إلى قلبه ويومىء إلى أنه المراد بفرعون ، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة فينزّلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم ، فهذه الفنون إحدى وجهي المنع من

التفسير بالرأي .

الوجه الثاني : أن يسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية فمن لم يحكّم ظاهر التفسير ، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية ، كثر غلطه ...إلى أن قال رحمه الله تعالى : وما عدى هذين الوجهين ، فلا يتطرق النهي اليه ، والله اعلم . انتهى كلام القرطبي ، وقد اختصرت بعضه ، وقد ساق ابن الأثير رحمه الله تعالى الاحاديث في « جامع الأصول » وساق لها شرح الغريب ، كما ساقه القرطبي حرفاً بحرف ، إلا في قليل من الألفاظ ، ويظهر أن القرطبي نقله عن ابن الأثير ،لأن ابن الأثير توفي سنة (٦٠٦ هـ) وأما القرطبي فإنه توفي سنة (٦٧١ هـ) ، رحمهما الله تعالى وألحقنا بآثارهم .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في « إعلام الموقعين » : وساق مانقل عن أبي بكر الصديق من قوله : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله برأيي .

قال : فالجواب : أن الرأي نوعان . رأي مجرد لادليل عليه ، بل هو خرص وتخمين ، فهذا الذي أعاذ الله الصدّيق والصحابة منه . والثاني : رأي مستند إلى استدلال واستنباط من النص وحده ،أو من نص آخر معه ، فهذا من ألطف فهم النصوص وأدقه . انتهى .

وهذا الذي ذكره رحمه الله تعالى هو مضمون ماذكره العلماء فيما مر في تحديد الرأي الذي يقتضيه النهي في الخبر ، وفي الجملة يرجع النهي وماتناوله

تحذير علماء الاسلام من التعرض للتأويل الى قاعدة واحدة ، وهي قوله عزوجل:(وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) [آل عمران : ٧] يعني ماقامت عليه مقاصد أولئك من تحريف الكلم عن مواضعه تصديقاً لزيغ قلوبهم ولأقامة الفتنة .

وإذا تأملنا ماساقه علماء الاسلام على الآية والحديث ، فإنه يتمحص في تلك المعاني التي نص عليها القرآن بصريح لفظه ، فعلمنا بذلك كله أن من كان بخلاف هذا مما ينبني على النقل الصحيح والعقل السليم ، فانه لايدخل في التحذير من الرأي والتأويل ، والرأي هنا هو الاجتهاد ، ومتى صح الاجتهاد ، صح الرأي ، ولايصح الاجتهاد إلا إذاكان مبنياً على النص الصحيح ، وقد استوفى صاحبه مكانه في الفكر وحسن التصوير .

ويكفي عند التأمل لفصل النزاع في أن المنهي عنه التعرض للمتشابه من القرآن،وقد فسر السلف الصالح المتشابه بأنه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، ومايحدث في آخر الزمان، وكخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدجال .

قلت : ومما استأثر الله تعالى بعلمه أيضاً الكيف في صفات الجبار ، ونحو ذلك .

قلت:وهذا الذي قاله السلف من المتشابه ينقسم إلى قسمين :

قسم محال على البشر أن يعلم تأويله في الدنيا كقيام الساعة ، والبعث ،

والنشور ، وصفات الجبار عز وجل .

وقسم يعلمه الناس وقت حدوثه ، ويمكنهم حينئذ تأويل النصوص وتطبيقها على المحسوس ، وهذا يشمل كل ما كان سيقع من المحسوسات في زمانه ومكانه .

ومن هذا الوجه ينبغي للمسلم أن يأخذ بعين الاعتبار تطبيق النصوص على محسوسات الكون ، وهذا هو هدفنا من سياق هذه البحوث

فهي وإن كانت تشتمل على مقاصد التأويل والرأي في القرآن العزيز والسنة المطهرة ، فإن الذي نحن بصدده هو الأخذ بالتأويل الصحيح ، وبذل الجهد بتفكير سليم لتطبيق النصوص على المحسوسات .

ولا ريب أن أصدق التأويل وأقربه إلى الحق وأبعده عن الاثم ، هو تطبيق النص على الحس ، لأنه يزيد في الايمان ، وليس القصد الفتنة بحال .

ولقد حدث أني تأولت من سورة (الزلزلة) ما أخذت منه دليلاً على بعض المستحدثات الصناعية ، وهو أن تفسير السورة واقع في الدنيا على ماقاله كثير من علماء الاسلام ، فلما اطلع عليه كثير من إخواننا استدلوا لرد ذلك عليّ بقولهم : « من قال بالقرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » كمضمون الحديث الذي مر شرحه ، ومن أراد الاطلاع على هذا البحث ، فليراجع كتابنا « دليل المستفيد على كل مستحدث جديد » فسوف يرى الحق إن شاء الله تعالى ، غير أن أولئك القائلين ربما سمعوا ذلك سماعاً مجرداً من الفهم للسياق

الذي أوردناه دون معرفة لمعنى الرأي المنهي عنه ، ومثل أولئك معذورون لجهل الحقيقة ، غير أنهم لو تأملوا الواقع وأخذوه بعين الاعتبار ، لكانوا إلى الحق أقرب ، والله المستعان .

بحث في العقل السليم والنصوص الشرعية

قد مرّت الإشارة إلى عـــدم مخالفة النصوص الشرعية للمحسوسات والمعنويات الملموسة ، وهنا نسوق ما يُثْبِتُ أن النصوص الشرعية لاتخالف العقل السليم في أفعاله وأقواله ، والعقل السليم فيما ظهر لنا : هو الذي كانت نتائجه الفعلية واللفظية لاتخالف النصوص الشرعية .

فالانسان متى دفعه عقله الى عمل صالح يحبه الله ويرضاه ، كان عمله هذا سليماً ، لأنه سلم من الانحراف عن أوامر الشـــرع ، فهو مبني على إحدى المقاصد التعبدية ، فمتى توفرت في الانسان هذه الصورة ، فهو ذو عقل سليم بصرف النظر عن دينه وقصده ، وهذا البـاب يشترك فيه المسلم والـكافر من الناس جميعاً .

أمـا المسلم ، فإنه يختص تفضيله بالقلب السليم ، لأنه مصدر الإيمان بالله تعـالى .

وقد ذكرنا تعريف القلب السليم والعقل السليم في كتابنا « العبر في نتائج القضاء والقدر » بأوسع من هذا .

ولقد سمعت كثيراً من إخواننا يستنكرون القول بأن العقل السليم

لا يخالف النصوص الصحيحة ، لأنهم يرون فيما أدركته مفاهيمهم أن النصوص الشرعية مطلقاً فوق مستوى العقول البشرية ، وهو خطأ في منطوقه ومفهومه، لأن النصوص جاءت تخاطب العقول البشرية بما هو من مقاصد المعاش والمعاد: والوعظ والإرشاد ، والتوجيه ، وغير هذا .

فمن قال : إن منطق النصوص الشرعية ومفهومها يخالف العقل السليم ، فإنه بعيد عن الصواب .

وقد ألَّف شيخ الاسلام ابن تيمية كتاباً بهذا المعنى أسماه « موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول » وقد ضمَّنه الرد على الفلاسفة وأهل الكلام الذين يقدِّمون العقل على النقل ،فهو يثبت بمضمونه أيضاً امتناع وجود المعارض العقلي لنص القرآن العزيز ، وقد جعل كتابه في جزءين ، وقد أشبع فيه البحث رحمه الله في مقاصد الحق ، ورد فيه شبهة المتكلمين والمتفلسفين في أسلوبهم الفاسد شرعاً وعقلاً .

غير أن ما سقناه هنا ، هو إشارة موجزة هادئة ، وقد انحصر في مفهومنا مطلق العقل بما قيَّدناه به ، وهو السليم فقط ، وقد مَرَّ تعريفه .

واعلم أن ما جاء من النصوص الشرعية مما هو فوق مستوى العقول البشرية ، كصفات الله سبحانه وتعالى ، فإنه يجب على المسلم إمرارها كما جاءت بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل في منطوقها ولا في مفهومها، وكذلك ما استأثر الله بعلمه، كالخمس التي لا يعلمها إلا هو ،كما جاء في قوله

تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) [لقمان : ٣٤]

وكذلك أحوال الآخرة ، ومافي الجنة من النعيم المقيم ، ومافي النار من العذاب الأليم ، كل ذلك فوق مستوى العقول البشرية ، ويجب في هذا كله الإيمان والتوقف وعدم تحكيم العقل .

ولا ريب أن هذا الكون الواسع هو فوق مستوى العقول البشرية ، وسيأتي ذلك قريباً .

فالعقل السليم لا يخرج بنتائجه عن مصــــادر التشريع ، وهي النص والقياس والإجماع ، كما لا يخرج بحال أيضاً عن مقتضى جميع المأمورات فعلاً، والمنهيات اجتناباً ، ومتى خرج عن هذا الطريق ، فإنه خرج عن مقتضى العقل السليم ، ويستوي في ذلك المسلم والكافر .

فالمسلم حين يفعل شيئاً من المأمورات، ويجتنب شيئاً من المحرمات بدافع الامتثال ، فإنه يلقى ثواب ذلك في الدنيا والآخرة .

وأما إذا خالف بشيء من أفعاله وأقواله ، فإنه ينتفي عنه مسمى القلب السليم والعقل السليم بقدر ماخالف فيه من فعل المأمورات واجتناب المنهيات، كما أن الكافر إذا عمل شيئاً من المأمورات أو اجتنب شيئاً من المنهيات بأي صورة من الصور التي دفعته إلى عمله ذلك ، فإنه يثاب على فعل المأمورات في

الدنيا فقط ، وبذلك الفعل يكون ذا عقل سليم زاد مازاد ونقص مانقص ، وهذه قاعدة تشهد لصحتها النصوص الشرعية .

واعلم أنه لا يجوز إطلاق العقل السليم على الكافر ، بل إنه لابد أن يكون مقيداً بحدود أفعاله وأقواله التي توافق الأمور المشروعة في ديننا ، بخلاف المسلم ، فإنه متى كان قائماً بأفعاله وأقواله ، فإنه يستحق إطلاق العقل السليم كما استحق إطلاق القلب السليم، ومتى شذ في شيء من أفعاله أو أقواله عن مقاصد الشرع ، فإنه يفقد هذا المسمى بحدود مخالفاته ، وذلك لا ريب أنه نتيجه نقص في مركب الفكر ، كما ينتقص من قلبه السليم أيضاً عند ممارسة المنهيات ، كما جاء في الخبر « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ...» الحديث.

فأرفع الناس درجة في المنقول والمعقول ، من جمع بين القلب السليم والعقل السليم في معانيهما الصحيحة ، فأولئك هم سادة العلماء، وفقهاء الاسلام، وهم أفضل الناس في كل زمان ومكان .

ولذلك فإن زيادة العقل السليم على مادة القلب السليم ، تكون صلاحاً للمرء في مقاصد الدين والدنيا ، لأن العقل هو الذي ينير الطريق أمامه في كل آفاق الحياة .

أما إذا نقصت مادة العقل السليم ، وزادت فيه مادة القلب السليم ، فهذا غالباً يكون به المرء موضع ارتباك في فهمه الأمور على حقيقتها، وربما زادت الغفلة في تصرفاته .

فالمسلم نتيجة ذلك ربما كفر لمخالفته نصاً أو إجماعاً من حيث لا يشعر ، بناءً على نقص التركيب في مادة عقله وتفكيره ، وما هو إلا لنقص فهمه للمقاصد الشرعية التي قد تأتي بالمنطوق،وقد تأتي بالمفهوم،وقد تأتي بالقياس.

وعلى هذا فإن القلب السليم شيء ، والعقل السليم شيء آخر ، والحفظ للنصوص الشرعية شيء ، والفهم لمقاصد التشريع شيء آخر ، والمحدِّث شيء ، والفقيه شيء آخر .

وعلى هذا الأساس وقعت الفوارق بين علماء الاسلام، ووقع الخلاف بين أئمة الدين وأتباعهم في كل زمان ومكان (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) [هود : ١١٨]

ولا ريب أن الأصل في هذا الخلاف هو التباين في الفهم الذي هو من نتائج العقل ، ولذلك فإن الله تعالى قد خاطب العقل السليم في مواضع كثيرة من كتابه العزيز ، وليس هذا محل ذكرها ، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا « العبر » .

على أن الله تعالى طلب من عباده في محكم آياته أن يستعملوا ماوهبهم الله من العقول في النظر والتفكر في عظيم مخلوقاته في السماء والأرض ، غير أن الانسان ضعيف مهما بلغت قواه العقلية أمام علم الله تعالى وعظيم مخلوقاته. وهناك أمور يدركها الانسان بمواهبه العقلية،فهو يراها من الممكنات،وهناك أمور حسية ومعنوية ليست من الممكنات ، ولا يفهمها الإنسان ، ويشهد على

نفسه بالعجز والنقص عن إدراكها ، كأن يخرق الأرض ، أو يبلغ الجبال طولاً ، أو يعلم من الكون مداه ، وأمثال ذلك .

وفي الجملة فما يعجز الإنسان عن علمه وإدراك محتوياته في هذا الكون ومشتقاته ، أشياء كثيرة لاتعد ولاتحصى ،غيرأن هذا لايحملنا على أن نقول : إن النصوص الصحيحة الصريحة منعت الإنسان أن يبذل قصارى جهده ليعلم عن هذا الكون ما أمكنه ، بل الحق أن الله سبحانه وتعالى أمر الانسان أن أن ينظر ويتفكر ببصيرته ، ولم يحدد للانسان حدوداً ينتهي اليها في بذله كل الوسائل الحسية والمعنوية ، وهو عز وجل يعلم ماسيصير اليه كل فرد من الناس بمفرده ، وفيما يتناوله بمواهب الله له في الأرض وفي والسماء ، حكمته قد قضت ،وأمره قد نفذ ،وسلطانه قد علا ،وبسطه على جميع مخلوقاته من الحيوان والجماد والنبات في كل أقطار الكون ، فهو الذي علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم ،وهو الذي خلق في الانسان العقل ، وخاطبه في كتابه ، ومن أجله كاف الانسان بما شاء من المحسوسات والمعنويات والعبادات ، فهو خالق أفعالهم ومقدر الحركات والسكنات ، فخلق بقدرته وتدبيره هذا العقل ليشترك في مسماه كل البشر ليستكملوا به أرزاقهم، ويعمروا الدنيا والآخرة ، وجعل لكل منها بنين، غير أن هذا لهسبحانه وتعالى وحده ، فهو الذي يتولى الجزاء والإنعام والعقاب .

ولامناص من نفوذ القضاء والقدر بما جرى في الأزل ، فحكمته عز شأنه

قد قضت بأن يكون بشر من خلقه لهم عقول هدفها عمارة الدنيا ولذاتها فقط يعملون في هذه الأزمنة على تنفيذ ما أراده تبارك وتعالى أن يكون فكان، فظهرت على أيديهم صناعةً واختراعاً، علماً وعملاً.

فلا غرابة، فإن الله تعالى لم يخلق عبثاً أولئك الذين نؤمن إيماناً قاطعاً بأنهم كفار به تعالى، وقد امتلأت الأرض بهذا الجنس من خلقه (ولو شاء الله ما أشركوا وماجعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل. ولاتَسُبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسُبّوا الله عَدْواً بغير عِلْم كذلك زَيَّنَّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بماكانوا يعملون) [الانعام: ١٠٧، ١٠٨].

فالحكمه الربانية قد قضت بأن المسلم والكافر قد يكون فيهما من نتائج العقل السليم والتفكير الصحيح مايكون موافقا لمقتضيات النصوص الشرعية مما يحبه الله ويرضاه، والحق أن هذه الصورة ليست وقفاً على المسلم لإسلامه، ولكنها من خصائص الجنس البشري، لأنه منفذ بتوجيه القضاء والقدر الذي قد ارتبطت به الحركات والسكنات.

أما الثواب والعقاب العاجل والآجل، فهو عند الله وحده، وقد أوضحت الشرائع قواعده ظاهرة لاخفاء فيها.

فالكفار ينظرون الى هذا الوجود كله من نافذة الحياة المحدودة فقط، وما للنفس وما عليها من التكاليف التي علموا حقيقتها، صحيحة أو مادية، فردية أو جماعية، وكل ما كان من لوازم الحياة الاستمتاعية، أخذوه من مصدر

التجارب العقلية الصحيحة التي هي في أغلب أحوالها لاتخالف المقاصدالشرعية لعمارة الحياة ، وأساليب الاستمتاع البشري ، والآداب المرعية التي ترفـــع مستوى الأخلاق الإنسانية .

وإذا أردنا أن ننطق بأسلوب الانصاف والاعتراف ، فإن الواقع يثبت بأن كثيراً من المجتمعات الراقية في بلاد الافرنج والتجمعات الدهرية قد أخذت بآداب الشريعة الاسلامية كاملة غير منقوصة ، بينما نجـــد كثيراً من المسلمين قد نبذوا كثيراً منها في جميع أمورهم ومقتضيـات دينهم وإسلامهم ، وهذا ملموس يأسف له كل مسلم قد أحاط علماً ببعض المجتمعات البشريـة ، ولمس من الاخلاق الانسانية اليوم مايفهم من خلالهـــا الفوارق بين هذه الاجناس البشرية .

وإذ أخذنا بعين الاعتبار ما لمادة القلب وسلامته من الأثر القيم ، فإن هذا شيء ، والعقل شيء آخر ، فلا غنى للمسلم عنهما جميعاً في كل مستلزماته التي عليه أن يزاولها في المجتمعات البشرية ، كما مرّت الاشارة إلى محاسن الغلبة حينما تكون للعقل ، لأنها تأتي بالفضيـلة والكرامة ظاهرة بارزة ، وإنما الحيرة والارتباك يسودان مستلزمات المسلم في المجتمعات البشرية عندما يقل الوزن في هذه المادة العزيزة .

فكثيراً مانجد أناساً من أهل الدين والصلاح وأصحاب القلوب السليمة عقولهم منزوية على نفسها ، وليس لها امتداد ولامجال ، ويحبون تعليم النـاس

الخير ، غير أنهم في حاجة ماسة لما فقدوه من تلك المـــادة ليستنبطوا الحق من مواضعه ويضعوه في مواضعه .

وإذ كانت قلوبهم سليمة ، فربما تدفعهم حينما يمارسون شيئاً من الالتزامات الاجتماعية إلى اليقين القطعي بأن كل شيء في الوجود من هذا الكون الواسع في الأرض والسماء خاضع لتفكيرهم ومعلوماتهم ، فنجدهم في هذا الزمان الذي تفجرت فيه خفايا كونية لا حدود لها ، يضعون المحسوسات في باب المعدومات حينما يكون المحسوس غير خاضع لفهمه وادراكه .

وأسوأ ما يكون اليوم في حق الاسلام والمسلمين في داخل المسلمين وخارجهم ، هو التعصب على المعارضـــة في المحسوسات بدافع التمسك بتأويل ألفاظ القرآن حتى تكون النتيجة التكذيب في وجود تلك المحسوسات.

وهذا لا ريب أنه موقف غير سليم ، وله نتائج غير صالحة في حق الدين الاسلامي ، وقاعدته كلام الله عز وجل ، وهو خلاف الواقع ، وإنما جاء من قبيل التعصب الذي قال به هذا المسلم لسلامة قلبه .

فحينما يتأمل المرء أحوال الناس اليوم في المجتمعات الاسلامية وغيرها، فانه يجد العجب العجاب من تغير المفاهيم البشرية وإدراكهم حق الادراك لما دخل على الناس من تطور الصناعة ، والعلم الحديث ، وتوفر الامكانات المادية والمواصلات التي خضع لها البعيد والقريب ، وبالمواصلات قد أدرك الكثيرون علماً مباشراً محسوساً ملموساً عن الجنس البشري وإمكاناته في كل أصقاع

الارض وبقاعها ، فهـــذا العلم يعز على من جلس في قعر بيته ، والاستنكار للمستحدثات بجميع صورها ، هو واقع في كل زمان ومكان ، ولهذا الاستنكار حكايات وأمثلة كثيرة معروفة ، غير أن الاستنكار اليوم هو أقـل مما مضى في جميع أقطار الأرض ، لأن المفاهيم قد خطت في بحر تلك الانقلابات الحديثة خُطاً لاتستغرب مع الوسائل التي قد هذّبت المفاهيم وطورت العقل السليم ، غير أن من كان يستنكر بصريح عقله المحدود وفهمه للمحسوسات ، لاريب أنه لايلتفت اليه بحق كما كان الحال فيمن يقول : قال الله تعالى ، وقال رسوله ﷺ ، فهما شيئان لايشبه أحدهما الآخر .

فالاستنكار يختلف مفعوله — سواء كان حقاً أو باطلا - باختلاف الافراد والمجتمعات ، وباختلاف الزمان والمكان أيضاً .

فلو أن عالماً من علمائنا فيما سلف من الزمن ، قد استنكر على من يقول بوجود سيارات تمشي على صورتها الملموسة اليوم ، وكذلك وجود طائرات تطير بالهواء ، وتمشي بين السماء والأرض ، واستدل لاستنكاره بأدلة ، لوجد الناس من حوله كلهم يثبتون له الحق في هذا الإنكار والاستنكار ، لأنه عندهم من ضرب المحال .

ولقد ورد في السُّنَّة أن الدجال يأتي بالغمام ، وله ثلاث صيحات يسمعه من في المشرق والمغرب ، وأن كنوز الأرض تتبعه كيعاسيب النحل ، فكان العالم والجاهل في المسلمين يعتقد أن هذه الأمور هي من خصائص الدجال ،

لأنها فوق مستوى العقول في أزمنة قد مضت وانقضت ، بينما الناس اليوم كلهم يلمسون وقوع هذه الوسائل وهي الطائرات والراديو ونحو ذلك ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « دليل المستفيد » بأوسع من هذا .

واستنكار العامة لبعض الغرائب حسب مفاهيمهم غير ذي بال ، وإنما الاستغراب يأتي من استنكار العلماء ، أو من تحلى بهذه الصفة من المسلمين ، لأن أولئك لا يجوز لهم بحال أن يستنكروا شيئاً من المحسوسات ، ولا من المعنويات الكونية وغير الكونية إلا بأدلة شرعية يعلمون أنها الحق الذي لا تحتمل التأويل ، أما ما يحتمل التأويل ، أو هو من الممكنات ، فيجب على العالم التورع من الانخراط في مواقف الانكار بلا استثناء .

ولقد كان من علمائنا رحمهم الله من قيل عنده: إن علماء الافرنج يحاولون الوصول إلى القمر ، فقال رحمه الله بدافع شدة الانكار لتلك المحاولة: إن وصلوا إلى القمر فالقرآن كذب والرسول كـــذب ، والحق أن هذه زلة من زلات العلماء ، ولا غرابة فإننا نجد اليوم على الرغم مما ظهر من الاختراعات والامكانات الصناعية والمحاولات الفعلية من ينكر محاولة وصول الإنسان إلى القمر أو إلى شيء من هذه الجمادات الكونية ، ولم يكن في تقديره أن ما بين الأرض والقمر وكذلك الأجرام الأخرى فضاءً وطبقات شفافة، وأن الطائرة التي تطير بسرعة متفاوتة في الفضاء من فوقنا ، وبارتفاعات متفاوتة أيضاً ، أن في إمكانها الوصول إلى ارتفاعات شاهقة ،وما هو إلا أن تتضاعف

القوة لاختراق الطبقات الفضائية ، وتتضاعف السرعة فتصل إلى ما شاء الله تعالى من الأجزاء الفضائية ،لأن مبادىء الاختراعات إذا أمكن التغلب عليها، أمكن التغلب على مضاعفة المنافع إلى الحدود التي قد حددتها المقادير الربانية فقط ، فالله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد ، فهو الذي خلق الناس ، وخلق أفعالهم ، وحدد ما سينتهون اليه من هذا الكون (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [يوسف : ٢١]

فمن واجب العقول أن يكون في حسبانها اليوم مالم يكن في حسبان من مضى وانقضى ، فالفتيا والتحريم والتحليل والإثبات والإنكار في الأجزاء الكونية ونتائج المواد الصناعية ومطابقة التأويل للنصوص الشرعية في كل ما ظهر على مسرح الحياة ، يتباين في كثير من صوره عما كان عليه آباؤنا وأجدادنا الأولون .

فلو قيل في زمن غير بعيد : إن الناس في هذه البلاد يسمعون بآذانهم أصوات المتكلمين في أمريكا ، أو قيل : إن مَنْ في هذا البلد ينظر إلى من في البلد الآخر ، وأنكر هذا أحد من الناس ، واستدل له بتأويل شيء من النصوص ، لوجدنا الناس كلهم يؤيدونه ويشهدون له بالصدق ، ويشهدون على القائل بالكذب أو الكفر أو الجنون .

وأما اليوم ، فلو استنكر هذا أحد ، لكذبه حتى الصبيان ، ورمَوْه بالجنون ، لأنه كذَّب محسوساً لا يحتمل الانكار .

وهكذا يقاس ماظهر على مسرح الحياة من نتائج الصناعة والاختراعات، وما علم بالتواتر من الممكنات الكونية ، فالعاقل الفطن عندما يقول الناس : إن شيئاً من الممكنات قد ثبت وجوده ، فإن وجد ما يسوغ هذا المسموع في معلوماته وفي مدارك تفكيره ، أجاب، وإلا فليسكت ولا ينكر ، لأن التسرع باستنكار الممكنات فاسد النتائج في المجتمعات البشرية عامة ، وفي المجتمعات الاسلامية خاصة ، لأن استنكار الممكنات ليس من مقاصد الدين، وإذا كان هذا الاستنكار من عالم قدوة ، فإن أثره أبشع وأشنع .

وواقع البشر هو الاختلاف والتناقض في المفاهيم وفي مقاصد التأويل من النصوص الشرعية ، فنجدها يخالف بعضها بعضاً ، وخاصة في الأجزاء الكونية ، وهذا أسلوب علماء الاسلام السلف والخلف .

غير أن هذا الأسلوب متى قفز به صاحبه إلى الانتقاص والذم ، أو الجرح والخدش من غيره ، فسد الحوار ، ونقصت بركته ، وذهب نور العلم ، لأن ذلك نتيجة ضعف التفكير والإدراك ، وقد ذم الله سبحانه وتعالى قوماً ردوا مالم يخضع لتفكيرهم وإدراكهم ، فقال تعالى : (بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله) [يونس : ٣٩]

وإن كان الإنسان من جبلّته التكذيب بما يجهل ، غير أن على المسلم الموهوب أن لا يتسرع كغيره ، وأن يكون ممن استثناهم الله تبارك وتعالى من هذا العموم حيث قال تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك) [هود : ١١٩] على أن من شذ في أفعاله وأقواله عن أسلوب الحكمة التي ميّز الله بها عباده المخلصين ، لا بد وأن يكون متحجّراً في تفكيره ومفاهيمه ، وربما وقف على حدود واهية في المجتمعات التي تميزت بعقول سليمة معتدلة .

ولا ريب أن أي عمل قد يتشوّه به الاسلام ومحاسنه ومجتمعاته ، إنما يكون ذلك حرباً لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وسواء كان ذلك من مسلم أو كافر ، وسواء كان بقصد أو بغير قصد .

فالمسلم قد استحق اسم الاسلام لأفعاله وأقواله الصالحة التي يتوصل بها إلى فعل الخير واجتناب الشر ، إذ لا تكون صالحة بالمعنى الصحيح إلا بموافقة الكتاب والسنة منطوقاً ومفهوماً ، ولا ريب أيضاً أن القلب السليم لا يكفي في الميادين المتعدية من أقوال المسلم وأفعاله ومتطلبات الفتيا ومقاصد التشريع والإثبات والإنكار والأمر والنهي ، لان مصادر القلب السليم هي من خصائص المصلحة الذاتية في طاعته وخشيته لله تبارك وتعالى ، والتي يعود نفعها على نفسه ، ويحاسب على ذلك يوم القيامة .

أما من حرم من العقل السليم ، ودفعه قلبه السليم وانتصب إلى الفتيا والتحليل والتحريم معتمداً على ما يحفظه من النصوص الشرعية ، سواء نصب نفسه أو انتصب بدافع اجتماعي ، أو حكومي مادي ، أو معنوي ، فإن وقوع المتناقضات السلبية في نتائج أقواله وأفعاله أكثر من الإيجابية ، وبقدر ماحرم

من مميزات التفكير السليم تظهر الفجوات ، وربما أخذه الغرور أو الغفلة إلى فساد كبير لا تحمد عقباه . وقد مر أن العقل السليم شيء ، والقلب السليم شيء آخر ، وبينهما مفاوز يجب أن يحسب لها ألف حساب في مواقف الاصلاح الاجتماعي في أمور الدين والدنيا ، لأن لكل واحد منهما نتائج يلمسها أهل العناية والدراية .

فالانسان بقدر مابلغت به سلامة قلبه وصلاحه وفلاحه وبراءته من جميع الانحرافات المذمومة ، فإنه وقف على نفسه ، لأنه يخاطب به يوم القيامة كما قال تعالى :(يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) [الشعراء : ٨٩] .

أما مايحتاج إليه الناس من التوجيه والإرشاد والأحكام العامة والخاصة، فانها تفتقر إلى العقل أكثر من افتقارها إلى بعض النصوص الشرعية ، كما أنها تفتقر أيضاً إلى العقل أكثر من افتقارها إلى صلاح القلب وسلامته ، بل فلا حاجة لصلاح القلب وسلامته في هذا كله ، لأنها أمور متعدية في مجموعها ، والناس كلهم تقف غاياتهم وأهدافهم وما يضرهم وما ينفعهم على ظواهر الناس ، لا على بواطن سرائرهم من صلاحها وفسادها ، لأن علم السرائر لله تعالى وحده، فهو الذي يعلم السر وأخفى ، ويجزي عليه الجزاء الأوفى .

إذا تبين هذا ، فإن من المضار الملموسة على بعض من يطغى قلبه السليم على عقله ومدارك التفكير السليم، مايقع في كثير من الأحيان في مجال الخوض

في بعض الأمور الكونية وغير الكونية من المستحدثات المستجدة على الفكر الاجتماعي والفردي ، وقد يتمسك البعض بأمور ·

منها أن تكون الأدلة عمومات قد خصصت بما هو أثبت منها في النصوص الشرعية ، كما ساق بعضهم حديث « من تشبه بقوم فهو منهم » وجعله قاعدة أساسية يستنكر به على الناس كثيراً من الأمور التي أبعد ما تكون عن وضعها في سلك المنهيات .

ومنها ما يكون من مقاصد التأويل التي قد تثبت ممكناً ، وقد تخالفه .

ومنها أمور هي من باب الاختيار وقد يراها البعض إلزامية ·

ومنها أمور رآها بعض الناس كعادات اجتماعية أو فردية أو قبلية ، وقد يعدّها البعض الآخر من باب العبادات .

ومنها أمور مباحة ، أو هي في حكم الاستصحاب ، وقد يتطرق من قل فهمه إلى فعلها أو تركها بأمر أو نهي يعزوه إلى الدين ·

ولا ريب أن مدار القبول والرد متوقف على نتائج الفهم لمقتضيات النصوص ومراتب الدين ، وإذا قل فهم الانسان في هذا المجال ، فانه قد يستنكر كل ما استجد على فهمه ، وربما كان يلتمس له لدافع استنكاره ما يضع به الشكوك من ألفاظ السنة .

ومقاصد التأويل الخاصة بالأمور الكونية من القرآن، أخذ علماء الإسلام بتأويلها ، مما أدى إلى اختلاف شديد ، فقد يتأولها بعضهم ويكون

الواقع خلاف تأويله. فلا يعيب أحد منهم على الآخر، وهو الحق، لأن مقاصد التأويل هي الهدف للعقول البشرية من السلف والخلف.

ظاهرة مؤلمة

مما ظهر في مجتمعاتنا ماحدث من مشادة مريرة بين بعض إخواننا حول إثبات حركة الأرض وإنكارها، والذي حصل أن بعض الرجـــال من أهل العلم قد ادعى أن الأرض تدور حول محورها، وأن الشمس تجري بحيث إنها تدور أيضاً حول محورها كالقمر والنجوم، وكل في فلك يسبحون.

واعتمد في ذلك على أمرين:

الأول: ما أثبته العلم الحديث في ذلك كله.

الثاني: ماتأوله من بعض ألفاظ القرآن، كما أخذ كثير من العلماء في الأقطار الاسلامية بهذا التأويل، وجعله دليلاً على حركة الأرض.

أما البعض الآخر وهم الذين استنكروا هذا كله، وليتهم وقفوا عند هذا الحد، بل كفّروا من قال بحركة الأرض معتمدين بذلك الانـــكار على ماقاله بعض علماء السلف بتأويلهم بعض الآيات القرآنية بأنها تدل على أن الارض ثابتة لاتتحرك، وأن الشمس تجري، وجريها: سيرها في فلكها، يعني كما تسير الطائرة في الفضاء حينما تجيء من المشرق إلى المغرب.

ورأيت كتاباً لبعض إخواننا بهذا المعنى يحتوي على ١٩٠ صفحة كتبه في سنه ١٣٨٦ هـ وطبعه سنة ١٣٨٨هـ، وسمعت بأكثر من كتاب قد كتب بهذا المعنى

الذي يثبت أن الارض ثابتة غير متحركة ، ويستدل كل لذلك بما رآه حقاً من النصوص الشرعية ، ويستشهد بها على كفر من قال بغير ذلك ·

ومما رأيت في الكتاب أول ما وقع عليه بصري ردّه على من زعم أن الشمس لاتجري .

فقلت في نفسي : سبحان الله ،وهل أحد في الوجود يقول :إن الشمس لاتجري ؟ ! وحتى الكفار فإنهم يقولون : إن الشمس تجري ، ولكن حول محورها ، كما أن الأرض تجري حول محورها.أما المسلمون الذين يقرؤون القرآن ، فإنني أعلم علم اليقين أنه لايقول أحد منهم : إن الشمس لاتجري ، فضلاً عن أولئك الذين كانوا هدف الكتاب في التكفير والإنكار ، فإنهم من العلماء الذين يقتدى بهم في الوعظ والارشاد والتوجيه والوجاهة ، فعلمنا بذلك أن هذه الجملة لاحاجة لها بتلك العبارة المحدودة ، والذي يظهر أنه لايقصد بتلك العبارة مطلق الجري،وإنما هو مقيد بمن يقول : إنها تجري حول محورها فقط ، كما يقول به رجال العلم الحديث .

وسنأتي على أحوال الأرض ومعنى « تجري » في محله من أجزاء هذا الكون إن شاء الله تعالى . غير أن الذي أريد أن أقوله هنا : إن المسألة بكلياتها وجزئياتها ليست من الدين في شيء ، وليس لمجتمعاتنا في إثبات حركة الأرض وعدمها ، ولا في إثبات أن الشمس تجري حول محورها أو غير ذلك أي

فائدة أو عائدة في الدين ولا في الدنيا ، ولا في المعاش ولا في المعاد ، بل إن النتيجة محض جدل بالمعنى الصحيح ، وإن في الجدل غالباً زلات مهلكة وفجوات سحيقة .

وخلاصة القول أن علماء الاسلام الذين قالوا بحركة الأرض لم يأتوا بأي دليل قطعي من القرآن ولا من السنة يدل على حركة الأرض ، وإنما جاؤوا بتأويلات لبعض ألفاظ القرآن ، وهي في الحقيقة لا تدل على حركتها .

كما أنهم لا يعرفون أي علم يفهمون من خلاله حركة الأرض أو جري الشمس حول محورها ، إلا ما نص عليه القرآن في جريها المطلق ، وهنالك أخذوا بقبول ما قاله رجال العلم الحديث ، ثم إنهم بصفتهم مسلمين ومن رجال العلم ، أخذوا يلتمسون الأدلة من النصوص مما يرونه مقنعاً لهم فيها استقر في نفوسهم .

وقصارى ما توصلوا إليه وأخذوا به هو ما قاله رجال العلم الحديث فقط كما قلنا سابقاً . وقبول قول الكافر فيه شيء من الحرج حينما يكون في أمور كهذه ، فالورع عدم الأخذ بها ، لأنها أمور كونية وموضع تأويل فيما أشار إليه القرآن من أحوال الأرض والشمس . أما إذا كان قول الكافر في أمور ترجع إلى المأمورات أو المنهيات ، فإن الأخذ بقوله حرام لا يجوز ، وسنأتي على هذا المعنى في نقل الكافر في الأجزاء الكونية إن شاء الله تعالى .

وأما إنكار إخواننا لحركة الأرض ، وجزمهم بصورة قطعية أن الأرض

ثابتة لاتتحرك ، وأن الحركة للأجزاء الكونية من فوقنا ، وأنها تسير بالفضاء كما تسير الطائرات من المشرق إلى المغرب ، فهذا اجتهاد منهم وقد بنوه على تأويل لبعض ألفاظ القرآن التي جاءت عن الأرض ، وما أثبته بعض علماء السلف بناءً على هذا التأويل،وفي اعتقادي أنه لامؤاخذة فيما يجتهد به المسلم فيمقاصد التأويل،أومايأخذ به من أقوال العلماء حينما يراه حقاً لأمور:

أولها : أن القول بعدم حركة الأرض وثبوتها هو قول كافة سلف المسلمين .

الثاني : أن هناك نصوص من القرآن تأولها الخلف كما تأولها السلف .

الثالث:أنه لم يظهر لهم ، بل ولالغيرهم صورة محسوسة ملموسة تدل على حركة الأرض وعدم سير الكواكب من المشرق الى المغرب بما فيها الشمس والقمر حتى يمكن القول بأن النصوص لاتخالف المحسوس ويعود التأويل في حركة الأرض كماكان في كرويتها ، لأن علماء السلف قد أجمعوا على القول بأن الأرض غير كروية ، فلما ظهر لعالم الوجود بالملموس أنها كروية ،كان التأويل في أقوال علماء السلف مخالفاً للمحسوس، فلا يلتفت إلى تأويل يخالف المحسوسات ، وعلماء السلف اجتهدوا كما اجتهد إخواننا اليوم، ووصلوا إلى القول بعدم حركة الأرض ، غير أن الذي يعد من باب التسرع هو التكفير في مسائل التأويل لأنه لايأتي بخير البتة ،وهو إلى الشر أقرب في العاجل والمستقبل .

ولذلك دلالة واضحة في مقاصد الورع والفهم السليم، والذي ينبغي أن يقف عنده المسلم في هذا النزاع، هو ماثبت بالمقطوع به أن النصوص الشرعية لاتخالف المحسوسات والمعنويات التي تكون ملموسة في جميع الآفاق الكونية، وأن كروية الأرض ثبتت بالملموس، ولم يأت نص في منطوقه ولا في مفهومه يخالف ماثبت من حالها، وما أخذ به علماء السلف من تأويل بعض ألفاظ القرآن وجعلها كدليل على أنها كروية، إنما هو مطابق لما انتهت اليه معلوماتهم عن صورتها المبسوطة فقط، وسيأتي هذا في ذكر الأرض. وأما بالنسبة لحركتها، فإنه لم يأت دليل ظاهر في منطوقه ولا في مفهومه يكفي للقول بأنها متحركة، ولم يكن هناك محسوس ملموس ندركه عن حركتها يدفعنا للقول بذلك كما دفعنا للقول بكروية الأرض.

وعلماء السلف يقولون: إنها ساكنة لاتتحرك، وهم القدوة فيما خفي علينا جملة وتفصيلاً من الأمور الكونية، كما هم قدوتنا في الأمور التعبدية.

وبقي عندنا المنقول عن رجال العلم الحديث من الافرنج وغيرهم، فمعلوماتهم في أحوال الكون وما اختلف فيه أهل الاسلام لاتُصَدَّق ولاتكذب، وهذا موقف الاعتدال حتى يشهد له محسوس ثابت ملموس، أو تأويل سليم تقبله العقول ولاتخالف نصاً صريحاً ولامحسوساً ظاهراً.

والأصل في الأجزاء الكونية عدم الإثم والتحليل أو التحريم لما يتوصل إليه الناس عنها من المعلومات، لأنها ليست من الأمور التعبدية، فلو أن شجرة

خضراء يشهد عليها الناس ، وكان نظر الرجل لايدرك خضرتها ، فقال: إنها غير خضراء ، بل إنها يابسة ، فإننا لانعيب عليه في دينه ، وإنما نعيب عليه في إدراكه الذي هو جهله أو عناده ، لأنه لم يخضع إلا لإدراكه هو ، ولو قال قائل : طلعت الشمس ، وأنكر عليه الآخر طلوعها ، فإنما الفارق بينهما الجهل أو العناد ، وليس لذلك سبب في كفره وإسلامه .

ولو أن أحداً من الناس اليوم أنكر كروية الأرض على الرغم من إجماع الناس على كرويتها ، فإنما يقال : هذا جاهل في كرويتها،ولادخل لذلك في إسلامه ودينه،فأي جزء من أجزاء الكون أنكره الانسان أو أثبته ، فإنما ينبني على إدراكه وعلمه وعقله فقط ، أما تجريمه حينما يخالف بمفهومه غيره ، فإنه بعيد عن الصواب في المنقول والمعقول .

والذي يجب أن ننظر اليه من الوجهة الدينية ، هو أن من أنكر شيئاًمن ألفاظ القرآن العزيز ، كمن أنكر أن الله جعل الأرض بساطاً ، والله تعالى يقول : (والله جعل لكم الأرض بساطاً) [نوح : ١٩] أو قال : إن الشمس لا تجري، ولا تسبح في فلكها. والله تعالى يقول:(والشمس تجري لمستقرٍ لها) [يس : ٣٩] : (وكل في فلك يسبحون) [يس : ٤١] ، فبانكاره أصل النص يكفر ،وأماإذاأوّله،فلا،لأن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض مكوّرة في عمومها، وقد جعلها بساطاً فيما يراه الناس ويلمسونه ، ولا ينافي مفهوم لفظ الآية أن الأرض كلهامنبسطة،وأن فيها مواضع شاسعة ، وتضاريس وعِرَة ، وجبال

شاهقة واسعة، مما جعل أجزاء كثيرة من الأرض ليست بساطاً، أي مبسوطة، وإنما الحكم للأكثر، فإن أكثر الأرض مبسوط سهل واسع.

وكذا من أنكر أصل جريان الشمس، فلا ريب أنه كافر لتكذيبه القرآن، غير أن من قال: إنها تجري في فلكها وحول محورها، سواء تحقق هذا أو لم يتحقق، فإنه أثبت الجري الذي نص عليه القرآن في مسماه، وأما صورته، فهي محل الخلاف، كما أن من أثبت ما قاله تعالى عن بسط الأرض وأقرّ به، فإنه لا ينكر عليه اختلاف القول في كيفية الانبساط، هل هو مما يصدق عليها كلها أو بعضها، أو يصدق على عدم كرويتها، أو يصدق على أجزاء منها مما يلمسه الناس مع كرويتها.

فالتكفير إنما يكون لمن أنكر شيئاً من القرآن العزيز، لا لمن أنكر صورة من صور المحسوسات جملة وتفصيلاً.

من وظائف المؤمن الاعتدال

إفراط المسلم أو تفريطه في أمره ونهيه ووعظه وإرشاده في أي نوع يتناوله لفظاً وكتابة، ينبغي أن ينبني على مصادر العقل السليم والورع الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالله جلّت قدرته لما أرسل موسى إلى فرعون أعصى أهل الأرض وأفجرهم وأكفرهم بالله تعالى، قال الله لموسى وأخيه: (فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكر أو يخشى) [طه : ٤٤] لأن من كان بعيداً عن الحق في المنطق، فإنه بعيد عن الحق في المقصد.

فتناول إخواننا للتكفير والتشويه والمبالغة في أمور هي في مقاصد التنزيل من مواقف التأويل الذي يحتمل معاني كثيرة، خطأ واضح، وقد كان علماء الاسلام يقولون في تأويلاتهم ما ينتهي اليه فهم كل واحد منهم بدون نكير ولا استنكار، فضلاً عن التكفير والتجريح، وإذا لم تظهر إلى عالم الوجود مقاصد الهداية والارشاد والدعوة إلى الحق باليسر ومنطق العقل لحماية هذا الهدف السليم، فلا يمكن بحال أن تظهر بعكس ذلك.

من واجباتنا

ولسلامة هذا البحث القيم، فانني أسترسل إلى واقع يستحق العناية من علمائنا ذوي العقول السليمة، والنظرة المستقيمة، والهمم العالية في مقاصد التنزيل لمراعاة الأحوال الفردية والاجتماعية داخل بلادنا وفي خارجها، مما يعود بالنفع العميم على مسمى ديننا الحنيف وبلادنا المقدسة، فكل العالم الاسلامي والعالم المتقدم في المواهب التي قد خطت بالانسانية باذن الله تعالى إلى التطور والتقدم في ملموسات تفوق العد والحصر، كلهم يعلمون علم اليقين بأن هذه البلاد المقدسة وبما ضمته حدودها الجغرافية من الحاكم والمحكوم والعالم والمتعلم أفضل بلد إسلامي على وجه الارض لتمسكها بأصول هذا الدين الاسلامي وفروعه، وانها أبعد ما تكون عن الخرافات والانحرافات التي ليست من الدين في شيء مما عم شره جميع أقطار الارض.

فلإفراط بعض المنتسبين أو تفريطهم، فإن في العالم الاسلامي وغيره أناساً من

ذوي المواهب كما قلنا آنفاً : قد يحملنا بعضهم على شيء من التخلف عن فهم الحياة الانسانية الحديثة على حد قولهم ، والتي يراها المثقفون في تلك الاقطار لا تخالف المقاصد الشرعية في المنطوق والمفهوم ، وهذا مبني منهم على بعض الظواهر النادرة كما مر ذكر بعضها ، والعقلاء في تلك الأقطار يرون ذلك دالاً على ما يسمى تخلفاً وتعصباً غير وارد .

والواقع هو العكس في ذلك كله ، ففي بلادنا المقدسة تفهم سليم قد أدرك به رجالنا الذين بيدهم الحل والعقد حقائق الأمور في الداخل والخارج وفي أمور الدين والدنيا ، غير أن بلادنا لا تقاس عليها البلاد الاخرى في عالم الوجود ، ولا تشبهها لأمور ثلاثة .

أولها : أن بلادنا مقدسة لا تشبه أي بلد آخر ، ويجب على أبنائها حمايتها بما يحفظ لها قدسيتها ومكانها الروحي ومحاربتهم لجميع مصادر الفساد وموارده الحسية والمعنوية ، الفردية والاجتماعية .

ثانياً : أن بلادنا المقدسة فتية قد برزت لعالم التقدم متأخرة ، وهي بما حوته من التطور والتقدم في مسمياته قد بلغ مبلغ الاعجاب في كل مرافق الحياة ، وهي سائرة حثيثاً ، والله المستعان .

ثالثها : أن ما يحدث من البعض كعامل من عوامل التخلف الفكري كما يقال ، فإنما ذلك نتيجة تفكير فردي فيها ، كأي بلد في كل زمان ومكان ، فأي بلد في عالم الوجود لا تخلو مجتمعاتها من تخلف الفكر الفردي ، وهو أمر حتمي لا يخلو منه زمان ولا مكان ، لما للمفاهيم من التباين .

ومتى كان عامل العقول السليمة له نفوذ في المجتمعات البشرية ، فإنه سيتغلب على الشذوذ الفردي ، سواء كان هذا الشذوذ في المفاهيم التعبدية ، أو في الأخلاق والآداب الشرعية .

والتعقل ، وتحكيم الفكر ، والتثبت في مواقف الأخذ والرد ، والتحليل والتحريم ، هو الهدف الصحيح الذي تظهر من خلاله الحكمة ويتغلب من خلاله الحق على الباطل .

فمعلوم أن من ينظر بعيني رأسه إلى الأجزاء الحسية والكونية ، ليس كمن فقد بصره .

ومن ينظر بـ(المكرسكوب) الذي يصف الأجزاء مليون مرة ، ليس كمن ينظر اليها بالعين المجردة .

ومن ارتفع بسفينة الفضاء إلى طبقات شاهقة بآلات الاكتشافات والمناظير الهائلة ،ليس كغيره في هذه المعلومات الفضائية.

ومن طاف في أرجاء الأرض فرأى بعيني رأسه مافي الوجود على هذه الأرض المترامية الأطراف ، ولمس ذلك بيده فانه أعلم بذلك ممن لم يفارق قريته في الصحاري القاحلة .

فالله سبحانه وتعالى يقول : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أُولوا الألباب) [الزمر : ٩] وهذه فوارق قد حكم الله بها بين الفريقين في نتاج العلم ومصادر الفكر والاعتبار .

فالممكنات الكونية لها حكم القبول أو التفويض ، ثم البحث بكل وسيلة ممكنة .

أما إنكار الممكنات ، فإنه جهل وقصور في مدارك التفكير الذاتي ومكابرة بالمحسوس ومخالفة للواقع .

ولقد ضرب الله تعالى للناس مثلاً في مثل ذلك في قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام على صِغَرِ الهدهد وضعفه وحقارته في جانب علم سليمان وقدرته، فلما قال الهدهد لسليمان : (أحطتُ بما لم تُحِطْ به وجئتُك من سبأٍ بنبأٍ يقين) [النمل : ٢٣] لم يتعجل في تكذيبه ، وإنما : (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) [النمل : ٢٨] لأن ماجاء به الهدهد من العلم هو من الممكنات ، وبذل الأسباب لاستطلاع الحقيقة عن هذا العلم الذي طالما كان محجوباً عنه، قد اطلع عليه هذا الهدهد الضعيف .

فلهذا وغيره ينبغي على المؤمن أن يكون موقفه أمام العلوم الكونية والممكنات الحسية والمعنوية موقف الاعتدال والورع والتعقل ، لأنه أولى الناس بهذه الخصال المحمودة شرعاً وعقلاً ، فاذا لم يعلم علم اليقين بما دل عليه العلم الحديث ، وما هو من نتائج الصناعة الحسية والمخترعات الفكرية ،ولم يجد لها مسوغا من حصيلة عقله السليم ، فعليه أن لا يعدم التفويض في باب الممكنات . على أن العلوم الكونية خاصة تفضي بمن كان له إلمام بنتائج

المحاولات والاكتشافات الى الاقتناع بأن حقيقة هذا الكون وجزئياته هي فوق مستوى العقول البشرية كما مر ذكر هذا المعنى .

وكثير من إخواننا الذين قد يجتهدون في مقاصد الانكار والاستنكار لبعض المستحدثات والكونيات ، هم في مستوى رفيع ـ ولله الحمد والمنة ـ من حسن القصد وسلامة القلوب ، ومن هذا الطريق تجيء الدوافع الدينية في مقاصد الارشاد،وقد تنعكس الى الاعتراض ثم الاستنكار ، فقد لاتصادف هذه مكانها اللائق بها فيما نحن بصدده .

وفي الغالب يكون أولئك معذورين ، لأنهم لم يمارسوا العلوم الحديثة بحكم الواقع ، ولم يلمسوا شيئاً من حياة الشعوب ومصادر الاختراع ، وما ذرأ الله تعالى في الأرض من خزائن فضله وكرامته لهذا الجنس البشري ، وانما حملوا قلوباً سليمةً قد امتدت مفاهيمها الى حدود تقطع لنفسها بأن ماكان في الكون خاضع لسابقه في حدود المعلومات الدينية أو الدنيوية التي توصلوا اليها ، غير أن هذا لا يبرأ به أحد من تبعة ماتخطه الأقلام ، وماتنشره صحف الأعلام في جميع أقطار العالم .

ولقد عرضت لي مرة صحيفة محلية وأنا لم أكن ممن يشتاق الى الصحف بتاريخ ١٨ ــ ١٠ ــ ١٣٨٨ هـ تحتوي على مقال يستهجن فيه صاحبه على من عناهم من هذا الجنس الكريم بحكاية مبطنة ،وقد صاغ عنوانها بلهجة دارجة فاسدة « طحت وإلا طيحك الجمل قال له :وصلت القمر » وقال : إنه قصد بما

تحت هذا العنوان من حوار خشن في واقع طري يصور خشونة الجهل حين يتصدى لانكار الواقع .

ثم أخذ الكاتب يسرد هذه المحاورة بين العالم في بلادنا ، والرجل الفهم الذي عرف أحوال العلم الحديث والأوضاع الكونية ، وقد عبر الكاتب عن العالم بقوله : « العالوم » وبالذي يحاوره « بالفاهوم » وذكر حواراً مخجلاً يصف جهل العالم بأبشع الصور ، ولقد أظهر الكاتب ما يكنه ضميره من الحقد والنفاق ومناهضة أهل الدين ، ولم يلتفت الى كلمة واحدة تشهد له بخير في حق إخوانه المسلمين .

شأنه في منشوره هذا شأن كثير من الناس الذين يسخرون ويستسخرون مما يجتهد به بعض إخواننا فيكتبون به الكتب ويحملون على الغير باستنكارهم حتى يكون من وراء ذلك فتنة وفساد كبير .

وإنا وان كنا لانستنكر وجود مثل هذه المنازعات الفردية والجماعية الدينية والدنيوية والأدبية ، لأن النفاق دائماً وأبداً كامن في أهله ينقض على أهل الدين والمروءات متى وجد فرصة ، وكثير من المنافقين ينتهزون الفرصة إذا ما حصل بين إخواننا شيء من الحوار والانكار والتكفير والتحقير ، حتى أخذ المنافقون زمام المبادرة بتعقب الآثار والتطاول على المؤمنين الأبرار .

وياليتنا نحاول أن نجد للرجوع الى الحق سبيلا ،لأن الحق ضالةالمؤمن، وأينما وجده أخذ به .

وإن مما يؤسف له أن كثيراً من الناس لا يفهمون ما وراء ذلك حق المعرفة ،إما غفلة ، وإما تغافلا ، كما أن كثيراً من الناس الموهوبين علماً وعقلاً يفهمون حقائق الأمور ويستطيعون بمجهوداتهم على نتائج سليمة تلتئم كما يلتئم القَزَع في الفضاء حتى تكون سحاباً متراكماً ، ثم يكون غيثاً ترتوي به شعاب وظراب في مقاصد الدنيا والآخرة (وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) [فصلت : ٣٥] .

وإذا كان هذا هو الواقع في المجتمعات البشرية حينما تلتقي فيه فضائل المواهب حتى يبرز من هذه اللقاءات نور يهتدى به ، فان حصيلة هذه المواهب بحر لاساحل له،لايراه إلا المبصرون .

وأي امرئ يستنكف من التحاقه في مواقف المدّ والجزر في نتائج المواهب عند ما تبرز مرئياته لعالم النقد ، فانه بذلك متحجر لا نتيجة لحواسه في مقاصد الأخذ والرد ، بل ولا يفهم المعنى من قول علماء الاسلام وأئمة الدين « كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ » .

حكم البحث في علم الكون

البحث في علم الكون هدف صحيح من أهداف الدين ، ومقصد سليم من مقاصد الشرع ،وهو من العلم النافع الذي يزيد في الايمان بالله تبارك وتعالى ويزيد في التواضع لله العلي القدير في جميع أنواع العبودية .

وقد كان البحث في علم الكون من قديم الزمن هدفاً من أهداف

المسلمين على القدر الذي دلت عليه النصوص الشرعية ، وأدركته العقول السليمة ، ولم تتناقض فيه من طريق المنطوق أو المفهوم .

وهو علم لا يضر المسلمَ جهلُه ،غير أن العلم به يزيد في الإيمان نوراً ويقيناً حينما يكون الباحث فيه من ذوي الإدراك السليم في التفكير والنظر .

أما من كان عنده نقص في التركيب الفكري ، وكان مزاجه أسود ، فان نتائج إدراكه في هذا البحث قد تكون حماقة ، وقد تكون جنوناً وزيغاً .

فالقرآن العزيز بدعوته للناس جميعاً الى هذ المقصد العزيز قد خص المؤمنين أولي العقول والألباب ، لأنهم هم المخاطبون ، بل وقد امتدح أولئك الذين استجابوا لله في بحثهم وإدراكهم لآياته وبيناته على حقيقتها ، فقال تعالى: (والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماًوعمياناً) [الفرقان : ٧٣] وقال تعالى : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) [البقرة : ١٦٤] وقال تعالى : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات

والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] فلقد ذكّر الله عباده المؤمنين بعظمته وجبروته وقدرته وقهره الذي وسع الكون كله ، وجعلهم من أولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض يجدون فيها هدفاً صالحاً يزيد في إيمانهم ، لأنها لم تخلق عبثاً أو باطلاً ، بل خلقت لشأن عظيم لايحيط بعلمه أحد من خلقه إلا بالقدر الذي شاءه عز وجل .

وإن لنا فيما نراه منها منافع ذكرها الله عز وجل لنشكره ونعظمه ، وأمرنا أن نتفكر فيها ونتأمل في منافعها ، حيث تظهر النجوم فنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، وتشرق الشمس فتضيء لنا نهاراً لمعاشنا وأرزاقنا وصلاح ثمارنا وصحة أجسامنا ، ويطلع القمر فيضيء لنا في الليل نوراً هادئاً يتلاءم مع سكوننا وراحتنا (الشمس والقمر بحسبان) [الرحمن : ٥] (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون) [يس : ٤١] (لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق) [يونس : ٦] (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) [ابراهيم: ٣٤، والنحل: ١٨].

فمن قال : إن أجرام الكون قد خلقت لتلك المنافع الإنسانية التي تنحصر في نور الشمس فقط — سواء في ذلك مايصل إلى الأرض من هذا النور أوما يضيء من أجزاء هذه الأجرام الكونية أيضاً — فقد أخطأ الصواب واحتجز عظيماً على ذرة من ذرات الكون .

قال البخاري رحمه الله في كتاب « بدء الخلق » : وقال قتادة : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) [الملك : ٥] خلق هذه النجوم لثلاث : جعلها زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يُهتَدى بها ، فمن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلَّف ما لاعلم له به . نقله ابن كثير في « البداية » .

وهذه الأمور الثلاثة قد جاءت بصريح القرآن، في قوله تعالى: (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) [الملك : ٥] وفي قوله تعالى : (وبالنجم هم يهتدون) [النحل : ١٦] وفي قوله تعالى:(وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) [الانعام : ٩٧] .

وقد يقول الجاهل بمقاصد السلف الصالح من علماء الاسلام رضي الله عنهم ممن قد اطلع على شيء من العلم الحديث في معلومات الفضاء في زماننا هذا : إن قول قتادة رحمه الله هنا يراد به الحصر لجميع المقاصد والأهداف التي خلق الله عز وجل من أجلها تلك الأجرام الفضائية التي نراها من فوقنا ، فيعيب على حد فهمه علماء السلف ، وقد ينتقص من فهمهم وإدراكهم ، وهذا خطأ واضح وسوء فهم مردود ، فإن ماقاله قتادة رحمه الله تعالى ينبني على ظاهر لفظ الآية ، وهو مايعود من تلك الأجرام بالنفع الملموس لأهل الأرض من الجن والانس ، كما أنه بهذا القول ينفي مايعتقده المنجمون وعلماء الفلك ومن سماهم النقل بعلماء الأحكام أي أحكام النجوم ، واعتقادهم بأن لتلك الأجرام

الفضائية تأثير في حوادث الأرض ، وقد يسمون تلك الأجرام بأسماء مشتقة من تأثيراتها على أرضنا على حد مزاعمهم الفاسدة الباطلة عقلاً وشرعاً .

ولاريب أن هذه الأمور التي ذكرها قتادة رحمه الله هي خاصة بأهل الأرض من المنافع والمضار .

وليس مراد السلف الصالح القطع بأنها لم تخلق إلا لهذا فقط ، وهو مفهوم الآية كما قال تعالى : (وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [الجاثية : ١٣] وهذا واضح أن مافي الأرض ليس كله صالح للانسان ، وأن جميع مافي الأرض ليس خاصاً بمنافع الانسان فقط ، بل هذا اللفظ يدل على الأكثر والاغلب ، فإن في الأرض من المنافع ماهو لغير البشر في البر والبحر من تلك الأمم التي لايعلمها إلا الله عز وجل ، كما قال تعالى : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) [الأنعام : ٣٨] وهكذا ماقد سخره عز وجل لعباده في السماء مما هو مضيء يرى برأى العين المجردة فقط ، أما ماسوى ذلك ، فليس للإنسان فيه فائدة ولم يكن ضمن مانصت عليه الآيات القرآنية ، كما قال تعالى : (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمرَ والنجومُ مسخراتٌ بأمره) [النحل : ١٢] .

إن العلم الحديث اليوم قد وضع في حسبان الناس عن هذه الأجرام السماوية المضيئة فيها وغير المضيئة ومايراه الانسان بالمناظير الحديثة على حقيقته وما لا يراه .

أقول : قـــد وضع في حسبان أولي العقول والألباب مفاهيم واسعة الآفاق من العلم في إدراكهم لحقائق معينة قيّمة في هذا السبيل ، طالما كانت في طي الغيب ولم تكن في يوم من الأيام في حسبان السلف الصالح .

وعلى هذا فإن علماء السلف رضي الله عنهم ينظرون بنور الله ، ولذلك فإنه لم يكن في قيلهم عن الكون وأجرامه وطباعه أي مخالفة لمـا نصت عليه الآيات القرآنية والأخبار النبوية ، وهذه النصوص الشرعيـة لايمكن بحال من الأحوال أن تتباين مع ماقد يقع محسوساً أو يأتي بنقل في مرتبة علم اليقين من علم الفضاء الكوني في القديم والجديد ، وإذا وجدنا أي قول عن أحدمنهم يخالف ماوقع في الجديد ملموساً أو جاء بنقل في مرتبة علم اليقين ، فإنه إمـا قول بنقل غير صحيح ، وإما اجتهاد ينبني على مايقـع في نوادر اجتهادهم الذي قد بني غالباً على مقاصد التأويل ، لأن المجتهد لابد أن يكون اجتهاده مبنياً على أصل من منطوق النصوص الشرعية أو مفهومها .

ولايلزم من قول المجتهد العصمة أو الصواب في نفس الأمر ، وإنمـــا الذي يلزم أن يكون اجتهاده مبنيـاً على أصل شرعي من النص أو القياس أو الإجماع .

إن الله جلّت قدرته قد دعا عباده بل قد نادى كل الإنس والجن في كتابه العزيز إلى الالتفات إلى علم الفضاء ،وذكر سبحانه وتعالى دعوته إلى هذا المقصد العزيز في مواضع كثيرة من القرآن .

فمنها مايقتضي الأمر ، كما قال تعالى في سورة [يونس : ١٠١] (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وماتغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) ولم يرد في القرآن العزيز النظر بمعنى الأمر إلا في هذه الآية بهذا اللفظ .

ومنها مايقتضي الترغيب ،كقوله تعالى في سورة [ق : ٦ ــ ٨]:(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرةً وذِكرى لكل عبد منيب) ومنها ماهو في معنى التحدي والتوجيه ، وهو قوله تعالى في سورة [الرحمن : ٣٣] (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان) فقد يفهم من هذه الآية الكريمة التحدي ، وقد يفهم منها التوجيه والإرشاد إلى أسباب النفوذ والمحاولات الفضائية ، وذكر الوسائل التي لايمكن بحال نجاح المحاولات إلا باستكمالها ، وسيأتي معنى الآية والكلام عليها إن شاء الله تعالى .

إذا تبين هذا ، فاعلم أن الله تعالى قـد رغب عباده في التفكر في خلق السماوات والأرض .

وماورد في الآية الأولى والثانية من الدعوة للنظر ، فانما ذلك مقتضاه الاعتبار واستعمال التفكير في عجائب مخلوقاتـــه ، وليس معنى ذلك النظر المجرد ، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن .

ولقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) [يونس : ١٠١] وهذا الأمر قد يقتضي الوجوب ، وقد يقتضي الاستحباب ، وعلى أقل الأحوال أنه يقتضي الاستحباب ، لأن الانسان بلا ريب يثاب على استعمال البصيرة والتفكير السليم في عظيم صنع الله عز وجـــل في السموات والأرض . وإذا قلنا : إن ذلك دعوة للاعتبار واستعمال التفكير في عجائب مخلوقاته ، فإن الذي يزيد المسلم علماً واعتبـاراً وتفكراً لاريب أنه مندوب إليـــه ،سواء في ذلك المعنويات أو المحسوسات ، ويشير قوله تعالى : (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) [الزمر : ٩] إلى أنه لايستوي في هذا العلم من جلس في بيته ولم ير شيئاً ومن مشى في الأرض وسار فيها، كما دعـا اليه القرآن بقوله تعالى :(قـل سيروا في الأرض ثم انظروا)[الأنعام : ١١] كما لايستوي من يخرج إلى الشارع ومن لايخرج،ومن ينظر بـ (المكرسكوب) ومن لاينظر ، لايستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون .

إذا تبين هذا الذي سقناه عن مقاصد القرآن بدعوته إلى هـذا الهدف

النافع ، فاعلم أنه لم يرد فيه أيضاً حرف واحد ينهى عن بذل الانسان جهده مادياً وذاتياً ومعنوياً للاحاطة بشيء من العلوم الكونية مهما بلغ هـذا الجهد المبذول .

وإن الله سبحانه وتعالى قيد ذلك ، لأنه قليل في خلقه من يستجيب لأمره عز وجل ، إذ قال : (إنما يستجيب الذين يسمعون) [الأنعام : ٣٦] فلا يسمع نداء الله عز وجل إلا أولو الألباب .

وهذا الذي مر يرد على بعض الحمقى والمغفلين الذين يعيبون على المسلم حينما يكون له إلمام بشيء من علوم الكون وصدقت مواهبه ومسموعاته، لأنه ينبغي للمسلم المؤمن بآيات الله وبيناته أن يبذل مجهوداً ليعلم من ذلك العلم مايكون به قد استجاب لله عز وجل فيما كان يرغّب به عباده المؤمنين ، وأن يستعمل قصارى مواهبه في هذا السبيل .

وإن من موقف الخطر الإعراض عن تدبر آيات الله تعالى في هذا الكون الواسع التي تقوم عليها الادلة ويتوصل لها الناس في مجهوداتهم الحسية لا الظنية .

وإن الله عز وجل قد امتدح قوماً علموا من آيات الله شيئاً أو دُعوا إلى ذلك فاستجابوا وأنابوا ، وذلك في كثير من الآيات، كقوله تعالى: (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً) [الفرقان : ٧٣]

والرسول ﷺ لما سئل عن الكون وأجزائه ، أجاب السائل ورغب

منه ذلك ، وأعلمه بعلوم لم يسأل عنها تعليماً وإعلاماً بأن هـذا البحث مما شرعه الله تعالى واقتضته السنة المطهرة ، لذلك أجاب ﷺ بتفصيله وبلاغته وحكمته .

وقد روى البخاري في « صحيحه » حديثاً طويلاً عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، وفيه قال : دخـل ناس من أهل اليمن على رسول الله ﷺ فقالوا : جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان ؟ قال: « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء .... » الحديث ،وهو في « مشكاة المصابيح » رقم (٥٦٩٨) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في « الرسالة العرشية» وفي روايةلغيره: « كان الله ولم يكن شيء معه ، وكان عرشه على الماء ، ثم كتب في الذكـر كل شيء » .

فالحديث نص على أن أول ما خلق الله تعالى من مخلوقـاته السماء والأرض بعد العرش والماء . وقد جاء في الحديث : « أن أول مـا خلق الله القلم » فلا منافاة بينهما ، لأن في هـذا الحديث أن أول ما خلق الله من هذا الكون السموات والأرض ، وأما القلم ، فإنه خاص في كتابة الأقدار ، والله أعلم ، وسيأتي قريباً .

ومضمون الحديث لا ينفي أن الله تعالى قد خلق قبل ذلك مخلوقـات

وأفناها ، وبقي الماء وعرشه عز وجل فوقه ، ثم خلق السموات والأرض، فهذا الذي قلناه وإن كان من باب الممكنات ، فلا ينبغي إثباته ، كما لا ينبغي نفيه ، ولا يعلم الغيب إلا الله .

فالآيات التي مرت وأمثالها من القرآن قد ذمت الذين يُعرضون عن تدبر آيات الله تعالى ويعرضون عن استظهارها علماً أو حساً ، لأن استظهار آيات الله تبارك وتعالى في الأرض والسموات ما أمكن منها يعد من باب نصرة الله عز وجل ، كما قال عز شأنه : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) [محمد : ٧]

وأما الحديث ، فإنه دليل قطعي من السنة ، يثبت لنا أن البحث في علم الكون وتعليمه من الأمور التي يتدين بها لله تعالى ، وأن العالم إذا سئل عن مسألة واحدة ، فإنه ينبغي له أن يشرح للسائل من العلم المسؤول عنه ما يزيد في إيمان السائل ويبدد عنه شبهات الجهل، حتى لو كان البحث في ذات الله عز شأنه، لأن النبي ﷺ تناوله هنا من غير سؤال ، على أن الواجب في بحث العالم في ذات الله عز وجل التأكد القطعي بصحة ما يقول ، لأنه موقف خطر على المسلم ، ولذلك بحث معروف ، وهو الصفات ، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، يؤخذ منها أن من كان ينهى عن البحث في علم الكون ما ظهر منه وما خفي ، فإنه ضال مضل ، لأنه بذلك قد عارض حكمة الله تعالى وعارض أمره ، ولأنه بذلك نهى عن البحث في مخلوق عظيم من مخلوقات الله

تبارك وتعالى .

وحكم البحث في الفضاء وأقسامه ، وما به من المخلوقات ، كحكم البحث في أقطار الأرض سواء بسواء، ومن فرق بين ذلك، فإنه قد ابتدع بسبب حماقته وغفلته شيئاً ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة، لأن الله سبحانه وتعالى قد قرن في كثير من ألفاظ القرآن العزيز في أمره بالتدبر واستعمال الفكر في مخلوقاته بين السماء والأرض ، بل قدم سبحانه وتعالى السموات على الأرض في كل ماساقه في القرآن العزيز من ذكر الأمر بالتفكر والاعتبار ، وما ذلك إلا لأن السموات التي نراها فوقنا أكثر عبرة وأكبر حجماً من الأرض بأضعاف مضاعفة لا يعلم حدودها إلا الله تعالى وحده .

وأما تفضيلها ، فهذا باب لا يمكن الخوض فيه بحال ، لأنه لا يعلم أحد هل التفضيل لسكان الأرض أم لسكان تلك الأجرام ، فالله هو الذي يعلم ذلك وحده لا شريك له .

أما السموات العلى ، فإن لها حكمها في التفضيل المطلق ، إلا ما ورد أن أنبياء بني آدم أفضل من بعض الملائكة ، وهذا له بحث آخر لا حاجة لذكره هنا.

وكل ما ورد من النصوص القرآنية في ذكر التفكر والاعتبار في آيات السماء والأرض ، وتقديم السماء على الأرض ، فإنه يؤخذ من ذلك أن ما خلقه الله في السماء فوقنا، ومـا خلقه في الأرض من الآيات البينات في حد سواء، فكلها جماد ، وكلها أجسام مسخرة ، تتحرك بأمره ، وتثبت بحكمه، ولا فرق بين

أن يطلب الإنسان الإحاطة بشيء من علم الله في جرم الأرض ، أو في شيء من أجرام الفضاء ، لأنه لا يستطيع أحد أن يحيط بشيء من علمه إلا بما شاء ، والله سبحانه وتعالى قال حين تحدّى الإنس والجن أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض : (لا تنفذون إلا بسلطان) [الرحمن : ٣٣]

فلم يتحدّ الناس بالنفوذ من أقطار السموات فقط ، بل جعل الأرض مثل السماء بكل مستلزمات النفوذ من الوسائل المادية والمعنوية .

فمن أراد أن يذهب إلى أي قطر بعيد من أقطار الأرض ، لا يمكنه ذلك إلا بسلطان ، وهو العلم والقوة على ما قيل في معنى السلطان ، وسيأتي ذلك ، إن شاء الله .

وكثير من الناس المحسوبين في عداد أهل العلم لا يرون إمكانية البشر لأن ينفذ شيئاً من هذا الفضاء ، والواقع أن مثل أولئك قد حرموا من الفهم الصحيح لهذا الكون وحكمة الله تعالى في خلقه للسماء التي نراها من فوقنا ، والأرض التي نراها تحت أقدامنا ، وهذا البحث لا يفيد من يحكي المحال في كل ما لم يدركه هو بتفكيره أو بمحسوسه .

فأما محسوساته ، فهي لا تبعد عن خطوات أقدامه غالباً . وأما تفكيره، فمتى كانت نتائجه محدودة،تنتهي إلى ما بدأت منه، وهذا موقف من أقعده القصور في المواهب ، فلا جناح عليه إذا كان هدفه سليماً بحيث لا يعيب على من بذل جهده في علوم الكون في الأرض والسموات .

وما أكثر من ينظر من أولئك النـاس إلى تلك المحـاولات والبحوث الفضائية بأنها جاءت كنتيجة لكفرهم وإلحادهم ، ولذلك فإنهم يرونه جريمة في الدين على حد مزاعمهم ، وما ذلك إلا نتيجة الجهل ، وجهلهم بأنهم جهال ، فما أبعدهم عن العلم بحقيقة الصانع وما صنع ، فهم يجهلون أو يتجاهلون قدرة الله عز وجل،وأنه خالق العباد وخالق أفعالهم في حد سواء .

قال الله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) [الصافات : ٩٦]

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى خالق كل صانع وصنعته » رواه البخاري في « خلق أفعـال العباد » ورواه الحاكم ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » .

وإذا كان الحق ما قاله سبحانه وتعالى وقـاله رسوله ﷺ باضافة هـذه الصناعات والأفعال لمشيئة الله وقدره وتقديره ، فإن هذا الانكار والاستنكار نتيجة حماقة وجهل بالوسائل المحسوسة التي توصل بها أولئك الناس إلى أقطار السموات ، كما توصلوا بها إلى أقطار الأرض، وسيأتي ذكر الوسائل ونحوهـا في مكانه إن شاء الله تعالى .

ولا إشكال في أن ما بلغته مصادر تفكير الانسان في مجال الكون وجزئياته وأجرامه وجاذبياته وكروية مخلوقاته ، تزيد في إيمان المؤمنين أولي الألباب الذين قـد أدركت مواهبهم تلك المحسوسات وإمكاناتها ، كما أنه قـد زاد في يقين الكفار ما علموه في هـذا الباب من علم الكون ، بأن البشر كل

البشر يعتبر في حكم العاجز عن أن يحيط علماً أو حساً بأجزائه ، أو ينال منها ما يسد رمقه أو نهمته ، وأنه مقهور أمام كل ذرة من ذراته ، غير أن هذا لم يثبِّط من عزائمهم في مجال المسابقات الحسية والمعنوية في هذا الموقف العزيز ، فهم لم يعدموا في هذا السبيل من إدراك بعض المكاسب المعنوية وإن كانوا لم ينالوا حتى الآن شيئاً يزيدهم من المكاسب المادية كمحصول له قيمته .

فإذا عرف المسلم ماقد عثر عليه الانسان من علم الفضاء ، وما وراء هذه المرئيات الكونية في العين المجردة ، تبين له حقارة نفسه أمام هذا الجرم العظيم ، وتبين له أن أكثر مادخل على الناس من الكفر والإلحاد إنما هو نتيجة الجهل بعظمة الله عز شأنه ، وأن هناك مخلوقات كونية لا حدود لها تحتوي على مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، كيف لا وكل من في الأرض لن يستطيعوا أن يخلقوا ذباباً واحداً من مخلوقات الأرض ولو اجتمعوا له (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره) [الحج:٧٣،٧٤] هذا هو التحدي الذي أعجز الله تبارك وتعالى فيه خلقه من الجن والانس ، بل ولن يزال هذ التحدي قائماً أبداً .

وإذا كان الحق الواقع أن هذا الكون في القديم والحديث محط أنظار المفكرين والمتوسمين من علماء الاسلام وغيرهم من علماء البحث في الفلك والأجرام الفضائية ، فإن مطلق العلم في هذا الباب يسمى قديماً وحديثاً .

ولا ريب أن العلم القديم شيء ، والعلم الحديث شيء آخر ، وبينهما مفاوز

في كثير من مواقف الاثبات والانكار ، والحق والباطل ، والسلبيةوالايجابية، وسيأتي هذا البحث الذي يحتاج اليه المحقق والمستفيد في حد سواء في ذكر القسم الثاني من الأجزاء الكونية إن شاء الله تعالى .

إذا تبين هذا واضحاً ، فإن موقف المسلم يجب أن يكون موقفاً تتجلى فيه السلامة من كل أساليب التناقض والغموض ، لأن مقاصد القرآن والسنة لاتسمح لمن أخذ بها أن يكون هدفاً للمتناقضات أو مصدراً للمشتبهات .

الكون وأجزاؤه

يطلق مسمى الكون في مفهوم الدين وعرف الناس اليوم على هذا الفضاء الواسع وما به من أجرام ،كالسموات والأرض وما فيهن ومابين ذلك من كل متحرك وساكن مما علمه الانسان وما جهله .

وقد جاء أمر الله سبحانه وتعالى للانسان بالنظر والتفكر في جميع مخلوقاته في هذا الكون الواسع ، والنصوص التي أطلقت الأمر بذلك لم تستثن شيئاً منها أياً كان نوعها أو جنسها أو مكانها .

وإن ظاهر تلك الرغبة من الله عز وجل لوصول الانسان إلى شيء من ذلك بالعلم أو الحس ، قد جاءت منه تعالى لأمور ثلاثة .

الأول: أن ذلك قد جاء ومفهومه التحدي للجن والانس في حد سواء،

لعلمه بضعفهم جماعاتٍ وأفراداً في جانب عظمة هذا الكون وجبروته .

الثاني: علمه تبارك وتعالى بأن الانسان سيطغى أن رآه استغنى، فيدفعه ذلك إلى محاولات ومحاولات لأقطار السماء والأرض تكبراً وتجبراً كما كان الحال من دول الكفر والإلحاد اليوم كنتيجة العلم والقوة .

الثالث : علمه تبارك وتعالى بأن ما يحصل من علم الانسان وقوته في علم الفضاء ، يزيد في إيمان المؤمنين بالله تعالى ، ويضع في حسبانهم ثروة لا يستهان بها من الاعتبار والعلم اليقين .

على أن هذا الكون في القديم والحديث كان محطاً لأنظار المفكرين والمتوسمين فلم يزد أحداً منهم ما وصل اليه العلم في هذا الباب إلا بُعداً عن معرفة الحقائق الكونية وبلوغ النهمة في سبيلها .

وهذا الكون قد انقسم إلى قسمين على ضوء النصوص العامة ، وهي الأرض والسماء .

فالأرض هي أرضنا هذه ، وأما السماء،فهي اسم لما علا وارتفع من فوق الأرض من قريب أو بعيد ، صغيراً كان أو كبيراً، جرماً كان أو فضاءً، وهذا ظاهر ومفهوم لا يحتاج إلى إيضاح .

لكن ما ظهر لنا ونحاول شرح أجزائه الحسية ، فإنه منقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أرضنا هذه .

الثاني : ما يسمى بالأفلاك وهي المجموعة الشمسية وما حولها .

الثالث : السموات العلى ، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة سنتكلم عليه إن شاء الله تعالى ، وذلك على ضوء النصوص الشرعية وأقوال علماء الاسلام الأعلام ، وما توصل اليه العلم الحديث مما لا يخالف منطوقاً ولا مفهوماً من نصوص القرآن والسنة .

أما الاجتهاد أو التأويل ، فهذا قد يتمشى مع المحسوسات أكثر فأكثر ، وقد يكون صواباً ، وقد يكون غير ذلك ، فهو باب واسع للمسلم ، فيه مندوحة لتركه عندما يظهر له خلاف ذلك من نص صريح أو محسوس ملموس .

الماء أصل المخلوقات الكونية

قد مر حديث : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض » وقد مر الكلام عليه ، وهو ظاهر في أن الله تعالى كان فوق عرشه ، وكان عرشه على الماء .

قال القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى : (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) [البقرة : ٢٩] أصل خلق الأشياء كلها الماء ، لما رواه ابن ماجة في « سننه » وأبو حاتم البستي في « المسند الصحيح » له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، أنبئني عن كل شيء ، قال : « كل شيء خلق من الماء . . . » الحديث .

قال القرطبي : قال أبو حاتم : قول أبي هريرة : أنبئني عن كل شيء ، أراد

به :عن كل شيء خلق من المـاء ، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام لـه حيث قال : « كل شيء خلق من الماء وان لم يكن مخلوقاً » .

وقال رحمه الله عند قوله : (هو الذي خلق لـكم مـــافي الأرض جميعاً ...) الآية .

قال مجاهد وغيره من المفسرين : إن الله أيبس الماء الذي كان عرشه عليه ، فجعله أرضاً ، وثار منه دخان فارتفع فجعله سمـاءً ،فصارخلق الأرض قبل خلق السماء ، ثم قصـــد أمره إلى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك وكانت إذ خلقها غير مدحوة .

قال : وروى السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ،وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله تعالى : (هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعـــاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على المـاء ولم يخلق شيئاً قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من المـــاء دخـاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماءً ، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحـدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين ... الأثر بطوله .

وقال عند قوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) [الأنبياء:٣٠] فيه ثلاث تأويلات :

أحدها : أنه خلق كل شيء من الماء ، قاله قتادة .

الثاني : حفظ حياة كل شيء بالماء .

الثالث : وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي ، قاله قطرب . أ هـ

وهذا السياق من القرطبي رحمه الله تعالى هو عما تعني الآية من هذه التأويلات الثلاثة ، وإلا فإن هذه التأويلات الثلاثة حق ، لأن كل شيء قد خلق من الماء كما مرت بذلك الأدلة ، وقد حفظ الله حياة كل حيوان ونبات بالماء ، وقد جعل ماء الصلب سبباً للحياة الحيوانية .

وعلى هذا فإن الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون ومافيه من متحرك وساكن من الماء ، إلا ماقد استثناه الله عز وجل ، كالعرش ، فإنه لم يأت نص في أنه من الماء ولا من غيره ، وكذلك الملائكة ، لأنهم خلقوا من نور لا يعلم ذلك النور مما هو إلا الله تعالى ، والجن خلقوا من نار ، قال تعالى : (والجان خلقناه من قبل من نار السّموم) [الحجر : ٢٧] . ولا ريب أنهم قد خلقوا قبل البشر ، لقوله تعالى في سورة الحجر : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السّموم) والشيطان هو أبو الجان . قال علماء التفسير : إن الله خلق ناراً ، فخلق منها إبليس أبا الجان .

وعلى ذلك خرج العرش والملائكة والجان من مادة الماء . وقوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماءٍ ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شيء قدير) [النور : ٤٥]

قال القرطبي في تفسيره : لم يدخل في هـذا الجن والملائكة ، لأ ننا لم نشاهدهم ، ولم يثبت أنهم خلقوا من ماء ، بل في الصحيح أن الملائكة خلقوا من نور ، والجن خلقوا من نار ٠

قال : وقال المفسرون : (من ماءٍ) أي من نطفة .

قال النقاش : أراد أمنية الذكور ٠ وقال جمهور النَّظرة : أراد أن خلقة كل حيوان فيها ماء ، كما خلق آدم من الماء والطين .

وقال قوم : لايستثنى الجن والملائكة ، بل كل حيوان خلق من المـاء وخلق النار من المـاء ، وخلق الريـح من الماء ، إذ أول ماخلق الله تعالى من العالم الماء ، ثم خلق منه كل شيء .

قال : قلت : ويدل على صحة هذا قوله تعالى: (فمنهم من يمشي على بطنه) المشي على البطن للحيَّات والحوت ونحوهما من الدود وغـيره ، وعلى الرجلين للانسان والطير إذا مشى ،والأربع لسائر الحيوان . وفي مصحف : ومنهم من يمشي على أكثر .اهـ٠

وحيث إن الحق أن الله خلق الكون كله من الماء بما فيه من متحرك وساكن ، فتخصيصه بالدواب هنا والله أعلم تخصيص يفيـد الخلق الفردي ، فكل مفرد من تلك الدواب ، إما أن يكون على القول الأول،وهو ماءالذكر ، وإما أن يكون على القول الثاني وهو أن في ذاته ماءً ،وهذا أقرب،لأن الدواب كثير منها لايكون لقاحها بالماء ، والله أعلم .

وقد ذكر الله الدابة والدواب في سبعة عشر موضعاً من القرآن ، كلها تشمل بني آدم في هذه التسمية ، إلا في أربعة مواضع منها ، وقد ذكر الله تعالى الناس والدواب في آية واحدة مجتمعين فقال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحمر مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ إن اللهَ عزيز غفور)[فاطر : ٢٧ ، ٢٨] .

وقد ساقها الله عز وجل للموعظة والاعتبار باختلاف تلك الألوان التي كانت في الجماد والناس والحيوان ، فسبحان من خلق كل شيء فقدَّره تقديراً .

الأول من أجزاء الكون الأرض وكيف خلقها الله تعالى

قال تعالى:(قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماءٍ أمرها) [فصلت: ١١]

قد تقدم ذكر أمره تعالى في إظهار البخار من الأرض وارتفاعه دخاناً ثم أيبس الماء فصار أرضاً .

وهذه الآيات تنص في ظاهرها على أن الله تبارك وتعالى خلق الأرض

في يومين ، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فسواهن سبع سموات في يومين ، فكان الجميع ثمانية أيام ، وهذا خلاف النص الوارد في القرآن والسنة والإجماع في أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام فقط ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الأرض في يومين ، وقدر فيها أقواتها في يومين ، فكانت الجميع أربعة أيام سواءً للسائلين.

قال القرطبي في تفسيره (في أربعة أيام) أي في تتمة أربعة أيام ، ومثله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام ، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً ، أي تتمة خمسة عشر يوماً ، قاله ابن الأنباري .

وقوله تعالى : (سواءً للسائلين) قال الحسن: المعنى :في أربعة أيام مستوية . اهـ.

وهذا هو الذي عليه إجماع المسلمين ، وتؤيده النصوص من القرآن والسنة .

هل الأرض خلقت قبل السماء أم لا ؟

قد اختلف العلماء ؛ هل الأرض قد خلقت قبل ، أم السماء ؟ وذلك على مفهوم نصوص القرآن العزيز ، ومحل الاشكال قد وقع في قوله تعالى : (أأنتم أشدُّ خَلْقاً أم السماءُ بناها. رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرضَ بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها) [النازعات : ٢٧—٣٢]

قال ابن كثير في تفسيره على أن الأرض خلقت قبل السماء: هذا مما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقل ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف القرطبي في تفسيره لهذه الآيات، يعني آيات سورة النازعات التي مَرَّ ذكرها.

قال: قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض، قال: وفي «صحيح البخاري» سئل ابن عباس عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء. وإنما الأرض دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً. اهـ.

قلت: قال القرطبي في تفسيره: قال قتادة: إن السماء خلقت أولاً، وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أولاً دخان السماء، ثم خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسواها، ثم دحا الأرض بعد ذلك. اهـ.

ومضمون الأثر المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي مر قريباً أن كل شيء خلق من الماء ظاهر في الله تعالى أول ما خلق الدخان من الماء، ثم خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء، فسواهن سبع سموات من الدخان المتراكم، ثم دحا الأرض، وهذا الذي قاله القرطبي في تأويله قول قتادة، ونص الأثر عن ابن عباس ليس فيه خلاف، لأنه موافق لنص القرآن العزيز، حيث إن مادة السماء ووضعها في مكانها في الفضاء قد خلقت قبل الأرض.

قال ابن قتيبة في « غريب القرآن » : ومن المشكل قوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحاها) [النازعات : ٣٠] أي بسطها . وقال قوم في قوله :(أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ...) الآيات [فصلت : ٩ - ١٢] : فدلت هذه الآيات على أنه خلق الأرض قبل السماء . وقالوا في موضع آخر : (أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والارض بعد ذلك دحاها) :فدلت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض، ولا يجوز أن نحمل كتاب الله تحريف الجاهلين ولا غلط المتأولين ، وقد يكون للطاعن متعلق ومقال لو قال : و الأرض بعد ذلك خلقها ، أو ابتدأها أو أنشأها ، وإنما قال : (دحاها) فابتدأ خلق الأرض على مافي الآيات الأولى في يومين ، ثم خلق السماوات وكانت دخاناً في يومين، ثم دحا بعد ذلك الأرض ، أي بسطها ومدها ، وكانت ربوة مجتمعة ، وأرساها بالجبال وأنبت فيها النبات في يومين ، فتلك ستة أيام سواءً للسائلين ، وهي معنى قول ابن عباس .وقال مجاهد بعد ذلك في هذا الموضع بمعنى ذلك: و «مع» و «بعد» في كلام العرب سواء اهـ .

والذي يشكل في هذا أن ماخص الله تعالى به الأرض في الخلق هي أربعة أيام بالاتفاق ، غير أن الله يقول في الآيات التي مرت (في أربعة أيام سواءً للسائلين . ثم استوى إلى السماء)فانه عز شأنه جاء بـ« ثم » للترتيب بعد قوله (في أربعة أيام) ، فذلك يدل على أن الله تعالى خلق الأرض في

يومين ،وقدّر فيها ماشاء في يومين، ثم استوى إلى السماء فسوى السموات في يومين ، فتلك ستة أيام .

وأما ابن قتيبة ، فقد خصص التقدير في الأرض بأنه حين دحا الأرض بعد خلق السموات بيومين ، فكان التقدير يومين لخلق الأرض ، ثم يومين لخلق السماء ثم بعد ذلك يومين للتقدير ودحو الأرض ، فتلك ستة أيام .

والظاهر من سياق المفسرين أن دحو الأرض لم يذكر له وقت، فالله أعلم.

ونصوص القرآن العزيز تقدّم لنا السماء على الأرض ، وهذا ليس من باب تقديم الخلق ، ولكن ذلك من باب التعظيم الحسي والمعنوي ، وهي أيضاً ترمز إلى العلو الذي يتوجه به العبد إلى الله عز وجل .

وقد جاء ذكر الأرض في ألفاظ القرآن العزيز في أكثر من خمسمائة موضع ، بينما ذكر السماء بلفظ الإجمال والافراد بما هو أقل من مائتين وثمانين موضعاً .

وكل ماجاء من ذكر للأرض ، فإنه بالإفراد ، إلا في آيتين : قوله تعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) [الطلاق : ١٢] وقوله تعالى :(والارض جميعاً قبضته يوم القيامة) [الزمر : ٦٧] وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

ومفهوم هذا التفاوت لاينحصر في مقصد أو مقاصد محدودة ، بل له

مقاصد كثيرة جداً في مواقف التذكير والتعليم والموعظة والاعتبار ، وقد يأتي من ذلك الشيء الكثير .

الزمن في خلق السموات والأرض

الزمن في خلق السموات والأرض كما حدده الله تبارك وتعالى ستة أيام فقط ، وذلك في سبعة مواضع من القرآن العزيز . قال تعالى : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) [الأعراف : ٥٤]

وهذه الأيام الستة ليست كأيامنا هذه على ماقاله العلماء .

قال القرطبي : قال القشيري : ومعنى «ستة أيام» أي : من أيام الآخرة، كل يوم ألف سنة . ونقل قول مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون . وقيل : من أيام الدنيا.اهـ.

وقال البغوي : أراد به في مقدار ستة أيام ، لأن اليوم من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء . وقيل : ستةأيام كأيام الآخرة ، وكل يوم كألف سنة . وقيل : كأيام الدنيا .

قال سعيد بن جبير : كان الله عز وجل قادراً على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة ، فخلقهن في ستة أيام ليعلم خلقه التثبت والتأني في الأمور ، وقد جاء في الحديث :«التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان ». اهـ.

وقال ابن كثير رحمه الله : واختلفوا في هذه الأيام : هل كل يوم منها

كهذه الأيام ،كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل؟ ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس . ا ه .

ونقل ابن جرير في التفسير بسنده قول مجاهد في أن كل يوم من هذه الأيام الستة كألف سنة مما تعدون ، وهذه الأقوال تؤيد القول بأنها ليست كأيام الدنيا ، لأنه لم يكن في ذلك الحين الذي خلق الله تعالى فيه السموات والأرض أيام كأيامنا هذه .

فسياق القرآن يدل على أن الله تبارك وتعالى لما أراد خلق السموات والأرض، وأخرج الدخان من الماء إلى الفضاء الأعلى وهو المادة التي تكونت منها السموات العلى ، خلق الله الأرض حيث جمد الماء بعد ماخرج الدخان، فسوى الأرض ، وأودع فيها ماشاء تبارك وتعالى ، ثم خلق السموات السبع وأغطش الليل ، وأخرج ضحاها ، فلما أوجد نور الشمس للنهار ، والظلمة لليل ، وأنار بالقمر ، دحا الأرض تبارك وتعالى لأنه حين طلعت الشمس وأضاءت الافاق دحا الأرض ، أي استكمل عز شأنه ما شاء أن يوجده من أجزاء الحياة ومسبباتها، سواء كان على قول من يقول بأن دحوها : هو دفعها ودحرجتها ، أي : فأخذت تدور بعد أن صارت كالكرة لأن في دورانها عناصر للحياة والاتزان في منطقة جاذبيتها .

أو على قول من يقول بأنها راكدة ومسطحة ممدودة ، واستكمل الله تعالى

فيها ماشاء أن يكمله من وسائل الحياة ، والله تعالى أعلم .

هل يأتي الدحو بمعنى الحركة

قال الله تعالى : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها) [النازعات : ٢٨، ٣٢] ، وفي معنى (دحا) (طحا) وسيأتي عند قوله تعالى : (والأرض وما طحاها) [الشمس : ٧] ، والدحو في اللغة : الدفع والدحرجة . قال في « المصباح المنير » : ودحا المطر الحصى عن وجه الأرض: دفعه. وقال صاحب المنار على تفسير لابن كثير في لفظ الدحو يقال : دحاه يدحوه دحواً ، ويدحيه دحياً ، ومعناه الأصلي : دحرجه . يقال : دحا المطر الحصى ، أي : دحرجه ، ودحا اللاعبون الجوز ، ولعلهم فسروا دحو الأرض ببسطها ليوافق قوله تعالى : (والله جعل لكم الأرض بساطا) [نوح : ١٩] ، ولكن معناه : جعلها بساطاً كما قال: (جعل لكم الأرض فراشاً) [البقرة : ٢٢] .

ورأيت في مجلة « حضارة الإسلام » الصادرة في ذي الحجة سنة ١٣٨٦ هـ للأستاذ محمود القاسم وله فيها كلمة في بناء الكون ، قال فيها بكلمة على الأرض قوله تعالى : (دحاها) قال : وبالرجوع إلى معاجم اللغة جاء في « الصحاح » وفي « أساس البلاغة » : دحا المطر الحصى عن الأرض، أي : دحرجه وأزاحه. ويقال للاعب بالجوز : ابعد وادحه ، أي : ارمه . ومن هذا نعرف أن من

معاني دحا : دحرج ورمى .

هذا ماعثرت عليه من معنى كلمة « دحا » في اللغة العربية .

أما ماتضمنه تفسير العلماء لها ، فان المفسرين اقتصروا على تفسير كلمة (دحاها) بمعنى بسطها .

قال القرطبي : والعرب تقول : دحوت الشيء أدحوه دحواً : إذا بسطته. ويقال لعش النعامة : أُدْحيّ ، لأنه مبسوط على وجه الأرض .اه.

وقال ابن كثير في تفسيره : قال ابن عباس رضي الله عنهما : « دحاها » ودحيها، أن أخرج منها الماء والمرعى ، وشقق فيها الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام . اه .

وفسرها صاحب « القاموس » بالبسط. وقال في « المصباح المنير » أيضاً: دحا الأرض يدحوها دحواً : بسطها ، ودحاها يدحوها دحياً لغة ، ودحا المطر الحصى عن وجه الأرض : دفعه .اه .

هذا ماجاء عما يقتضيه قول المفسرين للفظ الدحو ، وعما يقتضيه معنى « دحا » في اللغة، فهو جاء بما يماثل مانقله صاحب المنار أن بعض أهل اللغة فسروا دحا بمعنى بسط .

وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يستعمل في رسالته « العرشية » معنى الدحو هذا في مواضع ، فقال في الصفحة (١٥) في قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ...) الآية [الزمر : ٦٨] :

في هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول، مايبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن يكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما تدحى الكرة .اهـ .

قال في الهامش :دحا الكرة يدحوها : دحرجها . وقال في الصفحة(١٧) في آخر الكلام على الآية التي مرت : ثم إن الذي في القرآن والحديث يبين أنه إن شاء قبضها وفعل بها ماذكر كما يفعل ذلك يوم القيامة ، وإن شاء لم يفعل ذلك ، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة ... إلى آخر كلامه رضي الله عنه .

فكلام شيخ الإسلام هذا يـــدل على أن معنى دحا :دحرج كما يدحرج الإنسان الكرة ، وهذا تفسير من شيخ الإسلام يعتمد في هذا المعنى .

كيف كانت الأرض في نص القرآن

ذكر الله تبارك وتعالى الأرض في القرآن في مواضع كثيرة مر ذكرها، وهي كغيرها من أجرام الكون ، لم يأت في القرآن لها ذكر حاسم فيما يفهم عن كيفيتها إلا ويحتمل تأويلات وتأويلات، وهي محل نزاع مستمر قديماً وحديثاً في القول في استقرارها ، وحركتها ، وكرويتها ، وانبساطها .

وقد جاء القرآن العزيز بآيات أخذ السلف والخلف من علماء الإسلام بتأويلها، لأن مالم يكن من مقاصد التشريع غالباً فانه يأتي بصور تحتمل التأويل، والتأويل مقصد من مقاصد الاجتهاد الذي يأتي على حـــدود المفاهيم المتباينة،

ونادراً مايتفق عليه علماء الإسلام ، وهذا ماض في الخلف ، كما هو ماض في السلف ، وما لم يكن خبر ثابت يقف القوم عنده ، فان الحوار واقع لا محاله.

فنجدهم رحمهم الله تعالى يذكرون في معنى الكلمة من القرآن عشرة أقوال أو أكثر منها أو أقل ، ولا يعيب أحد على أحد ، لعلمهم أن هذا المجال لم يكن من الأمور القطعية ، لأن محل القطع هو قول رسول الله ﷺ فقط .

فعلماء الإسلام رضي الله عنهم قد فسروا القرآن والسنة على قدر فهمهم فيهما ، وأيضاً بما بلغهم من الآثار عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وحين لم يجدوا في المسألة نصاً ، فان الموقف يكون حينئذ موقف اجتهاد .

فلو ثبت لدينا ماقيل في لفظة « دحاها » في لغة العرب ، وتبين بلا إشكال أنها تقتضي أن تكون بمعنى « دفع » كدحرج المطر الحصى عن وجه الأرض، كما قيل ، فانه لفظ من القرآن العزيز يدل على دوران الأرض ، وحيث كان الأمر كذلك ، لم يكن بدرجة الثابت ، فينبغي حينئذ أن يكون هذا موقف تأمل وتثبت ، لأنه نص من القرآن ينبغي الأخذ بمضمونه عند ثبوت تفسيره.

وعلماء الإسلام متفقون على أن قوله تعالى : « دحاها » بمعنى بسطها ، هذا تأويلهم لها ، وابن عباس فسرها بما بعدها (أخرج منها ماءها ومرعاها) [النازعات : ٣٢] والكل حق لاريب فيه ، لأن الله تعالى قد بسط الأرض فيما يلمسه الإنسان ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، وعلماء السلف متفقون إلا البعض من المتأخرين على أن الأرض مبسوطة كاللوح بناءً على محسوساتهم

عنها ، وأولوا قوله تعالى : (والله جعل لكم الأرض بساطا. لتسلكوا منها سبلا فجاجاً) [نوح: ٢٠،٢١] على ماثبت لديهم بالحس ،وقال البغوي : أي فرشها وبسطها لكم. اه.

قلت :وهذا القول للبغوي كما قال صاحب « المنار » فيما مر ذكره على أن المراد بالبساط : الفراش .

إذا تبين هذا ، فان القرآن العزيز قد ذكر عن كيفية الأرض ما يصف لنا صورها الأربعة في عشرة مواضع ، كلها من مقاصد التأويل عند علماء الإسلام .

ففي معنى « دحاها » آيتان، قوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحاها) [النازعات : ٣١] وقوله تعالى : (والأرض وما طحاها) [الشمس : ٦] وفي معنى البساط آية واحدة ، وهي قوله تعالى : (والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكو منها سبلاً فجاجاً)[نوح: ٢٠،٢١] وبمعنى الفراش آيتان ،قوله تعالى: (الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً) [البقرة : ٢٢] ، وقوله تعالى: (والأرض فرشناها فنعم الماهدون) [الذاريات : ٤٨] .

وبمعنى القرار آيتان ، قوله تعالى : (أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي) [النمل : ٦١] ، وقوله تعالى : (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً) [غافر : ٦٤] .

وبمعنى مد الأرض ثلاث آيات،قوله تعالى : (وهو الذي مد الأرض

وجعل فيها رواسي) [الرعد : ٣] وقوله تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) [الحجر : ١٩] وقوله تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) [ق : ٧] ، وأما آية الانشقاق فهي تتعلق بيوم القيامة وتأتي .

هذا كل ماورد في القرآن العزيز ، وكلها تتلخص في أربعة من المعاني الهادفة « الدحو » و « البساط » وهو الفرش ، و « المد » و « القرار » .

فأما الدحو ، فقد مر الكلام عليه ، غير أن قوله : (طحاها) [الشمس: ٦] قد اختلف فيه ، قال القرطبي ، أي بسطها ، كذا قال عامة المفسرين ، مثل « دحاها » .

قال : وقال ابن عباس : طحاها : قسمها . وقيل : خلقها ، ويحتمل أنه ماخرج منها من نبات وغيره . اهـ.

قال ابن كثير : قال الجوهري : طحوته مثل دحوته ، أي : بسطته .

وأما قوله تعالى: (والله جعل لكم الأرض بساطاً) [نوح : ٢١] فالمفسرون يقولون: بساطاً، أي مبسوطة .

قال البغوي : أي فرشها وبسطها لكم . اهـ .

وأما التي بمعنى الفراش ، فقال القرطبي : (والأرض فرشناها) أي : بسطناها كالفراش على وجه الماء ، ومددناها (فنعم الماهدون) [الذاريات: ٤٨] يقال : مهدت الفراش مهداً : بسطته ووطأته . وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها . اهـ.

وأما التي بمعنى القرار، فقال القرطبي كغيره من المفسرين : أي مستقر.

وقال ابن كثير : أي جعلها لكم مستقراً بساطاً مهداً . اهـ

قال البغوي : (قراراً) فراشاً . اهـ .

وأما مد الأرض في الآيات ، فقال القرطبي : (وهو الذي مد الأرض) أي بسط الأرض طولاً وعرضاً (وجعل فيها رواسي) [الرعد : ٣] أي جبالاً ثوابت، واحدها راسية، لأن الأرض ترسو بها ، أي تثبت ، والإرساء: الثبوت . ثم قال :مسألة: في هذه الآية رد على من زعم أن الأرض (كالكرة) ورد على من زعم أن الأرض تهوي أبوابها عليها ، وزعم ابن الراوندي أن تحت الأرض جسماً صعّاداً كالريح الصعّاد ، وهي منحدرة ، فاعتدل الهاوي والصعاد في الجرم والقوة ، فتوافقا .

وزعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين . أحدهما منحدر، والاخر مصعد ، فاعتدلا ، فلذلك وقفت .

والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدها ، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها .

قال : وقال ابن عباس : « مددناها » بسطناها على وجه الماء ، كما قال : (والأرض بعد ذلك دحاها) [النازعات : ٣١] أي بسطها . وقال :(والأرض فرشناها فنعم الماهدون) [الذاريات:٤٨] وهو يرد على من زعم أنها كالكرة.اهـ.

قلت : وقوله رحمه الله : والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول

بوقوف الأرض وسكونها ومدها ، فان الإمام محمد بن حزم المتوفى سنة٤٥٦ه ومن تابعه يقول بكروية الأرض ، وهو قبله بقرنين من الزمن ، حيث إن القرطبي رحمه الله قد توفي سنة ٦٧١ هـ

ورأيت في كتاب « الصعود إلى المريخ » الذي ألفه الدكتور محمد جمال الدين قوله : وهذا أبو القاسم (عبيد الله بن خردازبة) يقول في منتصف القرن التاسع الميلادي ـ أي منذ أكثر من ألف سنة ـ الأرض مدورة كتدوير الكرة ، موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة ، والنسيم حول الأرض ،وهو جاذب لها من جميع نواحيها إلى الفلك،وبنية الخلق على الأرض، إذ النسيم جاذب لما في أبدانهم من الثقل ، لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد ، والأرض مقسومة قسمان بينهما خط الاستواء، وهو أكبر خط في كرة الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك .

ثم قال المؤلف : وجليٌ أن مثل هذا التعبير فيه كثير من الصحة والدقة العلمية التي تدل على ما كان للعرب من فضل السبق في كثير من هذه العلوم . اه

نعود إلى تفسير الآيات القرآنية ، فنقول :

قال ابن كثير : (مد الأرض) أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض .

وقال البغوي : بسطها . وقال الخازن : (وهو الذي مدَّ الأرض) : بسطها على وجه الماء . وقيل : كانت الأرض مجتمعة فمدها من تحت البيت

الحرام ، وهذا القول إنما يصح إذا قيل : إن الأرض مسطحة كالألف ، وهي عند أصحاب الهيئة الأرض كرة ، ويمكن أن يقال : إن الكرة إذا كانت كبيرة عظيمة ، فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم ، فحصل الجمع.

ثم قال : ومع ذلك فإن الله تعالى قد أخبر أنه مدّ الأرض ودحاها وبسطها ، وكل ذلك يدل على التسطيح ، والله تعالى أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة . اهـ .

قلت : وقول أهل الهيئة كما ذكر لا يخالف قول الله عز وجل في مضمونه ، وإنما يخالف مفاهيم مخصوصة وقفت عند حدود إدراكها الذي لا يعلم حقاً يخالفه ، ولها أن تجتهد ، غير أنها قلوب طاهرة لا تحتكر العلم .

وقال البيضاوي : (مد الأرض) : بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام . اهـ .

فهذه النصوص من القرآن وما تأوله علماء الاسلام عن كيفية الأرض لا تثبت لها صورة من الصور الأربع بنفي ولا إثبات ، أي الدوران ، والسكون ، والكروية ، والانبساط .

ويؤخذ من مضمون تأويل العلماء للآيات كلها حالتان ، أنها كانت بساطاً بمعنى فراشاً ، وقراراً للناس أي مستقراً .

وإذا تأملنا ما قاله القرطبي والخازن في تأويلها ونقلها عن كيفية الأرض وجدناهما كثير من علماء الاسلام الذين يقولون : إن الأرض ثابتة وممدودة

على الماء ، ومسطحة غير مكورة . وهذا والله أعلم قد كان أصله مابلغهم من أن المحسوس من الأرض اليابسة يحيط بها الماء من كل جوانبها ، فطبقوا مفهومهم للنصوص على مـــا فهموه من المحسوس ، ولم يكن عندهم أي نقل بمرتبة علم اليقين يخالف هذا ، وهـذا هو الحق الذي لا يسع المسلم غـــيره والحالة هذه .

وعلماء السلف رضي الله عنهم وأرضـــاهم لا يلتفتون إلى ما يخالف النصوص الشرعية أو الآثار الصحيحة، وهو الصواب الذي يجب أن يعمل به السلف والخلف ، إلا أن يجدوا محسوساً، فلا ريب أنهم لا يخالفونه لعلمهم بأن المنقول لا يخالفه أصلاً .

وعلى هذا كله ، فلا مطعن لطاعن في علمهم ، في ذلك ولا في غـــيره ، ولذلك فحينما فهم آخرون أن الأرض كروية ، كشيخ الاسلام ابن تيمية، وابن القيم ، وابن حزم ، فقد أخذ هذا بالقبول بجانب آخر ، ولم يكن أحـــد لينقم عليهم بمثل ذلك ، لأنه من العـــلم الذي لا يحصره أحد من خلق الله تبارك وتعالى . وكذلك حينما قال ابن الراوندي وغيره ممن قال بجاذبية الأرض، مما دل على غزارة علمه في هذه الأجسام الكونية ، بحيث ذكر الجسم الصعاد، فإنه إذا لم يأخذ به القرطبي وغيره ، فقد أثبته العلم الحديث .

وقد رد القرطبي أيضاً على من قال: إن الأرض كروية، بقوله: فانها تهوي أبوابها،

كما رد على من يقول بدوران الأرض أيضاً ، وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن علماء الاسلام قديماً وحديثاً كان عدد منهم يقول بالجاذبيات الأرضية وبكرويتها وبدورانها .

وإذا كان الواقع المحسوس والملموس أن الأرض كروية معلقة في نطاق جاذبية تحيط بها في فضاء من كل جانب ، وثبت هذا بصورة إجماع البشر كله ، إلا من لا يعلم عن المحسوسات شيئاً ، فإننا نقول في نصوص القرآن العزيز التي مر ذكرها في كيفية الأرض : إنها بجميع ما تضمنته من الألفاظ ، لا تخالف الواقع الملموس ، فالله تبارك وتعالى جعل الأرض منبسطة مفروشة ممدودة فيما يراه الإنسان ويلمسه ، لا تأثير عليه منها في سعيه ومشيه ، بحيث إنه لا يراها إلا كذلك ، ولا يحس بتكويرها إلا عند التأمل ، وهذا من عظيم آيات الله ، لأنه من المستحيل أن يأتي القرآن بمنطوقه الصريح أو بمفهومه الصحيح ، ثم يخالف محسوساً ملموساً ، ولو قلنا بدوران الأرض عندما نجده ملموساً كما يقول رجال العلم الحديث ، فلا ريب أن الشواهد لهذا من الملموس كثيرة ، كتماسك البحار ، وتصوير الجبال ، لأنها تعطي توازناً ، وكذلك ما قيل عن طبيعة الجاذبية التي تحيط بفضاء الأرض ، فإذا ثبت لدينا ما يمكننا به القطع كما كانت الحال في كروية الأرض ، فلا ريب أن دحو الأرض وما في معناه كما مر ذكره ينص على هذا لأن ما نصت عليه بعض ألفاظ اللغة العربية

للدحو ، تدل على هذا كما مرّ ذِكرَها .

وتأويل من اجتهد فأوّل دحو الأرض وبسطها ومدها ، فأخذه دليلاً جازماً على عدم كرويتها ، ينتفي بإثبات كرويتها التي قد اقتنع بها الناس عالمهم وجاهلهم كحقيقة واقعة قطعية .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه في رسالته « عرش الرحمن » في جهات العلوّ وذكر الأرض : وإن لها ناحيتين ، ناحيتها التي نحن عليها، ثم قال: والناحية الأخرى من الأرض والبحر محيط بها وليس هناك شيء من الآدميين ومايتبعهم. ولو قدر أن هناك أحداً لكان على ظهر الأرض ،ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة ، ولا من في هذه تحت من في تلك ، كما أن الأفلاك محيطة بالمركز ، وليس أحد جانبي الفلك تحت الأرض ، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي ولا بالعكس ، وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا فوق الأرض ، وارتفاعه بحسب بُعد الناس عن خط الاستواء، فما كان بُعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا، كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة ، وهو الذي يسمى: عرض البلد ، فكما أن جوانب الارض المحيطة بها وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ،فكذلك من يكون على الارض من الحيوان والنبات لا يقال : إنه تحت أولئك، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان، كما لو كانت نملة تمشي تحت سقف ، فالسقف فوقها وإن كانت رجلاها تحاذيه ، وكذلك من

علق منكوساً ، فإنه تحت السماء وإن كانت رجلاه على السماء ، وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الارض أو الفلك ، أن الجانب الآخر تحته . . . إلى أن قال رضي الله عنه : ومن توهم أن من يكون في الفلك من ناحيته يكون تحته من الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر ، فهو متوهم عندهم . اهـ .

قال صاحب « المنار » في الحاشية على هذه الجملة من كلام شيخ الاسلام : كل ما قاله شيخ الاسلام في الأرض ، فهو مبني على كونها كرة، كما جزم به علماء الهيئة المتقدمون والمتأخرون ، ومن اطلع على هذا العلم ، وفهمه من علماء الاسلام الاعلام ، علم أن هذه المسألة قطعية لا ظنية، وقد صرح بها ابن القيم من علماء الحديث تبعاً لأستاذه المؤلف وللإمام ابن حزم واقتناعاً بأدلتها ، ويدل عليه قوله : تعالى (يكوّر الليل على النهار . . .) الاية [الزمر : ٥] . فإن التكوير هو اللّف على الجسم الكروي المستدير كتكوير العمامة على الرأس ، وكذا قوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحاها) [النازعات : ٣٠] فإن الدحو في أصل اللغة : دحرجة الكرة وما في معناها، ولا يعارضه قوله تعالى : (وإلى الأرض كيف سطحت) [الغاشية : ٢٠] كما توهم الجلال وغيره ، لأن وجه الكرة سطح لها ، والسطح في اللغة أعم منه في عرف أهل الهندسة ، وكذلك أهل الخط . اهـ .

فيفهم من كلام شيخ الاسلام رضي الله عنه هنا أمران :

الأول : أن الأرض كروية الشكل .

والأمر الثاني : هو عدم الإحساس الحقيقي في هذه الأجرام بأن شيئاً أسفل من شيء ، وهذا يؤيد ما أثبته العلم الحديث ، أن من كان في أي جرم من أجرام السماء يرى كل شيء فوقه ، كما نرى تلك الأجرام من فوقنا ونحن على الأرض ، بحيث إن من كان فوق الشمس أو القمر يرى جـــرم الأرض من فوقه .

وأما قوله في أول البحث : وإن الأرض لها ناحيتان ،والناحية الأخرى يحيط بها البحر ، وليس فيها شيء من الآدميين وما يتبعهم، ولو قدر أن هناك أحد، لـكان على ظهر الأرض... إلى آخره،فهذا كقول بعض علماء الاسلام :إن البحر محيط بالأرض من كل جانب وإنه تحتنا ، وهذا قبل أن تـكتشف أمريكا وجزر المحيط الأطلسي ، فالذي بلغهم أن البحر هو الذي يحـد إفريقيا من الغرب ، وهو المحيط الأطلسي ، ومن الشرق المحيط الهـادي ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الشمال بحر الشمال ، وهذا الجزء من الأرض يضم أوربا وإفريقيا وآسيا ، فاكتشفت استراليا وما حولها من جزر المحيط الهـادي ، واكتشفت أمريكا من وراء الهادي شرقاً ، ومن وراء الأطلسي غرباً ، ولا ريب أن علماء السلف مجمعون على أن البحر هو الذي تحت أرضنا ، كمايقولون :مسطحة عليه ، وقد ذكر إجمـاعهم القرطبي رحمه الله تعالى ، وزاد بنقله الإجمـاع عن المسلمين باليهود والنصارى .

وكلامـه حق في حدود ما أدركته مفـاهيمهم عن الأرض كمحسوس في زمنهم ، ولكن الأمر قد ظهر على نقيض هـذا ، فاكتشفت أمريكا وغيرهـا ، واكتشفت البحور ، وظهرت صورتها واضحة ، فثبت بذلك أن الأرض كروية الشكل ، وهذا مما يدلنا على أن أي إجماع للعلماء رضي الله عنهم في علوم الكون ، ينبغي أن يعلم بأنه محض اجتهاد منهم على حدود المحسوسات ، إلا أن يكون هناك صريح نص ، فلا منازع له ، وهذا كإجماعهم على أن الأفلاك سبعة أو تسعة ، وهو محض اجتهاد ، وسيأتي في ذكر المجموعة الشمسية إن شاء الله تعالى .

حـــكمة ظـاهرة

ومن حكمة الله عز وجل أنه لم يأت بصريح ألفاظ القرآن العزيز عن كيفية الأرض من الكروية أو عدمها ، أو الحركة أو عدمها .

بل إن الله عز وجل لو ذكر هذا ، لما وفى المقام بالمصلحة الإنسانية ، ولتناقضت المعاني لهذا الكتاب المحكم بوقت يستحيل على الإنسان أن يعلم بمحسوس يدله على كروية الأرض ، بحيث إنها لا ترتكز على شيء كجرم ، وإنهـا تقف في الفضاء أو أنها تدور في الفضاء ، فلو جاء هذا بصورة واضحة ، فإن قلوب الناس لا يمكنها بحال أن تقبل هذا بصورة مسلّمة ، وإن قبلته ، فانها قد تلتطم بانزعاج هائل ، وربما لا يستقر للكثير منهم قرار والحالة هذه ، وهذا هدف صحيح من أهداف القرآن ورحمة من أرحم الراحمين، لأنه العليم بصالح عباده.

ولذلك فإن علماء السلف قد أخذوا بتأويل الألفاظ الواردة على غالب محسوساتهم وما تبادر إلى مفاهيمهم السليمة عن هذا العلم ، والقرآن العزيز قد جاء في هذا الباب بألفاظ صالحة لكل زمان .

أما حينما آن الأوان لأن يعلم الانسان بمثل ذلك ،فقد جاء العلم من قبيل المحسوسات التي لمسها الانسان ، فأدرك بها حقيقة هذا الجرم العظيم من جميع جوانبه ، وبهذا قد انتفى المحذور جملة وتفصيلاً ، ولله في خلقه شؤون .

ومن هـــذا الباب قال ابن عباس ما قاله في معنى تخوفه على دين السائل إن هو أخبره عن حقيقة الأرضين السبع ،وسيأتي عند قوله تعالى :(الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) [الطلاق : ١٢] .

وقول ابن عباس هنا كقول علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله ، وقد رواه البخاري في « صحيحه » من كلام علي رضي الله عنه .

ومثله قول أبي هريرة رضي الله عنه : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم ، فأما أحدهما فبثثته فيكم ،وأمـا الآخر فلو بثثته لقطع هـذا البلعوم . وقد رواه البخاري أيضاً في « صحيحه » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وسيأتي إن شاء الله تعالى ، ومعناه: درء الفتنة ، سواء كانت الفتنة على نفس المتكلم أو غيره من الناس .

إثبات سبع أرضين

هذا فصل يبحث في الأرضين السبع التي ثبتت بنص القرآن والسنة، فقد قال تعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) [الطلاق : ١٢] ، وقال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) [الزمر : ٦٧] .

وليعلم أنه لم يأت ذكر الأرضين إلا في هذين الموضعين من القرآن العزيز .

قال القرطبي : قوله تعالى :(ومن الأرض مثلهن) يعني سبعاً ،واختلف فيهن على قولين .

أحدهما وهو قول الجمهور : أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء ، وفي كل أرض سكان من خلق الله .

وقال الضحاك : (ومن الأرض مثلهن) أي سبعاً من الأرضين ، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتق ، بخلاف السموات ، والأول أصح ، لأن الأخبار دالة عليه ، كما في الترمذي والنسائي وغيرهما .

قال : وقد خرّج أبو نعيم ـ وساق سنده من طريقين ـ عن كعب الأحبار عن صهيب أن رسول الله ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلى سبع

أرضين إلا قال حين يراها: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذَرين، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها».

قال أبو نعيم: هذا حديث ثابت من حديث عقبة، تفرد به عطاء.

قال: وفي «صحيح مسلم» عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً» فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين» وبنحوه من حديث عائشة.

وقال في مكان آخر: وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يارب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: ياموسى قل: لا إله إلا الله. قال موسى: يارب كل عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إله إلا الله. قال: لا إله إلا أنت، إنما أُريد شيئاً تخصني به، قال: ياموسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله».اهـ.

وقال ابن كثير في «البداية»: وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة».

وجاء في كتاب «التوحيد» لشيخ الاسلام محمد بن الوهاب عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يارب علمني شيئاً

أذكرك وأدعوك به، قال: قل ياموسى : لا إله إلا الله .قال : يارب كل عبادك يقولون هذا . قال : ياموسى لو أن السموات السبع وعـــامرهن غيري ، والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله » رواه ابن حبان والحاكم وصححه .

وقال في « شرح التوحيد » للشيخ عبد الرحمن بن حسن: وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أن نوحاً عليه السلام قـال لابنه عند موته : آمرك بـ« لا إله إلا الله ، فإن السموات السبع ، والأرضين السبع لو وضعت في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله .اهـ.

وقوله تعالى : (يتنزل الأمر بينهن) [الطلاق : ١٣] . قال القرطبي : قال مجاهد: يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع ، قـال : والأمر هنا الوحي في قول مقاتل وغيره وقيل : الأمر: القضاء والقدر ، وهو قول الأكثر . فعلى هذا يكون المراد بقوله (بينهن) إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها . وقيل : (يتنزل الأمر بينهن)، بحياة بعض وموت بعض،وغنى قوم وفقر قوم . وقيل : هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره .اهـ .

قال البيضاوي: (ومن الأرض مثلهن) أي : وخلق مثلهن في العدد من الأرض .

وقال الخازن : مثلهن في العدد .

قال ابن كثير في تفسيره : (ومن الأرض مثلهن) أي : سبعاً ، كما ثبت في « الصحيحين » : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين » ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند .

قال : وقال ابن جرير ـ وذكر بسنده ـ عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : (سبع سموات ومن الأرض مثلهن) قال : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم تكذيبكم بها .

ـ ثم ذكر بسنده أيضاً ـ عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن . . .) الآية ، فقال ابن عباس : مايؤمنك إن أخبرتك بها فتكفر . اهـ .

وأما قوله تعالى : (والأرض جميعاً قبضتُه يوم القيامة) [الزمر :٦٨] فقال القرطبي : المراد بالأرض : الأرضون السبع ، يشهد لذلك قوله تعالى : (والأرض جميعاً) ولأن الموضع موضع تفخيم ، وهو مقتض للمبالغة .

وذكر ابن كثير الآية ، وأورد عليها أحاديث عند البخاري ومسلم وأهل « السنن » في قبضته تبارك وتعالى يوم القيامة الأرضين . ومنها حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على أصبع ، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول:

أنا الملك » تفرد به البخاري من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر ، ورواه الامام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول . اه.

قلت : وفي مجموع ما أورده ابن كثير من الأحاديث الصحيحة وأورده البغوي أيضاً ، دليل قاطع على أن المراد بقوله تعالى:(جميعاً) يعني الأرضين.

قال البيضاوي : وتأكيد الأرض بالجمع ، لأن المراد بها : الأرضون السبع ، أو جميع أبعاضها البادية والغائرة . ا ه .

وقال في تفسير الجلالين : (والأرض جميعاً) حال ، أي السبع . اه .

وذكر الخازن الآية وساق بعض الأحاديث الدالة على قبضته سبحانه وتعالى السموات والأرضين ، كما ذكر ابن كثير .

وقال النسفي في تفسيره : والمراد بالأرض : الأرضون السبع ، يشهد لذلك قوله : (جميعاً) وقوله:(والسموات) ولأن الموضع موضع تعظيم.اه .

إذا تبين هذا ، فإن المفسرين مجمعون على أن المراد بقوله عز وجل: (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) أنها الأرضون السبع ، وهذا ما انتهى اليه فهمهم ، كما دلت النصوص على لفظ الجمع ، كقوله ﷺ : « والأرضين السبع » في الأحاديث التي مرت في البحث قبله .

غير أن الأحاديث الواردة في هذا البحث دلت ألفاظها على لفظ الأرضين بدون السبع ، كما جاء في لفظ الآية : (والأرض جميعاً) وهذا اللفظ لا يقف عند حد السبع، بل ربما كان لها أبعاض كثيرة، وأشار إلى هذا البيضاوي فقال:

أو جميع أبعاضها البادية والغائرة، وهذا يدل على جميع الأبعاض التي شملها مسمى الارض، ويأتي هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وهذه الآية الكريمة (والأرض جميعاً قبضتُه يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ..) الآية، تلزم المسلم بحكمين .

الأول : الإيمان المطلق بقدرته تبارك وتعالى التي ليس لها حدود في هذا الكون الواسع ، وفيه دليل على ضعف الانسان في جانب مخلوقاته تبارك وتعالى .

الثاني: أن ما ورد من ذكر قبضته عز وجل ويمينه تبارك وتعالى، فانه لا يجوز البحث عن كيفية ذلك ، ولا تمثيله بشيء من خلقه ، لأن هذه من صفاته تعالى التي يحرم استعمال التفكير فيها أو الخوض بكنهها ، بل الحق إمرارها كما جاءت بإيمان قاطع في نصها .

وحيث كانت الأرضون جميعاً قبضته تعالى يوم القيامة ، فإنه يفهم من ذلك أنها جميعاً تمد يوم القيامة ، كما قال تعالى في سورة [الانشقاق : ٣] (وإذا الأرض مدت) يعني الأرضين التي تكون في قبضة الله تبارك وتعالى، ويستدل على أن الأرضين السبع هي التي تمد يوم القيامة بقوله ﷺ : « من اقتطع شبراً من الأرض طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة » وقد تقدم .

مابين الأرضين السبع ومافيهن

قد مر كلام القرطبي رحمه الله في تفسيره لآيـــة الطلاق ، وقوله عن جمهور علماء الاسلام : إنها سبع أرضين منفصلة لامتصـــلة ، بين كل أرض وأرض مسافات ، وفي كل أرض سكان ، واستدل لهذا القول بما جاء في الترمذي والنسائي وغيرهما.

وقال ابن كثير في « البداية » باب ماجاء في سبع أرضين ، واستشهد بآية الطلاق ، ثم استشهد بما ورد من أحاديث مثل حديث « من اقتطع شبراً من الأرض طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة » ثم استشهد بحديث السحابة التي مرت على رسول الله ﷺ وذكره ، ونأتي هنا بنصه أخـــذاً من تفسير قوله تعالى :(هو الأول والآخر والظاهر والباطن) [سورة الحديد : ٣] .

قال : قال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد وغير واحد — المعنى واحد — قالوا : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان ابن عبد الرحمن ، عن قتادة ، عن الحسن، عن أبي هريرة قال : بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه ، إذ أتى عليهم سحاب ، فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ماهذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم ، فقال : « هذا العنان ، هـذه زوايا الأرض تسوقه إلى قوم لايشكرونه ولايدعونه » ثم قال : « هل تدرون مافوقكم ؟ » قالوا :الله ورسوله أعلم،قال: « فانها الرقيع ،سقف محفوظ ، وموج مكفوف » ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « بينكم

وبينها خمسمائة عام ، ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن فوق ذلك سماءين ، بعد مابينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّ سبع سموات، مابين كل سماءين كما بين السماء والأرض ، ثم قال : « هل تدرون مافوق ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين » ثم قال : « هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن تحتها أرضاً أخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّ سبع أرضين، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة...» الحديث، وقد اختصرنا آخره .

قال ابن كثير : وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث ، ورواه ابن أبي حاتم والبزار ، كلهم عن الحسن عن أبي هريرة قال : ورواه ابن جرير عن قتادة مرسلاً .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في« الرسالة العرشية »: وروي من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ ، يعني به ماساقه ابن كثير .

وهذا الحديث ظاهر ألفاظه تدل على ما أجمع عليه جمهور العلماء ، من أن الارضين منفصلة غير متصلة ، وأن بين كل أرض وأرض مسافات شاسعة .

ولفظ الحديث يدل على أن السموات العلى ، هي غير ما نراه من فوقنا ، حيث قال ﷺ : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فانها الرقيع ، سقف محفوظ، وموج مكفوف » ثم ذكر المسافة بيننا وبينها ، ثم

قال : « هل تدرون مافوق ذلك ؟ » ثم قال : « فوقها سماء » ثم ذكر المسافة بينها وبين السماء ، حتى ذكر سبع سموات ، وأشار إلى ما بيننا وبين أدنى السموات العلى بقوله : « سقف محفوظ ، وموج مكفوف » وهذا الذي قاله ﷺ ، كقوله تعالى : (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون) [الأنبياء :٣٢] ثم انتقل ﷺ إلى ما يسمى بالأرضين، فابتدأها بأرضنا هذه ، ثم التي تليها ، ثم التي تليها ، وذكر المسافات بين كل واحدة وأخرى .

فلو أمر النبي ﷺ أن يفصّل كل ذرة من ذرات الكون ، لفعل ، غير أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، لا ينطق عن الهوى .

ويؤخذ من قوله ﷺ بسياق مكان الأرضين بقوله: « تحتكم » أنه يمثل بذلك الحقيقة التي أدركها العلم الحديث من أن من كان في أعلى الأجرام السماوية في المجموعة الشمسية أنه يرى أرضنا من فوقه ، فقوله ﷺ لا يتناقض مع أي محسوس في هذا الوجود ، سواء كان في الأرض ، أو في السماء ، وسواء كان في صريح منطوق الرسول ﷺ في مفهومه ، لأنه قد أوتي جوامع الكلم ﷺ .

وسيأتي بعض كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في « رسالته العرشية » عن العلوّ ، وما قرره عن الأجرام الكونية، كما سيأتي بعض كلام رجال العلم الحديث ،كل هذا في القسم الثاني من الأجزاء الكونية إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا

رتقاً ففتقناهمـــا وجعلنا من الماء كل شيء حي ...) الآية [الأنبياء : ٣٠] وستأتي ويأتي الكلام عليها ، وهي صريحة في أن الأرض كانت كتلة واحدة ، ففتقها الله عز وجل، فصارت أرضين ، وهي التي أشار اليها بقوله: (والأرضُ جميعاً قبضتُه يوم القيامة) [الزمر : ٦٨] كما مر .

وقال القرطبي عند قوله تعالى : (سبع سموات طباقاً) [تبارك : ٣] قال : وقال الحسن : خلق الله سبع سموات طباقاً على سبع أرضين ، بين كل أرض وأرض وسماء وسماء خلق وأمر اهـ .

وكل ماورد بهذا المعنى، يثبت لنا أن هناك سبع أرضين، كل أرض تبعد عن الأرض الأخرى مسافات شاسعة،كما ثبت في الخبر ، وكما جاء في الآثار ، وكما ثبت عند جمهور العلماء ، كما قاله القرطبي فيما مر .

وهذا كله يرد على من قال : إن الأرضين السبع هي الأقاليم ، وعلى من قال : إنها طبقات الأرض ، وقـــد علمت ما رده عليهم ابن كثير رحمـــه الله تعـالى .

وقد قال كثير من المتأخرين: إنها طبقات الأرض، مستدلين بقوله ﷺ كما في الحديث الصحيح الذي مر :« وطوقه من سبع أرضين » وسموها كما يلي الأولى : الغازية الهوائية . الثانية : الطبقة المائية . الثالثة : السيال . الرابعة : السيا الحديدية . السادسة : النيحا. السابعة : النواة المركزية ، وقد اختلفوا في الأسماء،لأن من قال بهذا من أهل زماننا ،فإنما قاس هذا على أقوال الجيولوجيين

عن طبقات الأرض على حد معلوماتهم ، وأغلبها رجم بالغيب ، وربما قال بعضهم : إن السموات أيضاً مثل ذلك ، آخذين بقوله تعالى :(الذي خلق سبع سموات طباقاً)[الملك : ٣] (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) [هود : ١١٨)

والذي يصح القول به : هو مادلت عليه النصوص والآثار ، وقال به جمهور علماء الاسلام ، وتشهد له المحسوسات والممكنات .

ومفهوم حديث « طوقه من سبع أرضين » يدل على أنه من الأرضين السبع المنفصلة ، لأنها لو كانت تجمعها أرضنا هذه ، لقال : « طوقه إلى قعر الأرض » لأنها أرض واحدة ، ولأن مسمى الأرضين يشمل السبع المنفصلة ، لأنها من جنس واحد ، وهذا الوعيد يدل على تعظيم العقوبة ، لأن الأرضين السبع وحدة غير مجزأة إلا بعد أن فتقها الله تعالى ، وفصلها بمسافات لا يعلمها إلا هو ، وستعود كما قال تعالى: (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) [الزمر:٦٨] فيعطى الانسان من مجموعها كما سيأتي .

فاختص البشر منها بهذه القطعة من المجموعة ، فتوجه اليها خطابه تبارك وتعالى ، وقد بارك الله للانسان فيها ، وقدر أرزاقه فيها ، وملّكه كثيراً من منافعها وكنوزها وخيراتها ، وجعله خليفة فيها .

أما بقية الأراضي ، فلا نعلم عنها إلا ما تناقلته الأخبار ، لأنه لا يعنينا حكمها شيئاً ، ولا ما فيها من خلق ، وكل متحرك وساكن ، ولله غيب

السموات والأرض.

قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر الأخبار وأقوال العلماء في أن الأرضين السبع منفصلة لا متصلة .

قال : وأما ماذهب اليه بعض المتكلمين على حديث« طوقه من سبع أرضين » أنها سبعة أقاليم ، فهو قول يخالف ظاهر الآية ، والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث الذي أوردناه من طريق الحسن عن أبي هريرة ، ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل .

وهكذا ما ذكره كثير من أهل الكتاب، وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا، من أن هذه الأرض من تراب، والتي تحتها من حديد ، والأخرى من حجارة من كبريت ، والأخرى من كذا ، فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم ، فهو مردود على قائله . أ ه .

على أن ما قاله المتأخرون من تسميتهم طبقات الأرض إلى النواة كما يقولون ، هو قول لا يصح لا في العقل ولا في الشرع ، لأن الشرع لم يقل عن هذا شيئاً ، ولم يأت أثر ولا قول واحد لعلماء الاسلام ، والعقل لا يقبل هذا من أقوال الجيولوجيين إلا عن طريق الخرص والتخمين .

ولا ريب أنه قد يشكل على كثير من الناس الجمع بين قوله ﷺ: « طوقه من سبع أرضين يوم القيامة » كما ورد بأحاديث صحيحة ثابتة ، وبين ما أثبته

علماء الاسلام بالأدلة الشرعية الثابتة من الآيات القرآنية والأخبار والاثار الصحيحة أن الأرضين سبع منفصلة غير متصلة، بل بين بعضها مسافات شاسعة

ولهذا الاشكال أخذ من قال من المتأخرين بأن المعنى من قول الرسول ﷺ أرضنا هذه، ثم أخذوا بمحاولة إثبات طبقاتها بأن تلك الطبقات هي المعنية بالخبر ، حتى أكملوا تعداد سبع أرضين من تلك الطبقات على حـــد تعبيرهم واجتهادهم ، مستبعدين ما ورد بقول علماء الاسلام : إنها سبع أرضين منفصلة غير متصلة ، وتجاهلوا النصوص الدالة على ذلك .

والحق الذي يجمع به بين مضمون قول النبي ﷺ « طوقه من سبع أرضين » وبين ما ورد بالنصوص ،وأجمع عليه جمهور العلماء ، من أن الأرضين سبع منفصلة غير متصلة أن يقال : إن رسول الله ﷺ قد قيد قوله : « طوقه من سبع أرضين » بيوم القيامة ، ولم يقل : في الدنيا حتى ينحصر المعنى في أرضنا هذه وحدها ، لأن الأرضين السبع يوم القيامة ستكون كتلة واحـــدة ، كما قال الله تبارك وتعالى : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) [الزمر : ٦٨] أي الأرضون السبع ، كما أجمع عليه جمهور العلماء من المفسرين وغيرهم وقد مر ذكره .

فهذه الأرضون المتباعدة في الدنيا تجتمع يوم القيامة فتكون في قبضة الله تعالى كتلة واحدة ، كما قال تعالى : (وإذا الأرض مدت) [الانشقاق : ٣] فعلمنا بذلك أن قوله ﷺ « طوقه من سبع أرضين » مقيد بيوم القيامة .

كما يؤخذ من قوله ﷺ هذا ، ما يدل على أن الأرضين السبع ستكون كتلة واحدة يوم القيامة، ويشهد لهذا قوله تعالى: (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) [الأنبياء : ١٠٥] وهذا يفيد أن الأرضين ستكون كتلة واحدة مثل ما كانت من قبل رتقاً لم تفتق ، وبهذا قد ينتفي الإشكال إن شاء الله تعالى .

ماذا في الأرضين من الكائنات الحية

قال الله تبارك وتعالى : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزَّل الأمر بينهن) [الطلاق : ١٣] لقد مر الكلام على بعض فوائد الآية ، فقال القرطبي : والأمر هنا الوحي في قول مقاتل وغيره . وقيل : الأمر : القضاء والقدر ، وهو قول الأكثر . فعلى : هذا يكون المراد بقوله: (بينهن) إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها . اهـ .

وقال الخازن :(يتنزَّل الأمر بينهن) أي الوحي إلى خلقه من السماء العليا إلى الأرض السفلى . وقيل : هو ما يدبر فيهن من عجائب تدبيره .

وقال البغوي مثل قول الخازن . اهـ .

وقال البيضاوي : أي يجري أمره وقضاؤه فيهن ، وينفذ حكمه فيهن . اهـ.

وفي « الجلالين » (يتنزل الأمر) الوحي (بينهن) بين السموات والأرض ، ينزل به جبريل من السماء السابعة إلى الأرض السابعة . اهـ.

وهذا كله فيه حكمان . الأول : الرد على من قال : إن الأرضين هي طبقات الأرض، لأن الوحي لايمكن أن يكون إلا إلى أحياء ، والثاني : أن هذا كله يدل على أن الأرضين سبع، في كل أرض منها كائنات حية ، لأنها هي محل القضاء والقدر والتدبير والأمر والنهي .

وقد مر قول ابن عباس رضي الله عنهما لمن سأله عن الأرضين السبع: مايؤمنك إن أخبرتك بها فتكفر .

وقال ابن كثير : قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن علي ومحمد بن المثنى قالا : حدثنا محمدبن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي الضحى عن ابن عباس في هـذه الآية (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) [الطلاق : ١٣] قال عمرو : في كل أرض مثل ابراهيم ونحو ما على الأرض من الخلق . وقال ابن المثنى في حديثه : في كل سماء ابراهيم .

وروى البيهقي في كتاب « الاسماء والصفات » هذا الاثر عن ابن عباس بأبسط من هذا ، فقال : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أحمد بن يعقوب ، حدثنا عبيد بن غنام النخعي، أنبأنا علي بن حكيم ، حدثنا شريك ، عن عطاء ابن السائب ، عن أبي الضحى عن ابن عباس أنه قال : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) قال :سبع أرضين،في كل أرض نبي كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ،وابراهيم كابراهيم، وعيسى كعيسى .

ثم رواه البيهقي من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن

ابن عباس في قوله تعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) قال : في كل أرض نحو ابراهيم عليه السلام ، ثم قال البيهقي : إسناد هـذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرة لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعاً والله أعلم .اهـ.

وقال البغوي عند هذه الآية : قال قتادة : في كل أرض من أرضه ، وسماء من سمائه ، خلق من خلقه ، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه .اهـ.

وهذا الذي أوردناه من أقوال العلماء يثبت لنا أن الله سبحانه وتعالى قد خلق في كل أرض خلقاً من خلقه ،وتواصل اليها أمره ونهيه وقضاؤه وقدره من السماء السابعة إلى الأرضين كلها .

وأثر ابن عباس في أن في كل أرض خلق كبني آدم ، وأنبياء ومرسلون كما تضمنه الأثر ، وإن كان كثير من السلف والخلف لم يقتنع بهذا التفصيل ، فإنه قال رضي الله عنه في آثاره التي مرت : إن أخبرتكم عنها ـ أي الأرضين ـ تكفرون ، أي تكذبون .

وهذا واقع من الانسان في كل زمان ومكان أنه متى جاءه قول لا تدركه قواه العقلية ، فإنه ينكره ويكذبه ، إلا إذا جاء عن المعصوم محمد ﷺ ، فان الإيمان يخضع له بالتفويض إلى الله ورسوله .

غير أننا نقول : إنه قد ثبت ثبوتاً شرعياً يزيد على إجماع الجمهور من علماء الاسلام بناءً على نصوص القرآن والسنة التي تثبت بمجموعها أن الله سبحانه

وتعالى خلق سبع أرضين منفصلة ، لا متصلة ، وبين كل أرض وأرض مسافات ، وفي كل أرض مخلوقات من خلقه، كما أثبته القرطبي من قول جمهور العلماء كما مر ذكره .

وأيضاً فإن تلك الأرضين لم تخلق عبثاً ، ولم تترك سدىً ،بل ولا يقول ذو عقل سليم : إن الله تعالى قد يخلق مثل هذه المخلوقات العظيمة لتملأ الفضاء أجراماً فقط ، بل إن الذي دلت عليه النصوص وأقوال علماء الاسلام ، والذي هو الأقرب إلى الحق أن فيها خلقاً ، سواء قلنا بالتوقف عن التفصيل ، أو قلنا بما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في الأثر الثابت بسنده اليه أن في كل واحدة منها آدم كآدم وإبراهيم كإبراهيم . . . الحديث ، وكل هذا من الممكنات ، وقد جاءت به الأدلة ، وقال به العلماء الأعلام ، وهو جدير بالقبول شرعاً وعقلاً ، وهو من الممكنات، ولقد أثبت العلم الحديث بما وهب الله تعالى الإنسان من العقل أن في الفضاء أجراماً تبلغ مساحاتها مساحة الأرض ألوف المرات ، أو أكثر أو أقل ، والعقل يتساءل أمام هذه المخلوقات الهائلة: هل خلقت هذه عبثاً ؟ الجواب على ذلك:لا ، لم تخلق عبثاً أبداً ، ولله غيب السموات والأرض ، وسيأتي الكلام في أجرام الفضاء إن شاء الله تعالى .

غير أن هنا موقفاً من مواقف التفكير والتأمل ينبغي أن لا يقف منه الانسان موقف الانفعال وعدم التريث واستعمال التحكم بالمواهب لإدراك الحقائق ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قد قال : (والأرض جميعاً قبضته يوم

القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) [الزمر : ٦٧]

وقد أثبت علماء الاسلام أن هذه القبضة إنما هي للأرضين كلها من جهة، وللسموات العلى كلها من جهة أخرى، فعلمنا بهذا أن السموات العلى شيء، والأرضين شيء آخر.

ثم إن هذه القبضة للأرضين السبع يوم القيامة ومن ضمنها أرضنا هذه، أمر مقطوع به، فهي بحكم هذه القبضة وأنها ستكون كتلة واحدة، تمتد للبعث والنشور، قال تبارك وتعالى: (وإذا الأرض مدت وألقت مافيها وتخلت) [الانشقاق : ٣، ٤]

وقال ﷺ: « من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه من سبع أرضين يوم القيامة » وهذا يوحي بأنها ستكون كتلة واحدة، وقد ثبت من أقوال علماء الاسلام أن في كل أرض من الأرضين غير أرضنا خلق من خلق الله، وقد نقل بعضهم نقولاً شاذة عن أجناس هذه المخلوقات، واستدل على ذلك بقوله تعالى: (يتنزّل الأمر بينهن) أي أمر الله ووحيه وقضاؤه وقدره، وقد تكلم العلماء على معنى هذا الأمر.

ثم إن من الآيات الدالة على هذا المعنى بصورة ظاهرة قوله تعالى: (ومن آياته خَلْقُ السموات والأرض وما بثَّ فيهما من دابةٍ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) [الشورى : ٢٩]

وقد علمنا مما تقدم أن مسمى الدابة يشمل ما يدب، أي يمشي على

الأرض وغيرها، وقد قال بعض العلماء في هذه الآية،ويدخل في هذا المسمى الملائكة ، وهو غير ظاهر ، لأن الله سبحانه وتعالى قد سمى كل ما خلق من الماء دابة ، وقد مر تفصيله عند قوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء) والملائكة لم تخلق من الماء ، كما ثبت ذلك بالنص ، وقد مر ذكره ، فدل على أن الدواب قد خلقت في السموات ، كما خلقت في الأرض ، ويؤيد ذلك مفهوم قوله تعالى : (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) فهو جامعهم لا محالة حين يشاء عز وجل .

قال تعالى : (ويخلق ما لا تعلمون) [النحل : ٨] قال القرطبي : قال الجمهور : من الخلق ، ثم سرد القرطبي تأويلات العلماء لمعنى هذه الجملة . . . إلى أن قال : وقول سادس ، وهو ما روي عن النبي ﷺ أنها أرض بيضاء مسيرة الشمس ثلاثين يوماً ، مشحونة خلقاً لا يعلمون أن الله تعالى يعصى في الأرض ، قالوا : يارسول الله من ولد آدم ؟ قال : لا يعلمون أن الله خلق آدم، قالوا : يارسول الله فأين إبليس منهم ؟ قال : لا يعلمون أن الله خلق إبليس، ثم تلا : (ويخلق ما لا تعلمون) ذكره الماوردي . اهـ .

قال الشوكاني في تفسيره : والدابة اسم لكل ما دب ، ثم ساق اجتهادات العلماء في ذكر الدابة ، واختتم الكلام بقوله تعالى : (ويخلق ما لا تعلمون).

وفي الجملة فقد أثبت علماء الاسلام بما لا يحتمل الشك أخذاً من النصوص الواردة أن في الأرضين الست كائنات حية ومخلوقات يتنزل لها من الله تعالى

الأمر والنهي والقضاء والقدر ، والآيات صريحة في ذلك لاتحتاج إلى تأويل المتأولين،وآية قبضته تعالى الأرضين يوم القيامة ثم مدها يفهم منه أن ماعلى تلك الأرضين حكمهم كحكم ما على أرضنا ، كيف لا وقد قال تبارك وتعالى: (ولله يسجد مافي السموات ومافي الأرض من دابة) [النحل : ٤٠] فذكر الانسان وماعلى أرضنا كما ذكر غيرهم من الدواب .

ومانسبة أرضنا وعظمة الكون والأجرام الفضائية بالنسبة إلى مابينهما إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة .

وقد جاءت الآثار الصحيحة الاسناد إلى ابن عباس حبر هذه الأمة وترجمان القرآن رضي الله عنهما لما سئل عن الأرضين فقال مامعناه : لو أخبرتكم كفرتم ،أي كذبتم .

وقوله : إن في كل أرض منها آدم كآدم ، ونوح إلى آخره ، وهذا لايستنكره العقل السليم ، لأنه من الممكنات ،وقد قال الله تعالى: (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) [يس : ٨١] .

ومن هنا نعلم علم اليقين أن الله قادر على أن يخلق في كل قطعة أرض من أجزاء الأرضين مثلنا ، وسيحشر الله الجميع على أرض واحدة ، ويدخل من شاء منهم بسبب أعمالهم جنة عرضها السموات والأرض ، وهو على كل شيء قدير .

كيف كانت تجزئـــة الأرض

قال الله تبارك وتعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنامن الماء كل شيءحي أفلا يؤمنون) [الانبياء : ٣٠]

قال القرطبي في تفسير هذه الآية:قال الأخفش : إنمـــا قال:(كانتا) لأنهما صنفان .

وقال أبواسحاق:إنما قال : (كانتا) لأنه يعبرعنالسموات بلفظالواحد بسماءٍ ، ولأن السموات كانت سماءً واحدة ، وكذلك الأرضون. وقال (رتقاً) ولم يقل : رتقين ، لأنه مصدر ، والمعنى (كانتا) ذواتي رتق ، والرتق : السد ضد الفتق .

قال : وقالابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعني أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ،ففصل بينهما بالهواء ، وكذلك قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ، ثم خلق ريحاً في وسطها ففتحهـا بها ، وجعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً .

وقول ثانٍ قال مجاهد والسدي وأبو صالح :كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ، ففتقها وجعلها سبع ، سموات وكذلك الأرضون كانت رتقاً طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعاً ، قال : وحكاه القتيبي في « عيون الأخبار » له عن اسماعيل ابن أبي خالد .

هذا التفصيل من علماء الاسلام ينقسم إلى قسمين ، قسم يقول : إن

الأرضين والسموات كانت كتلة واحدة ففتقها الله، فكان منها سبع أرضين وسبع سموات ، وقسم يقول : إن الأرضين السبع كانت كتلة واحدة ، ففتق الله كل واحدة سبعاً .

وهذا الذي نقله القرطبي نقله علماء التفسير .

وحاصله أنهم رضي الله عنهم لم يحدّوا مكان تلك الأرضين السبع من هذا الفضاء ، غير أنهم متفقون على أن الله جلت قدرته قد فتق كتلة الأرض فصارت سبع أرضين منفصلة غير متصلة .

وقول من يقول منهم : إن الأرضين السبع والسموات السبع كانت كتلة واحدة ثم فتقها الله فصار منها سبع أرضين وسبع سموات، يبين أن مادة السموات العلى غير مادة الارض ، والله عز وجل قد قال بعد خلقه للأرض وغيرها في أربعة أيام: (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) ثم قال : فقضاهن سبع سموات) كما مر ذكره في آيات [فصلت : ٩ ـ ١٢] وستأتي بقية الكلام على هذا إن شاء الله تعالى .

أين الأرضون الست

قد تقدم من النقل الصحيح ماثبت به أن الأرضين سبع ، كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى بفضاء يبلغ مسافات هائلة ، وان كل واحدة من الأرضين الست بعد أرضنا فيها خلق من خلق الله تبارك وتعالى .

غير أنه لم يتطرق أحد من علماء السلف والخلف إلى التحدث عن

مواضع تلك الأرضين الست الباقية .

وقد مر كلام ابن عباس رضي الله عنهما فيما يخافه لو أخبر عن هذه الأرضين المجهولة المكان والتي هي حقيقة واقعة .

ولا ريب في أن ما يخضع اليه الإنسان من مثل هذه الأمور الكونية والمغيبات ونحوها ، ينحصر في أمرين :

الأول : قول بمرتبة علم اليقين ،وهذا هو الداعي إلى موقف المؤمن بالله تعالى من نصوص القرآن والسنة ، فيكون مقامه حينئذ مقام التفويض حينما يتجرد المراد عن المحسوس .

والثاني : محسوس تخضع له جميع العقول البشرية ، فيمكن العقول السليمة والمفاهيم المستقيمة أن تجمع بين المعنويات والمحسوسات بتطبيق النصوص بمنطوقها أو بمفهومها ، وقد جاء نص القرآن العزيز حول علوم الكون بمرتبة ثالثة وهي مرتبة التأويل ، بحيث إن العقول البشرية قد تمارس فيها تأويلاً يتناسب مع كل زمان بما انتهت اليه مدارك التفكير العقلي والحسي فلا يتأثر أحد بما نقص من فهمه وإدراكه عن كنهها وحقيقة أمرها . وهذه حكمة بالغة من حكمة الله تبارك وتعالى في تعليمه الانسان (لكل أجل كتاب) [الرعد : ٣٨]

فهذا رجل اليوم ليس هو كرجل الأمس في علمه بالمحسوسات الكونية في الأرض والفضاء ، فقد يأخذ الموهوب اليوم من ألفاظ القرآن العزيز

ما يفهم به عن أحوال الكون ما لم يفهمه غيره ممن سلفه كآبائه وأجداده الأقربين فضلاً عن غيرهم ممن سلفوا من كل عالم وجاهل ، وقد يدرك من المحسوسات في الأرض والسماء ما لم يخطر ببال أحد من سلف المسلمين وخلفهم، وهذا كله واقع معلوم، فقد أظهر العلم الحديث خفايا كونية قد لمس منها الانسان المؤمن الموهوب بعض ما يطمئن اليه قلبه ، فالتفت إلى مصادر الحق كتاب الله وسنة رسوله لفظاً ومعنى ليعلم أنه بتطبيقه النص على ما استجد في معلوماته من المحسوسات أو المعنويات ، قد أخذ بما يثلج الصدور المؤمنة ، ومن هذا الوجه يؤخذ القول في أن علماء السلف لم يخوضوا في معرفة مكان تلك الأرضين من هذا الفضاء لأنه لم يأت قول بتحديد المكان حتى ينبني عليه القول بذلك ، ولم يكن ثَمَّة محسوس يقرِّب لهم الأخذ بالتأويل إلى ذلك أيضاً ، وحيث كان المقام خالياً من هذا كله ، فإن ماوقفوا عنده هو موقف الحق الذي يقتضيه العقل السليم في مقاصد الدين ، فرضي الله عنهم أجمعين ومَنْ علينا باتباعهم على الحق المبين .

فنقول : قال الله تبارك وتعالى : (أولم يَر الذي كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) [الأنبياء : ٣١]

وقد مر بعض الكلام لعلماء الاسلام في بعض معاني الآية كتعداد الأرضين وفتقها عن بعضها .

ومفهوم الآية يقتضي حالتين . الأولى : هو ماقاله بعض السلف أنهما السموات والأرضون،أي السموات العلى ، والأرضون السبع ، وقد مر مانقله القرطبي عن الأخفش في قوله تعالى: (كانتا) بالتثنية لأنهما صنفان، وقال أبو اسحاق: قال: (كانتا) لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد: بسماء، ولأن السموات كانت سماء واحدة، وكذلك الأرضون، وقال: (رتقاً) ولم يقل: رتقين، ومر أيضاً نقله عن ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة إلى آخر مانقله القرطبي وغيره في هذا المعنى ، يعني أن السموات السبع العلى ، والأرضين السبع كانتا رتقاً ، ففتقها الله تبارك وتعالى ، وجعل منها سبع سموات وسبع أرضين .

وهذا داخل في عموم قوله: إن السلف رضي الله عنهم أجملوا في ذكر الأرضين ، ولم يتطرقوا إلى الاجتهاد في مكانها من هذا الفضاء الواسع .

والحالة الثانية وهي التي نهدف إلى البحث عنها ، وهي أن الله تبارك وتعالى قدعنا بالسموات مانراه فوقنا ، والتي يعبِّر عنها العلم الحديث بالمجموعة الشمسية ، وهي التي نص عليها القرآن بقوله تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) [نوح :١٦،١٧] وهي التي كان يعبِّر عنها بعض علماء السلف بالأفلاك السبعة أو التسعة ، كما عبر عنها علماء الهيأة .

وهذه هي المعنية والله أعلم بقوله تعالى: (كانتا رتقاً) مع أرضنا هذه ففتقها الله فسوى منها سبعاً ، وهذه السبع لا تعلم كيفيتها بالضبط هل هي كل

واحدة من السبع قطعة واحدة، أو أن كل واحدة منها مجموعة يشملها اسم واحد، لأن الله عز وجل قال: (سبع سموات ومن الأرض مثلهن).

ومعلوم أن السموات السبع العلى، كل واحدة منها تحتوي على جميع الكون كأدناها إلينا مستديرة تضم ماتحتها إلينا من هذا الفضاء الواسع، وسيأتي الكلام على السموات العلى.

فتكون الواحدة من السموات التي فتقت مع أرضنا هذه بمعنى الفلك المستدير من فوقنا، فهو يحتوي على مجموعات هائلة من الأجرام، ثم الذي فوقه، ثم الذي فوقه، فهي في سموها سبع وفي ماتحتوي عليه من القطع الكونية مالا يعلم عدده إلا الله عز وجل.

وسيأتي ذكر هذه المنطقة من الكون إن شاء تعالى.

ومما يؤكد أن الله تبارك وتعالى قد عنا بتلك السماء التي قد كانت مع أرضنا (رتقاً) أنها تلك المجموعة الشمسية، هو أن مادة السموات العلى غير مادة الأرضين، فكيف تكون كتلة واحدة ؟!

وسياق القرآن لا يؤيد أنها كانت كتلة واحدة، لأن الله عز وجل قد أخرج من الماء دخاناً فارتفع إلى المكان الذي شاء الله من هذا الفضاء، ثم بعد ذلك جمد الماء فسواه أرضاً، وأكمل في خلقها أربعة أيام ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فخلق منها سبع سموات، وهذا مفهوم لفظ القرآن، واتفق على معناه جميع علماء الاسلام، وعند نفي اتحاد المادة كما هو المتفق عليه ينتفي أنها

كانت كتلة واحدة،وهذا الفتق للأرضين لم يردنص في وقته من الأيام الستة ، فالله أعلم بذلك ، كما لم يتعين وقت دحو الأرض ، وقد مر في مكانه ، وبذلك يظهر لنا أن السماء التي كانت رتقاً مع أرضنا ،هي هذه التي نراها من فوقنا ، وهي ماتسمى بالمجموعة الشمسية .

أما السموات العلى ، فإن مفهوم سياق القرآن لايعطينا أي فائدة من كونها كتلة واحدة ثم فتقها الله ، وحيث كانت خالية من الموعظة والتذكير لما يوجب أن يتفكر فيها الانسان ، فإن الله تعالى قد أخبرنا بأنها كانت من دخان الماء فسواها سبع سموات .

وقوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) [الأنبياء : ٣٠] يفهم منه أن الأرضين الست الأخرى فيها كائنات حية بالماء كما في أرضنا ، وأن فيها ماء كما في أرضنا ، وإن اختلفت الكميات والفاعليات ، لأن الله عز وجل عقب ذكر الماء بعد ذكر الفتق لتلك الكائنات وتجزئتها وتباعدها عن بعضها ، والله أعلم .

إذا تبين ماسقناه من مفهوم الآيات القرآنية ، والسنة والآثار ، وماقاله علماء الاسلام عن الأرضين السبع ، وأنها أجرام محسوسة تفصل بينها مسافات هائلة في هذا الكون الواسع ، وأن فيها مخلوقات يتنزل إليها أمر الله تبارك وتعالى بقضائه وقدره إلى آخر ماجاء بهذا المعنى ، فإن من المستحسن أن يتأمل المرء ماسقناه عن هذه المجموعة الشمسية بأجرامها ، وأنها باضافة أرضنا

اليها تحتوي على مسمى الأرضين السبع ، لأن هذا من الممكنات ، ولم يرد نص شرعي ينفي هذا المفهوم الذي قد كان أصله ومبناه نصوص القرآن العزيز والسنة المطهرة .

وقد يقال : إنه ليس مبنياً على المفهوم فقط ، بل يمكن أن نقول: إنه مبني أيضاً على منطوق ظاهر من تلك النصوص . وإليك شيء منها أيضاً .

قال الله سبحانه وتعالى : (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) [النحل : ٤٩،٥٠] .

فعلماء التفسير لم يتطرقوا إلى مفهومها ، بل إنهم يقولون : الدابة كل ما يدب على الأرض ،أي يمشي عليها .

ويفهم من لفظ الآية فوائد ·الاولى: أن الانسان دابة من عموم تلك الدواب التي في السماء والأرض .

الثانية : أن السموات فيها دواب من الجنس الذي كان الانسان واحداً منها ·

الثالثة : يستنبط منها أن السموات التي فيها الدواب ، غير السموات العلى ، لأن السموات العلى سكانها الملائكة ، وقد أفردهم الله تعالى بلفظ خاص في الآية بقوله: (والملائكة) لأنهم هم سكان السموات العلى ، وسيأتي ذكر ذلك .

ومنها قوله تبارك وتعالى:(ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) [الزمر : ٦٨] .

فذكر الله عز وجل الأرض ، ولم يقل :ومن في الأرضين والسموات ، والذي ثبت أن في كل أرض خلقاً من خلق الله ، فإذا لم تكن تلك الأرضين هي هذه السموات التي فوقنا ، فإنها خارجة عن هذا المسمى ، وهو بعيد .

ومنها قوله تعالى : (أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) [يس : ٨١] .

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الآية التي ذكّر الإنسان فيها قدرته الخارقة ووحدانيته ، وهو خطاب موجه إلى البشر كله ، وعلماء التفسير رحمهم الله لم يتكلموا على مفهومها ، ولم ينقلوا عنها أي خبر ولا أثر، وهي آية عظيمة الشأن ، وهي من كنوز الغيب التي كانت محجوبة عن البشر .

فهي تشير إلى أن الله عز وجل الذي خلق هذا الجنس من البشر ، وخلق السموات والأرض ،قال :أليس بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ !

فالحق أن الجواب « بلى » وقوله عز وجل :(وهو الخلاّق العليم) ظاهر بأنه من الممكن أن يستنبط من هذا السياق أن الله عز وجل يخلق مثلهم، فهو الذي يعلم وحده حقيقة ذلك، وفي هذا مجال لأثر ابن عباس رضي الله عنهما

بهذا المثل والتمثيل وقد مر نصه .

ومنها أن عموم ألفاظ القرآن جاءت في ذكر الأرض بالإفراد ، وفي ذكر السموات بالإجمال ، إلا ما جاء في موضعين ، قوله تعالى :(سبع سموات ومن الأرض مثلهن) [الطلاق : ١٢] وقوله : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) [الزمر : ٦٨] وقد مر ذكر ذلك .

فإذا لم تكن الأرضون الست أو بلفظ أصح : بقية الأرضين هي هذه المجموعة الشمسية التي تسمى بالسموات التي جعل الله فيهن القمر نوراً ، وجعل الشمس سراجاً ، فإذا لم تكن هي المعنية أو هي داخلة في هذا المسمى ، فإنما تعتبر خارجة عن منطوق الآيات القرآنية التي نصت على الكون كله ، وهذا بعيد عن الحق ، بل ولا يقول به مسلم .

قال تعالى : (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً) [الفتح : ٤] وقال :(ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً) [الفتح : ٧] وقال : (له ما في السموات وما في الارض) [البقرة : ٢٥٥] وقال : (لله مافي السموات ومافي الارض) [البقرة:٢٨٤] وقال (يسبح لله مافي السموات ومافي الارض) [الجمعة : ١ والتغابن : ١] وقال : (إن كل من في السموات والارض إلا آتي الرحمن عبداً) [مريم : ٩٣].

وهكذا ورد القرآن بمثل هذا السياق في آيات كثيرة جداً كلها تنص على إفراد الارض بالخطاب مع مجموعة السموات ، فكثير منها يشمل السموات

أي المجموعة الشمسية والسموات العلى، فإذا لم تدخل الارضون السبع وسكانها في هذا العموم، فماذا نقول، والذي يطمئن اليه القلب وتركن اليه النفس وتشهد له مفهومات كل سياق هادف إلى الحق يثبت أنها تلك المجموعةالشمسية التي نراها من فوقنا .

فلو قال قائل : إن الأرضين غير هذه المجموعة الشمسية ، فإنه يقال له : إذاً ، أين تكون وهي أجسام محسوسة وعليها خلق من خلق الله تعالى يرزقون كما نرزق ، وينزل عليهم من الله الأمر والنهي ؟ !

فإن قيل : إن الأرضين الباقية تحت أرضنا هذه كما قال رسول الله ﷺ في خبر أبي هريرة رضي الله عنه الذي مر ذكره ، قلنا : نعم ، قد تقدم الكلام على هذا اللفظ وتطبيقه على ما جاء في العلم الحديث ، بأن من كان في شيء من أجرام الفضاء ، فإنه يرى أرضنا من فوقه ، كمن كان في القمر ، فإنه يرى أرضنا من فوقه ، وهذا من عجيب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه عليم بما يفعلون .

فالرسول ﷺ حدّث الناس بما يعرفون وبما لا يخالف الحقيقة واقتنعت فيه نفوس القوم ، فلما جاءت الاكتشافات الفضائية ، واستظهر الانسان ما تحته وما فوقه باذن الله تبارك وتعالى ، جاء في المحسوس أن ماقاله ﷺ حق لا ريب فيه ، وإن كان يخالف ظاهر لفظه ماصح في العلم الحديث عند من قصر فهمه .

غير أن هذه الأمور يلزم لابرازها عقل سليم وتفكير صحيح قد بعد

عن اللوث والرواسب حتى يتمكن بمــــدارك هذه الوسيلة الغالية إلى معرفة مقاصد القرآن والسنة ، وقد قال الله عز شأنه لبعث الأمل في نفوس عبـاده وتقريبه تعالى نور الإيمان لقلب المؤمن : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء قدير) [فصلت:٥٣] اللهم فبلى .

فهو عز وجل قادر على أن يخلق في من شاء من عباده وسائل يمكنهم بها أن يروا من حقائق الكون ويلمسوا في آفاقه وفي أنفسهم وأنفس غـيرهم من البشر ما عسى أن يكون به للمؤمنين بالله تعالى أثر عميق في إيمـانهم وفي جميع المقاصد المباحة وتهذيب الأخلاق

ولقد كان من آثار المواهب الربانية ، والحكمة التي شاء الله تعالى أن يمكن عباده منها ما أثبته العلم الحديث فيما توصل اليه من الأجرام الفضائية أنها في سالف العصور والدهور قد كانت مع أرضنا هذه كتلة واحدة ، فانفصلت من بعضها وانها من فصيلة أرضنا هذه .

وهذا إدراك محسوس قد أدركه البشر لمضمون ما قاله عز وجل: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) [الأنبياء : ٣٠]

وهذا محسوس أدركه وشهد فيه الانسان الذي لا يعرف القرآن، ولا يعترف فيه ، فهو من أعظم ما يفرح به المؤمن ، ويأتي هذا إن شاء الله تعالى .

فلو قال قائل: كيف نسميها أرضاً والله تبارك وتعالى قد سماها سماءً ؟!

قلنا : نعم ونحن نسميها : سماءً بحكم رؤيتنا لها من فوقنا وهـذا جملة السحاب يسمى سماءً بنص القرآن العزيز بمجرد ارتفاعه من فوقنا ، وهو من عموم مسمى أرضنا من قبل أن يتبخر من مياه البحر ، وهذا ظاهر ومتفق عليه.

وعلى كل حال ، فإن ما جاء في هذا البحث من مفهوم جديد ، فإنه من باب الاجتهاد وفي حدود الاستنباط، وهو مبني على منطوق القرآن والسنة وأقوال علماء الاسلام الأعلام ، وما كان من باب الاجتهاد ، فقد يكون مقبولاً وقـد يكون مردوداً ، وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ .

الثاني من الأجزاء الكونية

قد تقدم الكلام على الجزء الأول من الأجزاء الكونية، وهو مايختص بأرضنا وما انفصل منها ، وإن كان فيما يظهر أن ما انفصل منها هو ما يسمى بالمجموعة الشمسية ، أو هو من المجموعة الشمسية التي نعنيها بهـذا الفصل ، وهذا الفصل يبحث في المنطقة التي نراها من فوقنا حتى السموات العـلى ، وسنذكر ما يمكننا عن حكم هذه المنطقة ، وما ثبت عنها في النصوص الشرعية، لأنها محجوبة عنا إلا ما نراه بالعين المجردة ، وما للأرض من صلة ملموسة ، وسنذكر ما ظهر من المعلومات الحديثة عنها، وعن حكم العلوم الحديثة والقديمة في مجال الفضاء وأجزائه ، وهذه المنطقة هي التي عناها القرآن بالدعوة إلى النظر والتفكر والاعتبار ، لأن السموات العلى بحكم ارتفاعها وبعدها لا تدخل في باب دعوة القرآن الناس إلى النظر والتفكر والاعتبار ، ولكن يجب الإيمان

بها بحكم ما ورد عنها من النصوص الشرعية كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

فارتباطات المصالح الأرضية في هذه الأجرام الفضائية ارتباطات أساسية لا تنفك أبد الدهر ، ففيها شمسنا وقمرنا ، ونجوم نهتدي بهـــا في ظلمات البر والبحر، ونعلم منها عدد السنين والحساب للشهور والأيام والساعات، وتصف لنا فصول السنة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء ، ونعرف بها ارتفاع نسبة المياه وهبوطها في البحار والأنهار والآبار ، وغير ذلك من المنافع المحسوسة الثابتة بما اعتاده الناس .

وقد أقسم الله تبارك وتعالى بتلك المنطقة في غير موضع من القرآن بلفظ الإجمال ، كما قال تعالى : (والسماء ذات الحبك . إنكم لفي قول مختلف) [الذاريات :٧،٨] وقوله : (والسماء ذات البروج)[البروج:١]وقوله:(والسماء والطارق) [الطارق : ١]

وأقسم بهذا بلفظ الافراد في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى : (والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها)[الشمس:١،٢] وقوله تعالى:(كلا والقمر. والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر) [المدثر : ٣٢ ـ٣٤] وقوله تعـالى : (والنجم إذا هوى)[النجم: ١] وغير ذلك، فهو عز شأنه يقسم بمخلوقاته من باب التعظيم لما فيها من الآيات البينات والتذكير بقدرته سبحانه وتعالى وعظيم صنعه .

فهذه المنطقة من الفضاء بما فيهـا من أجرام مضيئة وغير مضيئة تسمى سماءً بحكم أن كل ما علا فهو سماء ،وسمّاها الله تبارك وتعالى سبع سموات طباقاً

أي بعضها فوق بعض، وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً ، وبحكم هذه التسمية من الوجهة الشرعية وبحكم ما ظهر بارزاً من نتائج العلم الحديث تسمى : المجموعة الشمسية ، لأنهم يقولون : إن تلك الأجـــرام تكتسب النور من الشمس ، فتلك المنطقة من الكون هي محط أنظار العالم من قديم الزمن ، سواء في ذلك المسلمين الذين يمتثلون أمر الله تعالى ويجيبون داعي الحق إلى ذلك ، أو الكفار من دهرية البشر ، فجميعهم يتدافعون إلى ما يشبع نهمتهم من علم تلك الأجرام الفضائية بحكم الاتصال بين الأرض وبينها من طريق المنـافع النظرية والحسية .

وكانت الكتب المنزلة تدعو الناس إلى هـــذا العلم النافع ، والأنبياء والمرسلون يحضون الناس ويدعونهم بدعوة الله تبارك وتعالى، فمضت العصور والدهور في مد وجزر وخفض ورفع بين مفاهيم البشر ومدارك التفكير في كل من آنس من نفسه مقدرة ليدرك من هذا العلم الواسع ما يشبع نهمته ، أو يضع ضلالاً يلتفت اليه غيره من أهل الدراية في هذا المسلك .

العـــلوم الكونية

واعلم أن هذا العلم الواسع بكل أبعاده التي هي من خصائص البشر وفي حقيقة الممكنات تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما ينتهي اليه المسلمون من هـذا العلم ويقفون عند حدوده .

الثاني : مسمى العلم القديم .

الثالث : مسمى العلم الحديث .

فأما الأول : فإن موقف كل مؤمن بالله تعالى وبآياته وبيناته من قديم الزمن إلى الأبد يبنى على أصلين . إما نص شرعي تؤخذ منه الدالالة بصريح لفظ أو بمفهومه ، وإما محسوس تدركه الحواس البشرية وتصدقه النصوص لأنها لا تخالفه في منطوق ولا مفهوم ، وهذا هو الحق الذي يجب اتباعه ، ولا يجوز لأحد مخالفته في أي نوع من أنواع العلوم السمعية والنظرية .

وهذا الموقف السليم الذي رضيه الله تعالى لعباده المؤمنين بأخذ حصيلة العلوم الكونية في القديم والحديث ، ومن الحق بمكان أن هذا المأخذ المزدوج بين النص والحس وما في معناه ، لا يخالف أحدهما الآخر، فهو قاعدة صحيحة في علوم الكون وغيرها ، لا تدع في قلب المسلم شبهة أو ريبة.

من القواعد الأساسية

وحيث قلنا:العلوم السمعية ،فإن الأمور السمعية في جملة النصوص الشرعية ويتبعها في القبول ما توفرت فيه شروط القبول في أسلوب الشرع ، غير أن البحث هو في المقاصد الخاصة في العلوم القديمة والحديثة من المسموعات، فحيث إن الغالب على رجال العلم الكوني في القديم والحديث الكفر والإلحاد ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن موقف المسلم أمام الأمور السمعية التي صدرت عن رجال الكفر والإلحاد ، موقف حرج في دين الاسلام ، غير أن

فيه للمسلم مندوحة في بعض الأحوال السمعية .

الأول : أن قول الكافر وأمثاله في الأمور الدينية مردود بلا نزاع إلا إذا ثبتت صحته من غير طريقه ، ولو عرفنا صدق الكافر وأمانته .

ثانياً : أن أي علم يقول به الكافر ، سواء في ذلك الأمور الدينية أو الدنيوية إذا كان المسلم في إمكانه أخذه عن طريق المسلمين، فالحق في ذلك عدم الالتفات إلى علم الكافر .

ويتخرج على هذا أن مراتب الكفر تتفاوت في مقاصد المسلم ، فيجب على المسلم أن يلتمس لنفسه أهون الكفار حينما يكون في أمر لا بد له فيه من علم الكافر أو عمله ، لأن الله تعالى ذكر التفاوت في أجناس الكفار في محبتهم وعداوتهم ليتخذ المسلم ذلك أساساً فيما تقتضي به ظروف الحياة .

ثالثاً : أنه إذا كان هناك كافران ، أحدهما تلمس معلوماته بطرق التخطيط الصحيح المحسوس ، كالآلات والتمرينات الفعلية ونحوها ، كما هو الوسيلة للعلم الحديث ، وكان الآخر بما تلمسها يقصد من الألفاظ السمعية فقط ، وربما بنيت على الحدس والظنون وما أشبه ذلك ، مما لا نعلم عنه حقيقة بيقين ، فلا ريب أن المسموع الذي يقارنه الحس أولى وأثبت وأصدق .

رابعاً : إذا كان الكافر مشركاً يعبد شيئاً من الأجرام ونحوها ويعتقد بتأثيرها من دون الله تعالى ، والآخر إما في مسمى أهل الكتاب ، وإما دهري لا يؤمن إلا بالمحسوسات كعلماء الافرنج في غالب أحوالهم ، فإن الأخـــذ

بمعلومات الأخير أولى وأقرب إلى الصواب والصدق، لأن الأول يعتبر فاسد العقل والعمل.

خامساً: أن مرجع القبول لكل العلوم القديمة والحديثة وكل علم حدث أو يحدث، هو ما قام على إحدى قاعدتين، إما النصوص الشرعية، وإما العقل السليم، إذ لا خلاف بينهما.

من صور العلم القديم

والعلم القديم كان من أول الحياة البشرية يتناقله الناس من واحد لآخر، ومن عالم لعالم آخر، مسلم وكافر، فيلسوف وغيره، ومنجم ومشعوذ.

والقديم في مسماه ينقسم إلى قسمين، علم صحيح مقبول، وعلم مختلط.

فالأول: هو القسم المقبول عقلاً وشرعاً، وهو ما يرجع اليه المسلمون قديماً وحديثاً، من علم منازل القمر، وبروج الشمس، مما يدرك الناس به فصول السنة، وهي: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء. وتعرف بذلك الشهور والأيام والساعات في حسابات متبعة تداولها الناس وصح العمل بها كأمور محسوسة وملموسة، كما كان الناس يهتدون بتلك النجوم المضيئة المتحركة والساكنة في ظلمات البر والبحر، وعليها اعتماد القوافل البرية والبحرية من قديم الزمن، ولا يزال العمل عليها حتى اليوم كما كان عليها اعتماد القوافل الجوية اليوم في ظلمات الفضاء بتلك الطائرات المتكاثرة، وكل ذلك قد ألهمه الله تعالى الإنسان للقيام بمصالحه على تلك الأرض، فهي أي تلك الأجرام الفضائية: الشمس

والقمر ، والنجوم ، كلها آيات بينات قد دعا لمعرفتهـــا القرآن العزيز في مواضع كثيرة .

أما القسم الثاني وهو العلم (المختلط) وهو علم الفلك في إطلاقه ، فإنه علم فيه صحيح وفيه فاسد ، ويتفرع من مسمى علم الفلك هذا : علم الهيأة ، وعلم التفسير ، وعلم الأحكام ، وأفسدها الأخير ، لأنه يقول :إن لتلك الأجرام السماوية تصرف في الحوادث التي تحدث على وجه الأرض ، وكان أولئك العلماء الذين هم علماء أحكام النجوم يعبدونها ويسمونها في أكثر الأحيان بأسماء تتناسب مع تأثيراتها على حد زعمهم الفاسد .

قال ابن كثير في « البداية » : وقد كان اليونانيون الذين كانوا يسكنون الشام قبل زمن المسيح عليه السلام بدهورلهم في هذا كلام كثير يطول بسطه وهم الذين بنوا مدينة دمشق وجعلوا لها أبواباً سبعة ، وجعلوا على رأس كل باب هيكلاً على صفة الكواكب السبعة ، يعبدون كل واحـــد في هيكله ، ويدعونه بدعاء يأثره عنهم غير واحد من أهل التواريخ وغـــيرهم ، وذكره صاحب « السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم » وغيره من علماء وفلاسفة حران في قديم الزمان ، وقد كانوا مشركين يعبدون الكواكب السبعة وهم طائفة من الصابئين .اهـ.

وفي الجملة ، فإن العلم القديم يعتبر بكل أجزائه وكلياته غير معتبر في العلم الحديث ، ولا يلتفت إليه ، إلا أن علماء الاسلام قـــد قبلوا أشياء قليلة منه ،

فكان هذا مأخذاً لمن بعدهم مالم يخالف المحسوس الجديد ، وقد نقل ابن كثير في « البداية » كلاماً طويلاً من كلام علماء التفسير في مسمى علماء الفلك وأثنى عليهم وقال : إنه علم غالبه صحيح ، بخلاف علم الأحكام ، فإن غالبه باطل ، وسنأتي على شيء من كلامه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن سيئات العلم القديم باستثناء ما أسلفناه في القسم الأول ، أنه مبني على الحدس والظنون ، لأنه فارغ من المحسوسات ، ويتناقله أفراد الفلاسفة من زمن إلى زمن آخر ، وكلما جاء واحد وتصدى إلى تلك المعلومات التي قبله ، زادها من ذكائه ومدارك تفكيره بزيادات تلائم الفكر الاجتماعي في كل زمان ومكان من تلك العصور والدهور حتى اجتمعت معلومات تعتبر كخليط يغلب عليه الفساد .

العلم الكوني الحديث

أما العلوم الكونية الحديثة ، فإنها بدأت بإذن الله تعالى منذ مئات السنين ، حينما اخترع بعض علماء أوربا (المجهر) لتقريب أبعاد الفضاء وغيره للناظر ، فأول ما بدأ أنه قرب الشيء خمساً وعشرين ضعفاً ، فما زال يتطور حتى بلغت الأضعاف (بالمكرسكوب) إلى مليون مرة، وأخذ يبث المراصد الهائلة ، وهذا كله في الأمور النظرية .

أما الحسية ، فإنها تطورت من النواة الأولى لاختراع الطائرات حتى الأقمار الاصطناعية، ثم السفن الفضائية والقوة الدافعة من الصواريخ وما في معناها.

وإذا تأمل المرء العناصر الأساسية لتلك المخترعات المتحركة، فإنها تعود إلى أصلين: الحديد، والكهرباء. وأما موادالاشتعال، فإنها هي الدافعة للأجسام المركبة نتيجة الاختراع.

فالحديدليس بمستحدث، وإنما هو من زمن آدم عليه السلام. وأما الكهرباء، فإن الله سبحانه وتعالى قد أوجد عناصره في كثير من أجزاء المخلوقات، حتى الحيوان، فاكتشف بالوقت المناسب والمقدر في الأزل، ثم تطور حتى صار قاعدة أساسية لأكثر المخترعات التي توصل اليها البشر.

وأكثر رجالات العلم الحديث كفار، وهم خليط من جميع الأمم في مشارق الأرض ومغاربها، وقل بل ندر من ينتمي منهم لدين أهل الكتاب كاليهود والنصارى، والذي هو الغالب على أولئك الناس الدهرية، لأن الشرك وعبادة غير الله تعالى ليس لها أي وجود في الجنس المتطور في العالم وفي الأمم المنتجة، ومن كان ينتمي إلى المسيحية على حد تعبيرهم، فإنما ذلك دعوى، لا عمل.

وأكثر ما نجد الخرافات وعبادة غير الله كالحيوان والجماد والاعتقادات الفاسدة عقلاً وشرعاً عند الأمم المتخلفة عن التطور الاجتماعي والفردي، الروحي والمادي في حد سواء، وفي البلاد المزدحمة كالهند وافريقيا.

وقد مر شيء من الكلام على قبول قول الكافر في عمومه من علماء الكون في القديم والحديث، فلا يقبل قوله تسليماً إلا في حالتين: إما في حالة

الضرورة كالطبيب ونحوه ، وإما بقرينة النص الشرعي أو ما يقوم مقامه من مواقف القبول ، كالمحسوسات ونحوها .

وحيث كان القبول للمسموعات يتوقف على ما يتوفر بالمخبِر من وسائل التوثيق ، كالدّين والصدق والأمانة ومظنة الإدراك ، كل هذه وغيرها تدفع بالمرء للقبول ، ورجال العلم الحديث لا ريب أنهم تتوفر فيهم الأمانة والصدق ومظنة الإدراك ، وهو العلم ، وتختفي فيهم مادة الدّين ، وبذلك فإن خبرهم بالمسموعات قد يكون مقبولاً عند كثير من الناس بدافع الصدق والأمانة والعلم ، غير أن المسلم لا تلزِمه هذه بقبول قول الكافر وحالته خالية من الدين ، ولذلك فإن مكانة الأمر المحسوس تكفي لقبول قوله قبولاً كاملاً ، وعلى هذا فإن معلومات أولئك في المحسوسات الأرضية كلها صحيحة ملموسة ، دلت على علم وإدراك بعيد المدى لا يدركه إلا أولو الألباب ، ولذلك فإن علوم الكون هي بمثابة العلوم الأرضية حذو القذة بالقذة ، غير أنها تحتاج من المسلم لقبولها إدراكاً فكرياً سديداً يمكنه به أن يضعها في مواضع الإيجابية أو السلبية ، وما لم يكن ذلك فإن الحيرة هي منتهاه ، وليس له حينئذ إلا موقف واحد ، وهو أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم .

أما مقام الإنكار والاعتراض ، فإنه من خلق الحمقى والمغفلين الذين يصدّقون ويكذبون على حدود علمهم فقط ، ولا يلتفتون إلى ما قاله تبارك وتعالى : (وفوق كل ذي علم عليم) [يوسف : ٧٦]

ومن الفوارق التي ينبغي فهمها عن الفوارق بين علماء الفلك القدامى ورجال الفضاء المتأخرين ، أن علماء الفلك وفلاسفة النجوم تنبني معلوماتهم على الأقوال والحكايات فقط، ليس لأحد فيها أي صلة ملموسة أو طريق محسوس، بخلاف رجال العلم الحديث ، فإن جميع معلوماتهم يجري العمل بها عن طرق المخططات العلمية الملموسة بدراسات مستفيضة وتجارب لأجزاء معلومة المادة والفاعلية والطباع ، يلمسها كل أحد من الناس في الغالب .

كما أن العلم القديم ينقله فرد فيلسوف ونحوه ، ثم ينقله عنه الآخر بعد زمان وزمان ، وكلهم خليط من المنجمين والخرّاصين والمتنطّعين في الكفر والإلحاد غالباً ، وربما زاد ناقل على ناقل فتوج أقواله بألف كذبة وكذبة ، مما كانت النتائج لذلك الرد والمقت من مقاصد المنقول والمعقول ، بخلاف العلم الحديث ، فإن من ينقله خلق كثير من أهل الفكر والمواهب والإدراك الفائق، حتى صار لهم في العلم والاختراع والصناعة اليد الطولى في مشارق الأرض ومغاربها .

وفي الجملة ، فإن معلوماتهم تنبني على الأمور الحسية والسمعية التي تقبلها العقول البشرية ، ولا تخالف في الغالب النصوص الشرعية .

والعلم الجديد أيضاً يتباين مع العلم القديم ، فلا يجتمعان في أي موقف من مواقف الإدراك الإنساني ، لأن العلم القديم أصله ونتيجته الأمور المعنوية صحيحها وباطلها ، وأما العلوم الجديدة، فترتكز على المحسوسات الملموسة غالباً .

ولذلك ، فإن العلوم الجديدة لم تظهر في أهلها عفواً أو من باب الخرص والتخمين ، أو الرموز المجهولة ، أو بلا مسببات ملموسة يندى لها جبين أقوى الرجال من ذوي الأحلام والعقول الفذة في بني الإنسان،لأن أولئك المخترعين وأقطاب العلم الحديث من نوادر الرجال في المجتمعات الإنسانية،والله عز وجل يمدهم بالعناية والإرادة والقصد منه لمد هـذا الوجود الإنساني بمنافع لا حدود لها من نتائج العلم المحدود الوقوع بالأقدار المقدورة بلا زيادة ولا نقصان .

وهناك أصلان دفعا بالفكر الإنساني الجـديد حتى وصل به الأمر إلى الاختراع والأعمال النافعة ، وهما ذاتي ، ومادي .

فالذاتي هو ما اختص به رجال أوربا ومن ماثلهم في الطباع من العـــالم المنتج من برودة الطباع،فبرودة الطبع تدفع بالإنسان إلى كثير من الإحساسات السليمة الثابتة ، من الصبر والأناة وقبول التعليم وبراءة الضمير واستسلامه للواقع وعدم الغلظة والكبر والحقد والحسد ، وما أشبه ذلك ، وهذه المواد هي مواد صالحـة في حياة الإنسان ، وتقفز به غـالباً مع التوجيه إلى المستوى الناجح في كل باب من أبواب الحياة الإنسانية ، بخلاف ذوي الطباع الحارة .

وأما الأصل الثاني الذي دفع بالفكر الإنساني الجديد المادي ، فهو يختص بنتائج الطب والأغذية الصالحة للذات البشرية لتطهير مصادر التفكير وتزويد مادته بالغذاء ، ولا ريب في أن الأغذية الصحية تزيد في العقـــل وتطور التفكير ، وتصلح المركز،وأن نتائج هذا الاصلاح يكون وقفاً على

مصالح الإنسان الدنيوية فقط، لأن الدين لا يصلحه الغذاء، وإنما يبقيه متمتعاً فقط، وقد ذكرنا هذا البحث في كتابنا « العبر » بأوسع من هذا. فالطب لم يكن وليد أفكار جديدة، بل هو حصيلة أفكار قديمة من رجال الفكر الإنساني من المسلمين والكفار، فقد تدون في الاسفار بعقاقيره وطباعه ومنافعه ومضاره، وفي جميع المقارنات بين الطباع الإنسانية والطباع النباتية والجزئيات الطبية، فلإنفاذ القضاء والقدر لبروزها أخذ بها رجال من ذوي الطباع الباردة،فأخذوا في تحليلها وتنفيذ التجارب، وما زال العلم بهذا المقصد العزيز يزداد شيئاً فشيئاً حتى تسابق الكثير إليه باندفاع باهر، فتطور الطب وترتبت الأغذية البدنية على المناهج الطبية، فصلحت الرواسب الفكرية،ونمت الأجسام بالغذاء والنظافة والبعد عن الجراثيم المعديةوالضارة أو نحو ذلك مما كان له أكبر الأثر في تطور الصناعة والاختراع.

أما الاختراع الجديد والصناعة، فليس هو بذاته وليد ساعته، فإن للعلماء الأقدمين في فلسفة جميع الفنون التي قد أخذت منها مبادىء كثيرة من الاختراع الجديد حيث كانت مدوّنة في كتبهم، وخاصة فلاسفة الفكر في الاسلام، إن لهم دراسات في فنون العلم الحديث لها أكبر الأثر في بناء صرح الاختراع والصناعة.

ولاريب أن الفكر العربي له مركز هائل في هذا الباب، غير أن التدوين شيء، والعمل شيء آخر.

فمن الممكن أن يقال : إن ذوي التفكير العربي قــد دونوا أصولاً لا يستهان بها من هذا العلم الجليل ، ولكن لم ينتجوا عملاً ملموساً في المجتمعات الانسانية .

ولذلك فإنه يؤثر في النقل الثابت عن غير واحد أن العرب هم أساتذة الأوربيين ، غير أن التخلّف في الانتاج كان أصله دافع الطباع والغرائز كما مر ذِكْره .

أما الفرد الأوربي ، فـإن من طبعه أن لا يمل من العمـل ، فهو يعمل ، فإن أنتج ، وإلا تركه لغيره وتطمئن نفسه في أنه قد رسم الأساس للذي بعده ثم الذي بعده لغيره ، فلا يتأثر لضيق الوقت ، ولا لعدم النجاح في مرة أو في مرات ، بخلاف الفرد العربي ، فإنه لا يخضع لهذا كله ، لأنه مجبول على العجلة وحب ذاته ، فلذلك لا يحب إلا أن يختص بانتاج كامل تطمئن له نفسه وتخضع له أحاسيسه ، وإذا لم تتوفر له تلك الشروط ، فإنه يرى نفسه في غير المكان اللائق بين البشر ، وماذلك إلا بـدافع حب الذات الذي هو غريزة في الفرد العربي إلا من شاء الله منهم .

وهكذا جاء الاختراع وتطورت الصناعة من أصغر أجزائها إلى أعلاها حتى توصل العـلم الحديث إلى أجزاء كبيرة من منافع الانسان ، وتطور إلى حدود يطول ذِكرها وتعجز الأقلام عن وصفها ، ومن هذا العلم وتطور هذه الصناعة ، كانت المحاولات الفضائية واكتشاف غلاف الأرض الهوائي ، وهو

مافوقها من ذرات نافعة وضارة ، وجاذبيات وغيرها ، ثم مافوقنا من طبقات الفضاء ، وأحوال تلك الطبقات وطباعها وما بها من الأشعة النافعة والضارة ، واكتشاف الأجرام السماوية بالمناظير ، ومعرفة أبعادها وجاذبياتها ، والعجيب أن جميع مافي الكون من الأجرام التي نراها ، والتي لانراها لخفائها أو بُعدها كلها مكورة كأرضنا تماماً في صورتها ،فسبحان من له في خلقه شؤون .ثم إن رجال العلم الحديث قد أطلقوا من الأجزاء الاصطناعية إلى الفضاء ماعلموا به أحوال الفضاء بالمحسوس ، ثم أطلقوا الأقمار الاصطناعية تدفعها إلى الفضاء قوة دافعة عظيمة الانفجار بقوة نارية هائلة فتنطلق هذه القذائف إلى الفضاء حتى تصل إلى منتهى القوة الدافعة ، فتبقى بالفضاء دائرة في طبقة من الهواء تدور بها حتى تفنى قوتها وتضمحل ، وهكذا طبقة بعد طبقة تصل اليها تلك القذائف على قدرتها الدافعة الأرضية ، ثم بعد ذلك كانوا يطلقون صاروخاً في داخله صاروخ آخر ، وفي قمة الصاروخ الثاني قمر اصطناعي ، فيتفجر الأول فإذا وصل الثاني نهايته تفجر ثم قذف القمر الاصطناعي إلى أعلى مدار له من الفضاء ، وبعد ذلك أطلقوا أقماراً فيها دواب حية ليعلموا مدى حياة الأجسام الحيوانية في تلك الطبقات الفضائية الممتلئة بالأشعة الكثيرة المتغيرة الطباع ، والحرارة الفائقة أو البرودة الفائقة ، وبعد أن اطمئنوا على الحياة الحيوانية ، أطلقوا سفناً فضائية ، ثم عادت إلى الأرض ، ثم أطلقوا سفناً فيها رجال وعادت إلى الأرض .

وهكذا كانت هذه التجارب الفضائية محاولات خطرة جداً ، وكلفتهم أثماناً عالية جداً ، فالسفينة الفضائية لا تعود إلى الأرض إلا بقوة النار التي تفجرها الصواريخ المعلقة بها ، فهي تتفجر عند عودتها لتقطع بها حواجز الجاذبيات ، لأن الجاذبية لا يمكن بحال أن ينفذ منها جسم إلا بالقوة المتفجرة ، والتي تقذف بما يراد منه أن يجتاز هذه الجاذبية للأرض أو لأحد الأجرام الفضائية في ذهابه وإيابه .

فمما يدلنا على قوة الانفجار الأرضي في قواعد اطلاق الصواريخ أن السفن الفضائية التي تذهب إلى الفضاء ، يكون منها مايزن خمسة عشر طناً من المعدات والهيكل والوقود والمواد المكافحة لأحوال الفضاء من الحرارة والبرودة والأغذية وغير ذلك ، وتحمل أيضاً في هيكلها عدداً من الصواريخ لتفجيرها في حالة الذهاب والاياب .

والقاعدة لإطلاق هذه الأجسام من الأرض قاعدة هائلة في تصميمها ومعداتها ، لا يمكن أن تدرك بالوصف ، فقد تطلق ماز نته خمسون طناً أو أكثر أو أقل ، وتلك القاعدة بقوة انفجارها تأخذ في حسبانها مابلغه وزن المقذوف به ، وماينبغي أن تكون سرعته في الفضاء ، فإذا انتهت السفينة إلى مدارها من الفضاء الذي وصلت اليه بفعل تفجر الصواريخ واحداً بعد الآخر ، فإنها تأخذ في الدوران بسرعة هائلة في منطقة قد تحددت لتلك السفينة .

فإن كانت السفينة في إحدى الجاذبيات كجاذبية القمر ، فإنها تدور فيها

حول القمر بقوة الوقود الذي وضع فيها ، كما تدور الطائرات في جاذبية الأرض، غير أنها تكون بسرعة فائقـــة ، وأما إن كانت خارج الجاذبيات من طبقات الفضاء ، فإنها غالباً تدور بتماسك تلك الطبقة ،لأن أي جزءٍ في مثل تلك المنطقة لايتصرف إلا بصور عملية تكافح الضغط ، ففي تلك الحالة يطلقون صواريخ للتخلص من تلك الطبقات بقوة معلومة الحدود عندهم ، ومعلومة الانفجارات الأرضية في القواعد، وكذلك الصواريخ التي تتفجر في الفضاء كلها معلومة القوة ، لوزن القذيفة ، وسرعة انطلاقها في الفضاء، ويقاس هذا بالمحسوس من إطلاق البنادق للطلقات النارية ، وزنة الطلقة وسرعة وصولها الهدف ، فتكون سرعة القذيفة على قوة الانفجار ، غير أن الطلقة من البندقيـــة تلتهب بنار التفجير لمباشرتها له .

أما الصواريخ ، فلا تلمس بالنار ولاتتأثر ، لأن بينها حواجز ، وقد صممت على هـــذا الأساس بأساليب صحيحة مضمونة النتائج . ومن الأمور الهامة التي تكون من نتائج هذه التفجيرات، أن الأجرام المصنوعة كالصواريخ المعلقة في السفن ومافيها من الرجال لاتثريب عليهم من قوة التفجير في الأرض ولا في الفضاء في الذهاب والإياب .

وإذا دخلت السفن الفضائية جاذبية الأرض حينما تفعـــل وتعود من مهمتها ، فإن فيها معضلات تقوم لها بالمناعة عن الاصطدام في الأرض عند نزولها ، ولتلك السفينة في رحلتهـا اتصالات في مراكز مخصوصة في الأرض

قد صممت للاتصال المباشر ، حيث إن العلماء يرون السفينة ومن فيها طوال هذه الرحلة ، ويتكلمون معهم ، ويتلقون الأوامر في كل لحظة من حياتهم داخل سفينة الفضاء على بعد شاهق يبلغ مئات الألوف من الأميال .

ومن هذا تؤخذ الموعظة والذكرى ، ويفرح المؤمن بالأدلة القطعية التي تشهد على قدرة الله تبارك وتعالى وتزيد في إيمانه ، وتجعله يعلم أن الله عز وجل يراه حيثما كان ، وأنه هو الذي يوجهه عز وجل في جميع شؤون الحياة ، فإذا كان هذا الانسان الضعيف الذي هو ذرة من ذرات هذا الكون الواسع توصل تفكيره إلى مثل ذلك أحسن صنعته بقدرة الله تبارك وتعالى، فما بال المسلم بقدرة الله تعالى ، وهذا من مفهوم قوله تعالى:(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء قدير) [فصلت : ٥٣]

إذا تبين ما استرسلنا به في هذا البحث ، فإن من أكبر ما يدعو إلى الاطمئنان في صحة أخبار الفضاء السمعية حيث كانت تصل إلينا من مصادر الكفر والإلحاد أمرين محسوسين :

الأول: ما لمسناه من الصناعة التي ظهرت على وجه الأرض ، وصح العمل بها بصورة تنم عن قدرة هائلة في العلم والمادة والصبر والمثابرة والأعمال التي تبهر العقول ، وأن في أيديهم قوة هي أكبر من كل ما يتصوره الناس ، خاصة من لم ير المصادر والمصانع بعيني رأسه، لأن عين اليقين لا يستوفي كيفية علم اليقين

أبداً ، ومن لم ير المصانع والقواعد ومصادر الانتاج في هـذه الدول ، فإنه لا يتصور أن في إمكان الإنسان أن يصل إلى ماوصل اليه في الفضـاء ، ومن لم يكن من ذوي الإدراك والفكر ومعرفة الممكنات والمدلولات ، فإنه في معزل عن الحقائق في هذا الوجود .

الثاني : الأمور المستفيضة من أصول العداوة بين تلك الدول المنتجـة من وجوه عدة: سياسيةواقتصادية وعنصرية ،كالدول الشيوعية والرأسمالية ، والتصاعد في هذا العداء مما يتوقع العـــالم الانساني وقوع الحروب المدمرة بينهم مما يعمل به كل واحد منهم ضد الآخر في إنتاج الأسلحة الهائلة كالقنـابل الذرية والهيدروجينية الساحقة الماحقة، والتي تعد قوتها خمسين مليون طن من المواد ، شديدة الانفجار تتفجر كالديناميت الذي تقتلع به الجبال الصم .

فهذا العداء المستحكم لم يمنع دولة من الاعتراف بمقدرة أعـــدائها في مجالات المحاولات الفضائية ، فنحن نسمع الثناء العاطر من هذه الدولة للدولة الأخرى المعادية عندما تحصل على محاولات جديدة في مجال السفن الفضائية، والفضل ماشهدت به الأعداء ، وهذا التسابق بين تلك الدول العظيمـة في مجال الصناعات الأرضية والفضائية وفي كل مجال في سبيل الاختراع والصناعة، كل ذلك يكتشف للانسان قدرة الله تعالى وعظـــيم صنعه في الأرض والسموات (ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتـــاب والمؤمنون) [المدثر : ٣١]

ولوجود هذه الأسس التي بني عليها العلم الحديث،وهي أسس سليمة صحيحة لا يرتاب فيها ذو إدراك سليم ، نجد العقول البشرية في جميع أقطار الأرض قد قبلت تلك النتائج ، وصدقت بتلك السمعيات عن أقطار الفضاء كما قبلته ولمسته في أقطار الأرض ، لا فرق في ذلك بين أغلب المسلمين .

ومن هذا الوجه أدرك المسلمون أن تلك العلوم السمعية عن الفضاء ، أمور ممكنة لا تخرج عن إدراك العقول البشرية ، ولا تتناقض أبداً مع منطوق النصوص أو مفهومها ، لأننا نجد الصورة التي كانت الوسيلة لتلك الاكتشافات الفضائية والأرضية لا تخرج بحال عن مضمون ما قد اشترطه القرآن العزيز لهذه المحاولات بعينها ، قال تعالى : : (يا معشر الجن والانس إن استعطتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) [الرحمن : ٣٣] وسيأتي الكلام عليها قريباً .

وقد مر قريباً في غير موضع ما معناه أن العلم كل العلم في إطلاقه عند المسلمين يفتقر صحيحه إلى أصلين : النصوص الشرعية ، أو المحسوسات العرضية ، لأن أحدهما لا يخالف الآخر . أما السمعية من غير النص ، فهي تحتاج إلى ما يدفع بها إلى القبول ، والنصوص الشرعية هي من باب المسموعات ، ولكنها لا تحتاج إلى ما يدفع بها إلى القبول من خارج مضمونها في المنطوق أو المفهوم .

وحينما نجد النصوص في هذا الموقف ، فإن ما يؤخذ منها بالمفهوم غالباً

لا يدرك معناه إلا بمناهج التأويل والاستنباط ، وحينئذ فلا بد من العقل السليم والتفكير الصحيح ، وقد مر ما يدل على هذا التعريف في صحيح المنقول وسليم المعقول .

فلذلك فإننا نلمس أنه من باب المستحيل على كثير من العقول البشرية أن تدرك مقاصد التأويل والاستنباط من النصوص الشرعية ، فتطبق النص على الحس على الرغم من أنه لا يجوز أن يكون هناك محسوس في الوجود يخالف النص في ذاته ،سواء أكان من باب المباحات أو المنهيات، في الأرض والسماء ،وإنما المهم في الأمر أنه في هذا الباب واقع صحيح .

وإذا كان بحثنا هنا يحاول الافصاح عما طرأ في الوجود من هذه المحاولات الفضائية لاكتشاف تلك المجموعة الشمسية التي قد سماها الله عز شأنه (سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) اكتشافاً محسوساً ، وقد كانت تلك المحاولات في حقنا بحكم الأمور السمعية ، فإن الحال تقضي بأن هذه الأمور السمعية تفتقر في حق المسلم هنا إلى أمرين :

الأول : البحث ثم الاثبات لصحتها من عدم صحتها .

والثاني : في إباحة هذه المحاولات من الوجهة الشرعية التي تكون من لوازم المسلم فيما استجد على سمعه وبصره .

فأما الأول، فقد ذكرنا ما يشير إلى صحة هذه المحاولات ، وأنها حقيقة واقعة لأنها من الممكنات ، ولا تخالف الفكر ومداركه السليمة ، وقد

نأتي على ما يقتنع به كل من كان عنده فهم سليم في أن هذه المسموعات حقيقة واقعة.

وأما الثاني: وهو إباحة تلك المحاولات وبحوثها، والوصول إلى أجزاء الفضاء، بعيدة كانت أو قريبة، فهذا قد ورد في القرآن، وهو يقتضي ما يدعو إلى ذلك ببذل كل الجهود الحسية والمعنوية في مقامين: مقام النظريات، ومقام المحسوسات.

مقام النظريات:

فالأول: الدعوة إلى مقاصد التفكر والاعتبار فيما يراه الانسان وما يلمسه من تبادل الليل والنهار والطلوع لتلك الأجرام والغروب، واستعمال جميع الحواس التي يمكن الاستفادة منها في هذا الباب النافع، وفي هذا المعنى جاء النص في القرآن في غير موضع، ومن ذلك قوله تعالى: (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) [يونس: ١٠١] وقوله تعالى: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] فالآية الأولى فيها أمر من الله تبارك وتعالى في ذلك، والآيات الأخرى فيها ثناء من الله تبارك وتعالى على أولئك الذين يستعملون حواسهم في هذا السبيل، وقد عاب الله سبحانه وتعالى على قوم أعرضوا عن هذه المقاصد العزيزة حيث قال: (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً

وهم عن آياتها معرضون) [الأنبياء : ٣٢]

وهذه المعاني وردت بكثرة في كلام الله تعالى، وقد مر كثير منها في غير موضع ، وهو ظاهر لا يحتاج إلى زيادة إيضاح من أن البحث في أمور الكون في الأرض والسماء ، قريباً كان أو بعيداً ، أنه من أهداف القرآن وهو مما أمر الله به ورغب به خلقه .

وإذا كان الله عز وجل قد علم أن في استعمال المسلم لحواسه في علوم الكون والتأمل فيها والاعتبار ، نافع في مادة الإيمان بالله تعالى ومضاعفة الخشوع له ، ويستضعف المسلم نفسه أمام عظيم صنعه عز وجل وكبير خلقه ومدى قدرته ، فإذا كان الحال قد بلغ به هذا المبلغ في أمور نظرية على بعد ساحق ، فإن فيما يلمسه الانسان أو يعلم عنه يقيناً من صور هي أكبر وأعظم مما يظنه في السابق ألف مرة أو ملايين المرات ، يجد في نفسه إيماناً بالله تعالى أضعافاً مضاعفة ، والموفق من وفقه الله .

وأما مقام المحسوسات في إباحة تلك المحاولات ، فان القرآن العزيز قد دعا الناس كلهم إلى ذلك بقوله عز وجل : (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان . فباي آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) [الرحمن : ٣٣ ـ ٣٥]

قال القرطبي في تفسيره : قال ابن عباس رضي الله عنهما : (إن استطعتم

أن تعلموا مافي السموات ومافي الأرض، فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي ببينة من الله تعالى .

وعنه أيضاً أن معنى (لاتنفذون إلا بسلطان) : لاتخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم .

وقال قتادة : لاتنفذون إلا بملك ، وليس لكم ملك .اهـ.

وقد بين القرطبي أن معنى الآية حاصل في الدنيا كما نقله عن ابن عباس وقتادة والضحاك . ونقل القول بأن معناها حاصل في الآخرة عن ابن المبارك .

وأماابن كثير رحمه الله تعالى، فإن سياقه في تفسيره للآية يشير إلى أن معناها واقع في الآخرة فقط .

ولم ينقل عن علماء الاسلام في ذلك شيئاً .

وأما البغوي ، فساق تفسير الآية على مايدل أن معناها واقع في الدين .

قال : وقيل : يقال لهم هذا يوم القيامة .

قال : وقوله تعالى : (لاتنفذون إلا بسلطان) أي : بملك ، وقيل : إلا بحجة . والسلطان : القوة التي يتسلط بها على الأمر ، فالملك والقدرة والحجة كلها سلطان .اهـ.

وقد نقل اثر ابن عباس كما نقله القرطبي .

قال البيضاوي في تفسيره:وقوله :(فانفذوا) : فاخرجوا (لاتنفذون) لاتقدرون على النفوذ (إلا بسلطان) : إلا بقوة وقهر ، وأنى لكم ذلك ؟! أو إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا مافي السموات والأرض فانفـــذوا لتعلموا ، لكن لاتنفذون ولاتعلمون إلا ببينة نصبها الله فتعرجون عليها بافكاركم .اهـ.

وهذا الذي ساقه البيضاوي مضمونه ظاهر ومطابق للواقع الملموس من أسلوب رجال العلم الحديث وأسلوب تلك المحاولات الفضائية ، وهو مأخوذ من سياق ابن عباس في تفسيره للاستطاعة والسلطان في أثره الذي مرّ نصه .

وجاء في تفسير الجلالين مانصه . قوله تعالى :(من أقطار): من نواحي (السموات والأرض فانفذوا) أمر تعجيز (لاتنفذون إلا بسلطان) :بقوة، فلا قوة لكم على ذلك .اهـ.

وقال الخازن في تفسيره كما قال البغوي على قولين ، وذكر أثر ابن عباس رضي الله عنهما ثم قال:(لاتنفذون إلا بسلطان) أي :لاتقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر وغلبة.اهـ.

وماقاله النسفي في تفسيره يدل على أن معنى الآية واقع في الدنيا . قال : وقيل : في الآخرة أيضاً . وقوله :(إلا بسلطان) أي بقوة وقهر وغلبة .اهـ.

وفي الجملة ، فان علماء التفسير لم ينقلوا أي دليل من السنـــة على تفسير الآيـة ، فكانت من مقاصد التأويل ، كما لم ينقـلوا أي أثر إلا أثر ابن عباس

كما مر ذكره .

وقوله تعالى : (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران)
قال القرطبي في تفسيره : أي لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار وأخذكم العذاب المانع من النفوذ . وقيل: ليس هذا متعلقاً بالنفوذ ، بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذاباً بالنار . وقيل : أي آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك الكذب .اهـ.

وأما بقية علماء التفسير ، فلم يذكر أحد منهم على الآية شيئاً في معنى ما ذكره القرطبي ، وإنما ذكروا الخلاف في وصف الشواظ من النار والنحاس .

وهذا التفسير الذي ذكره القرطبي أزاح كثيراً من الإشكال ، لأن كثيراً من الناس لا يرى الوعيد إلا متعلقاً بمحاولات النفوذ للفضاء ، غير أن الذي ظهر من تفسيري العلماء في قوليهما أن ذلك غير متعلق بالنفوذ ، وانما هو متعلق بالتكذيب أو هو للعصاة على عصيانهم، وهو الأولى والأقرب إلى الحق، لأن من يستحق العذاب والعقوبة هو من يقصد بفعله المحاولات كالهروب من قضاء الله وقدره أو الهروب من الموت أو التماسه لتكذيب القرآن أو الرسول أو مضاهاة الله تعالى أو دين الاسلام ، فهذا بلا ريب مستحق للعقوبة في مسمى العذاب في الآية أو غيرها ، في الدنيا أو في الآخرة ، وهذا هو مضمون كلام بعض العلماء في تفسير الآية .

وأما من أراد أن يعلم عن هذه الأجرام المضيئة علماً صحيحاً محسوساً ، وكان ذلك في إمكانه ، فهي مخلوقات محسوسة ليس في وصول المسلم أو الكافر اليها أي مانع شرعي ، وهذا هو الحق الذي نطق به القرآن ، وجاء واضحاً في أقوال علماء التفسير ، وفي مقدمتهم حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ولم يرد أي نص يخالف هذا في منطوق ولا مفهوم ، وكيف يمكن أن يأتي مايخالفه وصريح القرآن جاء بتلك المعاني الصريحة في منطوقها ومفهومها ؟!

وإذا لم نقل : إن تلك المحاولات لأقطـــار السموات في حق الجنس البشري مندوب إليه ومرغب فيه من الوجهة الدينية ، فلا أقل من القول في إباحته ، فإذا كانت النتائج تعطي المسلم قوة إيمان بالله تعـالى ، وتفتح له أبواباً صالحة في مقاصد التفكير والاعتبار ، فإن البحث في ذلك ومتابعته لا ريب أنه من باب البر الذي يحبه الله ويرضاه لعباده المؤمنين .

أما من لم تزده إيماناً واعتباراً من الأمة الاسلامية ، فإنه محروم من اللب الذي ناداه الله تعالى ، وكان في مداركه الحمق أقوى نفوذاً ، فلا عبرة به ، ولا يلتفت إليه

والآية صريحة في أن هذه المحاولات شاقة في إدراك البينة التي يعلم بها الإنسان كيف يرقى في هذا الفضاء الكوني ، وشاقة في القوة الحسية التي يتمكن بها من فعل الأسباب وإنفاذ العلم الذي قد يتوصل إليه ، ولقد كان هذا شاقاً وبعيداً كل البعد إدراكه فيما مضى من العصور والدهور ، ولكن الله عز شأنه

لم يقل : إنه مستحيل ، بل ذكر عز شأنه أنه ممكن ، ولكن يحتاج إلى علم ، وعقول تفكر فتتوصل بتفكيرها إلى صناعة يتمكن بها، وبفعل قوة قاهرة للوصول لتلك الطبقات الكونية حتى يصل إلى ماشاء الله من جوانب السموات والأرض ليرى هذه المخلوقات العظيمة في أجرامها وأبعادها ، فهو يقول عز شأنه :(إن استطعتم)أي:إن قدرتم أن تفعلوا شيئاً فافعلوا لذلك النفوذ ، ثم شرح لخلقه الأسباب التي يستحيل على أحد أن يصل إلى شيء من أقطار السموات والأرض إلا بها، وهي البينة من مقاصد العلوم الجبارة والتخطيط السليم البناء ، والقوة الحسية التي يمكنها أن تجتاز ما أمامها من أجواء الأرض والسموات .

فالله سبحانه وتعالى قد ضمّن هذه الآية معجزة من معجزات القرآن العزيز ، يجب على المسلم أن يتأملها ، وأن يفرح بما حدث في عالم الوجود من تصديقها ، فهو عليم عز شأنه بما كان، وما يكون ، ومالم يكن لو كان كيف يكون ، وهو عليم عز شأنه بأن تلك المحاولات حاصلة لامحالة بتقديره وتدبيره وتحديده الأزلي في زمانها ومكانها ، ومن كذب بها فهو كافر بعيد عن الحق تبارك وتعالى وعن مقاصده الأزلية في خلقه ومخلوقاته ، وهو أعلم عز شأنه بما تحتاجه هذه المحاولات الفضائية من عباده في أرضه من العلوم الموهوبة والمكتسبة ، ومايحتاج اليه من القوة الحسية والمادية التي تبهر العقول في قوتها وتصميمها ،فهو الذي (خلق الانسان.علمه البيان) [الرحمن : ٢ ـ ٣] (والله

خلقكم وماتعملون) [الصافات : ٩٦] (ولو شاء ربك مافعلوه) [الأنعام : ١١٢و١٣٧] فسبحان من (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [طه : ٥٠] وفي هذا كله موعظة وعبرة للمسلم في مشارق الأرض ومغاربها (وما يتذكر إلا من ينيب) [غافر : ١٣] (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) [ق : ٣٨]

ولقد كان كثير من الناس ينكر هذه المحاولات، ويصمها مرة بالتكذيب، ومرة بأنها من نتائج الكفر الخاص بأهله، ومرة بأنها من أساليب الشياطين، وغير ذلك، وهذا كله واقع لا محالة من الناس في كل زمان ومكان، وليس هذا محض عناد من كثير من المسلمين، بل إنه محض إدراك محدود، وقد مر الكلام في مقاصد التصديق والانكار في مثل ذلك، مما يدل على أنهم معذورون، وأن التجني على من أنكر شيئاً من تلك الأمور المستحدثة، وأنه ليس من الصواب في شيء، وموقف المسلم لا ريب أنه موقف حرج أمام ماهو في حكم المسموع من طريق الكفار ونحوهم.

ولقد رأيت قوماً من إخواننا ومن علمائنا قد استنكروا بعضاً من علوم الكون في الأرض والسموات مما جاء عن طريق تلك الأمم المنتجة . ومبنى هذا الاستنكار على مفهوم قد فهموه من النصوص أو غيرها، وأصله الاجتهاد، والاجتهاد بابه واسع في عرف النقل والعقل .

فتصدى لهم بعض المنتسبين إلى العلم بدافع ما اعتمد أنه الحق من تلك المسموعات

فرد عليهم بالصحف والكتب مما هو خارج عن الأسلوب الواجب اتباعه في النقل والعقل ، وقد مرت الاشارة إلى بعض هذا ، وعلماء الاسلام من أولهم إلى آخرهم لهم اجتهادهم واستنباطهم وقبولهم وردهم ، ولكل واحد منهم مفهومه بألفاظ القرآن العزيز وتأويله ، سواء في ذلك الامور الكونية أو غيرها .

ولم نجد من رجال الفكر والعلم أي اعتراض أو نقد إلا فيما شذ كنادر في أسلوبهم السليم ، والنادر لا حكم له .

ما جاء عن السماء الدنيا

السماء اسم لكل ما علا وارتفع في الفضاء ، قريباً كان أو بعيداً ، صغيراً كان أو كبيراً ، جرماً كان أو شفافاً .

وقد سما الله تعالى السحاب الذي هو من الأجزاء الشفافة سماءً ، فقال تعالى : (وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً) [الفرقان : ٤٨] وأجزاء السماء تنقسم إلى ثلاثة أقسام .

قسم شفاف كالسحاب وطبقات الفضاء كالجاذبيات ونحوها وما في ذلك من ذرات نافعة وضارة محسوسة وغير محسوسة .

وقسم آخر ، وهو السماء الدنيا بما فيها من أجرام مضيئة وغير مضيئة مما نراه وما لا نراه ، سواء في ذلك ما قيل عنه بالمجموعة الشمسية أوغيرها ، وقد اشتملت على مــــاسماها الله به حيث قال : (أو لم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) [نوح:١٥،١٦]

وتسمى الأفلاك في نظر الفلكيين وغيرهم ممن استحدث هذا الاسم لتلك المجموعات .

وقسم يسمى بالسموات العلى ، كما قال تعالى : (تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى) [طه : ٤] ويأتي ذكرها إن شاء الله تعالى .

وهذا البحث هنا يختص بالقسم الأول والثاني لأنهما في منطقة واحدة تحدها منا الأرض،وتحدها السموات العلى على قدر مفهومنا من هذه المسميات.

ولقد ورد النص في القرآن العزيز عن تلك المنطقة في مواضع كثيرة لا يتسع لها هذا المكان ، فهي تحتوي على ذكر السموات في القرآن إلا ما ندر ، وما ذلك إلا لأننا نراها رأي العين من فوقنا ، وارتباط المصالح الأرضية فيها محسوسة ملموسة ليلاً ونهاراً مما نعلمه وما لا نعلمه .

والقرآن العزيز نص عليها جملة وتفصيلاً ، غير أن التفصيلات الجزئية فيها فوائد للبحث والتأمل ، وهي أكثر ملائمة لفهم الانسان في المعلومات الكونية ، ومن ذلك قوله تعالى : (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) [الأنبياء:٣٣]وقال تعالى:(تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) [الفرقان : ٦١] وقال تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لاالشمس ينبغي لهاأن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) [يس ٣٨—٤٠] وقال تعالى : (ولقد زينا

السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عـذاب السعير) [الملك : ٥] وقال : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعـل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) [نوح : ١٦، ١٧) وقال : (والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق · النجم الثاقب) [الطارق : ١-٣] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أجزاء السموات.

وفيما ذكرناه دلالة عظيمة على ما تحويه تلك الآيات من المواعــظ والتذكـير لما أردنا بحثه والتأمل فيه من هذه الأجرام الفضائية داخل تلك المنطقة المحدودة ، وحيث إن هذه الآيات الكريمة قد تضمنت ذكر أجزاء حساسة من أجزاء هذا الفضاء ، فإنني سأتكلم على معانيها واحدة بعـد أخرى لتعميم الفائدة ، وننقل ما قاله علماء الاسلام في تفاسيرهم عن ذلك ثم نتطرق إلى ما قاله رجال العلم الحديث في اكتشافاتهم العلمية عن هـــذه الأجزاء فيما لا يناهض المعنى الصحيح لتلك النصوص ، لأنها من الممكنات التي لم يرد نص صريح في معارضتها ، وهي لم تعارض أي نص أو تأويل صريح .

الفلك

قال تعالى : (وكل في فلك يسبحون) [يس : ٤٠]

وقد وردت هذه الآية في موضعين في سورة [الأنبياء : ٣٣] وسورة [يس : ٤٠]

قالوا :وقال القرطبي في تفسيره : أي : كل من الشمس والقمر والنجوم

والكواكب يسبحون ،أي: يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء .

وقيل: الجري للفلك ،فنسب إليها ،والأصح أن السيارة تجري في الفلك، وهي سبعة أفلاك دون السموات المطبقـــة التي هي مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر في الفلك الأدنى ، ثم عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الشمس ، ثم المريخ ، ثم المشتري ، ثم زحل ، والثامن : فلك البروج ، والتاسع : الفلك الأعظم ، والفلك واحد من أفلاك النجوم .

وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه : فلكة المغزل لاستدارتهـــا . وفي حديث ابن مسعود : تركت فرسي كأنه يدور في فلك، كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور فيه النجوم .

قال ابن زيد : الأفلاك :مجاري النجوم والشمس والقمر . قال : وهي بين السماء والأرض .

وقال قتادة : الفلك : استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء.

وقال مجاهد : الفلك كهيئة حديد الرحى ، وهو قطبها .

وقال الضحاك : الفلك مجراها وسرعة مسيرها . وقيـل : الفلك : موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه ١٠ هـ .

زاد البغوي في تفسير قوله: والفلك في كلام العرب : كل شيء مستدير ، وجمعه أفلاك ، ومنه : فلكة المغزل . ا هـ .

وقال ابن كثير : (وكل في فلك يسبحون) أي يدورون .

قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في فلكه . ا هـ .

وهذا الذي ساقه العلماء عن مسمى الفلك وصورة الجرم السابح ، يفيدنا بأن الفلك هو بمعنى الجاذبية التي يدور فيها الجرم ، وسباحة الجرم هو أن لا يلتصق بالجرم أي شيء محسوس آخر إلا ما هو من نوع الجاذبية التي هي غير محسوسة كجرم ، لأن السابح يحيط به الماء من جميع جوانبه ، فالفضاء يحيط بالجرم من جميع جوانبه، فشبه الفضاء بالماء ، فهو فلكه .

وأما قول علماء الاسلام : إن الأفلاك سبعة أو أكثر أو أقل ، فهذا شيء ليس عليه دليل يدل عليه من القرآن العزيز ، وإنما الذي يصح القول به أنها السموات السبعة ، كما قال عز وجل : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) [نوح : ١٦ ، ١٧]

فالسموات سبعة قد سماها الله تعالى ، بحيث إن أحداً من البشر لا يحيط علماً يدرك به المعنى الصحيح لهذه التسمية ، هل هي أجرام، أو مناطق محدودة فيها أجرام ؟ وإنما الواجب في هذا الإيمان والتفويض ، والذي يصح القول به هو أن الله تبارك وتعالى قد جعل في هذه السموات السبع نوراً ، وجعل الشمس فيهن سراجاً .

أما الأفلاك التي قد قال عنها علماء الاسلام ، وقال عنها الفلكيون من قديم الزمن ، وتضاربت في تسميتها الأخبار ، وفي عددها ، فالذي يظهر أن هذا الأثر له صورة صحيحة من الصحة المحققة ، والاقرب إلى الحقيقة أن

كل جرم من الأجرام في تلك المنطقة من الفضاء كالشمس والقمر ، وكل نجم من النجوم التي لا تعد ولا تحصى ، كل واحد منها في فلك لوحده سابح ،وهو بمعنى الجاذبية التي تحيط به من كل جانب ، والله أعلم .

وأما سيرها وجريها ، فهو على ما قيل في جري الشمس ، سواء بسواء ، وقدمر الكلام على ذلك ،وسيأتي أيضاً إن شاء الله تعالى .

وذلك يدل على أن كل جرم في مدار له سابح فيه لوحده،وإنك لا تكاد ترى جرماً في الفضاء برأي العين إلا وهو مستدير كروي الشكل لا يتصل فيه غيره .

ولا ريب أننا نرى كثيراً منها متقارباً فيما تراه العين المجردة ، ولكن لا ريب أن بيننا وبينها مسافات هائلة من البعد العظيم .

كما أن العين المجردة نرى فيها من بعد أجراماً مضيئة كجرم واحد ، ومن الممكن أن تكون أجراماً كثيرة ، ولكن لبعدها عنا نراها كشيء واحد ، لأن المحسوس دلنا على ذلك ، فلو أن عشرة أنوار كأنوار السيارات وأمثالها في مكان بعيد ، فإن فيما يراه الناظر تصور نوراً واحداً ، وكلما قرب تبينت أعداداً كثيرة ، وكلما بعد تقاربت لبعضها حتى ترى كأنها نور واحد .

وقول علماء الفلك وبعض علماء الاسلام : إن الشمس في السماء الرابعة،أو في الفلك الرابع أقرب إلى الحقيقة المفهومة ، لأن الشمس في مكان متوسط من تلك الأجرام التي خلقت الشمس لها نوراً ، والقمر أقرب الأجرام

الفضائية إلى الأرض على قول علماء الاسلام وعلماء الفلك وعلماء الفضاء ، وذلك من حكمة الله تعالى ، حيث جعل أهل الأرض ينتفعون بنوره يعلمون من تغير حاله باكتساب نوره من الشمس عدد السنين والحساب ، فلقربه منا ندرك مايحصل له من زيادة النور وعدمه ، أما لو كان بعيداً عنا كأكثر هذه النجوم التي فوقنا ، فإننا لاندرك تغير حاله ، فسبحان من خلق كل شيء فقدَّره تقديراً .

فهذه الشمس على عظم حجمها وقوة نورها ، إذا طلعت وإذا غربت نراها قليلة النور ، صفراء اللون ، وما ذلك إلا لأنها تزيد مساحة بعدها عنا بمساحة الأرض من قبل الشرق في طلوعها ، ومن قبل الغرب في غروبها ، وكلما ارتفعت قربت الينا حتى ترتفع في وسط السماء من فوقنا ، فحينئذ تقرب المسافة بيننا وبينها وكلما قربت من الناس على وجه الأرض زادت عليهم حرارتها ، وكلما بعدت خفت حرارتها الاعتيادية ، سواء بعدت في الجنوب أو في المشرق أو في المغرب ، وقد قسم أهل العلم في هذا الباب الأرض إلى خمسة أقسام :

قسم وسط ، وهو خط الاستواء ، وهو أحر أقسام الأرض ، وقسم شمال خط الاستواء معتدل ، وقسم جنوبه معتدل ، وأما ماوراء ذلك من الشمال والجنوب ، فهما المتجمدان لبرودتهما ، وما ذلك إلا لبعدهما عن مدار الشمس ، فالقطب الشمالي والقطب الجنوبي لايرون الشمس أبداً وما فيهما من البحور

والأنهار وغير ذلك،كلها متجمدة أبد الدهر ، وكلما قربت الأرض من مناطق الاعتدال قرب إلى أهلها الدفء ، ويرون الشمس ، فالشمال تقرب منه الشمس في الصيف ، وكثير من تلك المناطق الشمالية ينظرون إلى الشمس ستة أشهر، على اختلاف في تلك المناطق . وأما الجنوب ، فهم كذلك في فصل الشتاء ، وهذا كله علم يضع في حسبان المرء معرفة وحكمة .

إذا تبين هذا فإن علماء الاسلام قد تنازعوا في الأفلاك والسموات ، وتباينوا في فهم مايعنيه القرآن في قوله : (وكل في فلك يسبحون)[يس : ٤٠] وقوله :(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً)[نوح : ١٦ ، ١٧] وهذا النزاع قد أفضى بهم إلى إيجابية وسلبية ، والوقوف عند نصوص القرآن هو الحق .

وإذا تأمل المرء ماذكرناه آنفاً عن معنى الأفلاك ، تبين له أن لا إشكال إنشاء الله تعالى .

قال ابن كثير رحمه الله في « البداية » : وقد حكى ابن حزم وابن المنير وأبو الفرج ابن الجوزي وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السموات كرة مستديرة ، واستدل على ذلك بقوله : (كل في فلك يسبحون) قال الحسن : يدورون . وقال ابن عباس : في فلكة مثل فلكة المغزل ، قالوا : ويدل على ذلك أن الشمس تغرب كل ليلة من المغرب ، ثم تطلع في آخرها من المشرق .ا هـ.

قلت : وقوله : قالوا : ويدل على ذلك ... إلى آخره ، يدل هـذا على أن كل ما قالوه محض اجتهاد لاتوقيف ، وابن كثير رحمه الله لايرى أن هنـاك سموات غير هذه ،بخلاف القرطبي وغيره ، فإنهم يرون الأفلاك غير السموات، وستأتي الاشارة إلى أقوالهم إن شاء الله تعالى .

وأما مانقله من إجماع العلماء رضي الله عنهم ، على أن السموات كـرة مستديرة ، فهذا يعني أنهـا محيطة بالأرض كالصفار في وسط البيضة ، وهو ملموس يدركه الانسان بالعين المجردة ، غير أن الذي نحتاج إلى تحقيقه هو العلم عن حقيقة هذه الأجرام اللامعة من فوقنا في أبعادها وأجزائهـا ومافيهـا من المخلوقات ، لأنها لم تخلق عبثاً ، بل خلقت لشأن عظيم يعلمه الذي فطرهن ، وإنا على ذلك من الشاهدين .

فهذه السماء الدنيا ، هي التي قد ذكـر الله تعالى لها أعـداداً سبعة في غـير مكان من القرآن ، وفصلها تفصيلاً كاملاً لا اشتباه فيه عنـد التأمل والتفكير السليم .

فالحق أن كل سماء من تلك السموات السبع ، مستقل بسماه عن الآخر ، ولايدرك أحد من البشر هذا المعنى بالتحديد القطعي ، إلا بمفاهيم من منطوق القرآن ، وكل عالم جاء بتأويل على حد فهمه ، ولذلك فإن ابن كثير رحمه الله قد استشهد بحديث الاسراء على أن هذه المجموعة الشمسية هي السموات السبـع، ووقف عندهذا الحد ، وساق كل مايثبت هذا في « البداية » رحمه الله تعالى .

وقد فهمتَ مما ساقه القرطبي رحمه الله تعالى فيما مر من إثباته أن الشمس والقمر والنجوم هي سبعة أفلاك دون السموات السبع ، ولذلك عــــدَّد مافي تلك الأفلاك من الأجرام التي ذكرها الله تعالى ، وما اشتهر اسمه عند الفلكيين فقال: القمر في الفلك الأدنى .. إلى آخرها ، غير أنه عدها تسعة . ثم ساق أقوال العلماء بعد سياق هذا للدلالة على صحة تلك النظرية ، غــــير أن هذه النظرية لاتخرج هذه المنطقة من الفضاء عن مسمى السموات ، وقول الله عز وجـل أصدق وأثبت من الاجتهاد البشري أياً كان .

كما أن ماتوصل اليه ابن كثير رحمه الله تعالى من وقوفه على حدود المجموعة الشمسية في حكم الفضاء ، لايصح لإبطال ما أثبته النص وما قاله العلماء الأعلام من أن هناك سبع سموات علويات ، كما سيأتي ذكره .

وأما تحديد الأفلاك في الفضاء بسبعة أو تسعة أو أقل أو أكثر ، فهـذا ليس عليه أي دليل من خبر ولا أثر .

كما أن ابن كثير رحمه الله يرى أن هــــذه السموات السبع هي الأفلاك ، ويستشهد لذلك بالأدلة ، وأطال رحمه الله الكلام على ذلك نقلاً عن علماء الهيأة. وجملة ماهنالك من كلام العلماء أنهم يرون الفلك مستديراً والأجرام فيه ، فمنهم من يقول : إن الأفلاك تسير من المشرق إلى المغرب بما فيها من الأجرام، ومنهم من يقول :إن الأفلاك راكدة ، والأجرام تسير في مدارها ضمن هذا الفلك ، وقد علمتَ ماذكرناه فيما مر عن هذا البحث ، فالله أعلم ، لأن هذا كله محض

اجتهاد وتقدير وتقريب ، ولا يوجد على هذا التفصيل خبر ولا أثر ، لأن مفهوم قول ابن عباس رضي الله عنهما : إن كل جرم في فلك ، هو مفهوم لفظ القرآن، لأن الله تعالى يقول : (وكل في فلك يسبحون) وهذا يدل على أن كل جرم في فلك يدور .

وحينما نقول : إن الفلك والله أعلم هو الجاذبية التي تحيط بالجرم من كل جانب، إنما نقول ذلك لأن الجاذبية لها مفعول في تماسك الجرم ، كمانع له من الانهيار والاختلاط بحكمة الله سبحانه وتعالى وحسن صنعه ، وقد يفهم هذا مما مر من قول البغوي رحمه الله تعالى في ذكر الفلك أنه عند العرب كل شيء مستدير .

والقرآن نطق باسم الفلك ، وباسم (يسبحون) والسابح بالماء هو في حالة من المادة التي يسبح بها مانعة له من السقوط ، وتماسك الماء للسابح يمنعه من السقوط والالتطام .

وهل الفلك جرم محسوس ، أو لا ؟ فعلماء الاسلام لم يقل أحد منهم : إنه جرم ، وهو الذي يفهم منه بالمحسوس ، غير أنه لابد أن يكون له فاعلية تحيط بتلك الأجرام وإن كان شفافاً ، وسيأتي ذكر الجاذبيات فيما انتهى اليه العلم الحديث .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالته «عرش الرحمن» بعد أن ذكر كلاماً في الأفلاك : والمقصود هنا أن ماذكروه من أن العرش

هو الفلك التاسع قد يقال: إنه ليس لهم عليه أي دليل عقلي ولا شرعي ، أما العقلي، فإن أئمة الفلسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك ، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ماذكروه ، ومالم يكن لهم دليل على ثبوته ، فهم لا يعلمون ثبوته ولا نفيه .

مثال ذلك أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا، بأن السفلي يكسف العلوي من غير عكس،فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه ،كما استدلوا بالحركات المختلفة على أفلاك مختلفة،حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك،إلى آخر كلامه رحمه الله في الفلك .

وخلاصة القول : إن علماء الفلك وعلماء الاسلام وغيرهم لم يعلموا شيئاً عن هذه الأفلاك بيقين،ولم يعرفوا عن معنى الفلك ومادته وفاعليته،وكل ماهنالك اجتهادات من علماء الاسلام فيها فهموه عن لفظ الفلك وما أدلى به علماء الفلك ، والقول بأن فلك كل جرم جاذبيته ،ظاهر في مطابقته لمعنى السباحة كما مر والله أعلم .

البروج في السماء

لقد ذكر الله تعالى البروج التي في السماء في ثلاثة مواضع فقط .

قال الله تعالى : (ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين) [الحجر : ١٦] وقال (تبارك الذي جعل في السماء بروجا) [الفرقان : ٦١]

وقال (والسماءِ ذاتِ البروج) [البروج : ١]

قال القرطبي في تفسيره: البروج : القصور والمنازل . قال ابن عباس: اي : جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر ، أي منازلهما ، وأسماء هذه البروج: الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجلّ العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات ، والخصب والجدب ، وقالوا : الفلك اثنا عشر برجاً ، كل برج ميلان ونصف ، وأصل البروج : الظهور ، ومنه : تبرج المرأة باظهار زينتها .

وقال الحسن وقتادة : البروج : النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها . وقيل : الكواكب العظام ، قال أبو صالح ، السبعة السيارة . وقال قوم : بروجاً ، أي قصوراً وبيوتاً فيها الحرس ، خلقها الله في السماء ، فالله أعلم .

ولم يزد بقية المفسرين على مانقله القرطبي هاهنا عن المعنى لماسماه الله تعالى في السماء بروجاً ، فهم مختلفون ، والعرب قد استعملت البروج التي عدها القرطبي هنا منازل للشمس .

وقد ذكرها بعضهم في بيتين من الشعر فقال :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرباً بقوس جديٍّ نزح الدلو بركة الحيتان

وأما منازل القمر ، فهي ثمانية وعشرون منزلاً ، ذكرها بعضهم في أبيات من الشعر فقال :

خبأ لفرعي رشا شرط البطين ثرى | دبر تهقع هنع الذرع فانتثرا
بطرف جبهة زبر الصرف عاوية | سماك غفر زبانا كلة الأمرا
بالقلب من شولة الانعام في بلد | سعد وسعد وسعد وصفها اشتهرا

وهي كما يلي :

سعد الأخبية ، الفرع المقدم ، الفرع المؤخر ، الرشأ ، الشرطين ، البطين ، الثريا ، الدبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذراع ، النثرة ، الطرفة ، الجبهة ، الزبرة ، الصرفة ، العواء ، السماك ، الغفر ، الزبانا ، الاكليل ، القلب ، الشولة النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود .

وعلم منازل الشمس في بروجها ومنازل القمر من النجوم الثمانية والعشرين المذكورة معروف ومتبع عند المسلمين من قديم الزمان ، وهذا علم صحيح في نظامه تعرف به أعداد السنين والشهور ، وفصول السنة ، وقد مر الكلام في هذا ، وهو علم نافع مباح .

وقد ذكر القرطبي تلك المنازل عند قوله تعالى :[والقمر قدرناه منازل] وسيأتي ، غير أن البروج التي أرادها الله تعالى قد تكون هي تلك المسميات ، وقد لاتكون ، غير أن هذا من منافع النجوم التي اعتادها الناس من قديم الزمن .

وإذا قال قائل : إن ماجاء في القرآن يعني من هذه البروج المعدودة فانه يعدُّ من باب التأويل والاجتهاد لمطابقة المسميات المتبعة والتي وجدت صحيحة في نتائجها ، والاجتهاد لا يعد من باب التفسير ، وإنما يعد من باب التأويل الذي لايقول : إن هذا هو مراد الله قطعاً ، والله أعلم .

الشمس

الشمس جرم عظيم مضيء ، وقد جعلها الله عزوجل سراجاً لمنطقة واسعة من هذا الكون بما فيها أرضنا ، وقد ذكر رجال العلم الحديث أن نور الشمس قد تركب من أجزاء معدودة معلومة ، فحدث بها هذا النور الحاد ، وهذا لا يصح ، وإنما هو محض خرص وتخمين ، لأن أجزاء الشمس يستحيل على البشر تحليلها أو معرفة كيف حدثت بها هذه الأشعة ، لأنه لايمكن لأحد من البشر بحال أن يتسنى له القرب من أشعة الشمس المحرقة في ذاته ولا في صناعته ، غير أن رجال العلم الحديث علموا بأجزاء معلومة ، أنها إذا تفاعلت أحدثت نوراً وناراً ، فهم يقيسونها على نور الشمس والقياس ممكن .

أما عن حقيقة الشمس فبعيد ، فالشمس جرم عظيم تتفاعل أجزاؤها باذن الله تعالى ، فتنفصل منها أشعة محدودة المنافع ، ومما يدلنا على أنها محدودة المنافع ، أنها لاتضيء الأرض كلها ، كما أن نورها يتضاءل كلما بعدت عن الأجزاء الكونية ، فاذا قلنا بتضاعف بعدها ، فانها لاترى إلا ضعيفة ، وربما لاترى بالكل والجزء بناءً على البعد ، وهذا يترتب على مقاييس الأوقات

الضوئية ، وله بحث آخر ، وربما أتينا على ذكره بما توصل إليه العلم الحديث .

ومن الثابت أنها ليست سراجاً لجميع الكون ، كما أنها ليست سراجاً لبعض الاجرام التي تطلع عليها ، لأن في أرضنا أناساً في الجنوب والشمال لايرون الشمس أبداً ، ولكن الحكم للأغلب ، وهذا كله يدل على أن الشمس وأشعتها محدودة المنافع .

وقد ذكر الله تعالى الشمس في القرآن في ثلاثة وثلاثين موضعاً ، فهي آية من آيات الله ، بل هي من أعظم الآيات الكونية فيما تراه العين المجردة .

والشمس لها ثلاثة مواضع في هذا البحث .

الأول : الجري ، كما قال تعالى : (والشمس تجري لمستقرها ذلك تقدير العزيز العليم) [يس ٣٨] .

الثاني : مستقرها ، كما في هذه الآية أيضاً .

الثالث : سباحتها ، وقد جاء في سورة يس أيضاً قوله تعالى:(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في ذلك يسبحون) [يس : ٤٠] .

قال القرطبي رحمه الله تعالى في الآية الأولى: قوله: (تجري) في موضع الخبر ، أي جارية ، ثم ساق على (مستقرها) أحاديث في «الصحيحين» وغيرهما ما معناه أن الشمس إذا غربت تذهب فتسجد تحت العرش حتى يأذن الله لها بالعودة ، وحتى تؤمر فترجع ، وهكذا حتى تؤمر فتخرج من حيث غربت ،

وهي أحاديث مشهورة معروفة .

ثم نقل قراءة ابن مسعود وابن عباس (والشمس تجري لا مستقرلها) وقال : أي انها تجري في الليل والنهار ، لا وقوف لها ولا قرار ، ثم رد هـذا القول واستنكره وضعفه ، بل قال في حق رجل قال: أنا أقرأ بقراءة ابن مسعود وابن عباس : قـــاتله الله ما أجراه على كتاب الله ، وذلك لشدة الإنكار ، وهذا مبني على أن الأرض غير كروية كما أثبته رحمه الله ، وقـــد مر ذكره ، وقراءة ابن مسعود وابن عباس تدل على أن الأرض كروية الشكل على مافسره هو رحمه الله تعالى وغيره من المفسرين ممن كانوا قبله كالبغوي ومن كانوا بعده، فلم يستنكروا هذه القراءة ، فرحم الله الجميع .

قال ابن كثير في تفسيره : في معنى قوله تعالى : (لمستقر لها) قولان .

أحدهما : أن المراد : مستقرها المكاني ، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي اينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات ، فالشمس اذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ماتكون الى العرش ، فاذا استدارت في فلكها الرابع الى مقابلة هـذا المقـام وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ماتكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث ، ثم ساق ابن كثير رحمه الله تعالى بعض الأحاديث التي وردت في كيفية السجود تحت العرش ثم في استئذانهـا كما ورد ثم قال :

وهذا القول يثبت السجود على ماصح في الأحاديث ، غير أنه سجود حكمي لايعلم كيفيته الا الله تعالى ، بناءً على أن الشمس في مجراها لا تغيب عن سطح الأرض .

ثم قال ابن كثير : والقول الثاني : أن المراد بمستقرها : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وهذا هو مسقرها الزمني .

قال قتادة : (لمستقرلها أي : لوقتها ، ولأجل لاتَعْدُوه . وقيل : المراد أنها لاتزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لاتزيد عليها ، ثم تنتقل في مطالـــع الشتاء الى مدة لاتزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس : (والشمس تجري لا مستقر لها) أي : لا قرار لها ولا سكون ، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً لاتفتر ولا تقف ، كما قال تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين)[ابراهيم : ٣٣] أي لا يفتران ولا يقفان الى يوم القيامة . انتهى كلام ابن كثير .

وقال البغوي:أي إلى مستقر لها. قيل : الى انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وقيام الساعة . وقيل : مستقرها : نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ، ونهاية هبوطها في الشتاء ، ثم ذكر الأحاديث الواردة في سجود الشمس تحت العرش، ثم قال : وروى عمرو بن دنيار عن ابن عباس : (والشمس تجري لامستقرلها)

وهي قراءة ابن مسعود ، أي : لا قرار لها ولا وقوف ، فهي جارية ابداً .اهـ.

وقال الخازن بعد أن ذكر خلافاً كثيراً وذكر مضمون الأخبار كما مر: قال الشيخ محيي الدين النووي : اختلف المفسرون فيه (يعني في مضمون الخبر الوارد بسجود الشمس تحت العرش) فقال جماعة بظاهر الحديث. قال الواحدي : فعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم ، استقرت تحت العرش إلى أن تطلع . وقيل : تجري إلى وقت لها وأصل لا تتعداه ، وعلى هذا مستقرها : انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا .

وأما سجود الشمس ، فهو تمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها والله أعلم به .اهـ .

وهذا الذي قاله النووي رحمه الله تعالى ، وما قاله ابن كثير فيما مر قريباً ينزع الاشكال في معنى السجود الذي ورد به الخبر ، ويوافق المحسوس من واقع الشمس التي لا تغيب ولا تقف فيما يدركه الناس بالعين المجردة .

والسجود والاستئذان ومافي معنى ذلك ممكن من كل جماد ونبات ، وكل متحرك وساكن ، كما قال تعالى : (وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) [الاسراء : ٤٤] فالإنسان لايدرك شيئاً من هذه الأمور التعبدية التي ألهمها الله تعالى مخلوقاته في الأرض والسماء ، إلا أنه ممكن لمن شاء الله تعالى من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وعند التأمل

فيما جاء عن الشمس في معنى (لمستقر لها) ومعنى (لامستقر لها) نجد ذلك يدل على أن الشمس متحركة غير ثابتة وسائرة غير واقفة ، وهذا مقتضى لفظ القرآن العزيز، غير أن الخلاف موجود في الكيف المقتضي للجري المذكور في الآية .

فثبت لدينا من تأويل الكيف ثلاث حالات .

الأولى: ما تأوله علماء الاسلام في القديم، من أن الشمس تسير من المشرق إلى المغرب ، وتغيب عن الأرض ، لأن الأرض غير مكورة، كما أثبته القرطبي رحمه الله تعالى ، وقد مر ذكره .

الثانية : ماتأوله كثير من علماء الاسلام من أن الشمس تسير في السماء دائماً ، ولا تغيب عن الأرض ، وهي تطلع من الشرق علينا ، كما تطلع الطائرة في الفضاء تسير فتغرب عنا في المغرب ، بحيث إنها لا تغيب عن الأرض ، كما نقله النووي وابن كثير وشيخ الاسلام ابن تيمية وغيرهم من علماء الاسلام الذين أثبتوا كروية الأرض . وكلا القولين تضمنا أن هذا السير للشمس والأجرام الفضائية، وأما الأرض فهي ثابتة .

الثالثة : ماتأوله كثير من رجال العلم والدين في هذا الزمن ، من أن الشمس تجري حول محورها ، وأنها وجميع الأجرام الفضائية والأرض كل يدور حول محوره ، وهو في مكان واحد لا يتعداه ، وان مانراه من سير الشمس والقمر والنجوم ، إنما هو انعكاس لحركة الأرض وسيرها من المغرب

إلى المشرق .

فالحالة الأولى والثانية مبنيتان على تأويل لفظ القرآن وماتراه العين المجردة .

وأما الثالثة فهي مبنية على تأويل لفظ القرآن وماقاله رجال العلم الحديث.

فالحالة الأولى قد ظهر مايخالفها بالمحسوس ، فثبت أن الشمس لا تغيب عن الأرض ، وثبت أن الأرض كروية بالمحسوس الذي أجمع عليه الناس جميعاً .

ولاتزال الحالة الثانية والثالثة تتأرجحان بين كفتي الميزان ، ولاريب أن إحداهما خطأ ،والأخرى صواب،وقد مر الكلام في ذلك .

ولاغرابة في وجود التباين في تأويل ألفاظ القرآن ، فكان علماء السلف والخلف يتأولون في معنى اللفظ الواحد عدة معان وأحوال ، وتكون في الغالب كلها مقبولة عندما يكون اللفظ يقتضي عدة معان ، وخاصة في مقاصد الأحوال الكونية ، على أن التأويل لايصدق إلا على حالة واحدة من تلك التأويلات ، ولكن هذا ماحصل ، حيث كان النزاع في المعنى المسموع فقط ، أما حينما يتوصل الناس إلى الحس ، فإن فيه فصل الخطاب ونهاية المطاف .

فكل ماجاء في تأويل ألفاظ القرآن العزيز يكون مقبولاً شرعاً وعقلاً عندما يكون التأويل من الممكنات إذا لم يرد نص صريح بخلافه .

وعلماء السلف الذين أثبتوا بمفهومهم من تأويل النصوص أن الشمس

تغيب عن الأرض ، وأن الأرض غير كروية ، لم يقولوا : إن غير هذا المفهوم غير ممكن ، بل إنهم أثبتوا مافهموه ونصروه لاعتقادهم بأنه حق لاريب فيه ، ولم يتجاوزوا الحق في قيلهم لعلمهم بأن الله تعالى على كل شيء قدير، وأن كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ .

معنى يسبحون

قال القرطبي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : (وكل في فلك يسبحون): يعني الشمس والقمر والنجوم يسبحون ، أي يجرون . وقيل : يدورون ، ولم يقل : تسبح ، لأنه وصفها بفعل من يعقل . وقال الحسن : الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصقة ولو كانت ملصقة ماجرت ، ذكره الثعالبي والماوردي . اه .

وقد مر قريباً مانقله ابن كثير عن الحسن في تفسيره (يسبحون)بقوله: يدورون ، وهذا الذي قاله الحسن ، ونقله القرطبي عن أهل العلم قولاً في تفسير حالة السباحة بأنها الدوران ، وعليه فان مفهوم الدوران يشمل ما يدور على شيء ومايدور حول نفسه ، كقولهم : دار حول البيت ، ودارت الرحا، وفيما نعرفه دارت المحالة حول محورها بفعل الحبل الذي يوضع عليها . فمفهوم الدوران هو لما يدور حول نفسه أو حول غيره أقرب منه تفسيراً لما يسير سيراً .

والسباحة أيضاً مفهومها يتباين مع مفهوم السير ، لأن السباحة هي صفة

للجسم الذي يتحرك في محيط له مناعـــة تحفظ السابح من الالتطام بالأجسام الأخرى التي من وراء مكان السباحة ، فكما أن السابح في الماء تحيط به قوة مناعة الماء ، وهو شبه شفاف ، لأن كل جسم لايمنع الحركة فهو شفاف ، غير أن فيه مناعة للسابح ، فهكذا الأجرام الفضائية هي سابحة في فضاء له مناعة قائمة بحفظ تلك الأجرام من الاصطدام بغيرها أو الانحلال في أجزائها من ارتباطها ، كما أن للماء مناعة تحفظ السابح من الاصطدام بما وراء الماء .

ومن الواقع الملموس أنه لايمكن أن يقال لكل جسم يوضع في الماء : سابح، فالحجر الصلد لايمكن أن يبقى سابحاً ، أو يقتضيه هذا الاسم ، فهو يسقط من ظهر الماء ويلتطم بما وراء الماء ، فالجسم الذي يقتضيه هذا المسمى لابد أن يكون فيه مايتمكن به من البقاء في الماء سابحاً ، وذلك إما أن يكون الجسم مجوفاً كالكرة المجوفة ، وإما أن يكون في ذاته حركة تعطي جسمه مناعة حتى يبقى سابحاً ، وغير ذلك ، فالرجل لايكون سابحاً إلا إذا كان متحركاً بما هو المعتاد من حركات السباحة ، وهكذا الأجرام الفضائية لابد أن يكون لها حركات في ذاتها تعطي أجسامها مناعة حتى تبقى سابحة ، والله سبحانه وتعالى قادر على أن يبقيها سابحة ولو لم يكن فيها أي سبب من هذا النوع ، ولكن الله تعالى ذكر لنا أنها تجري ، وأنها سابحة ، فلا بد أن الله خلق فيهـــا مقتضيات السباحـــة كاملة كما في لغتنا ، ولايبعد أن تكون هذه الحركة لتلك الأجرام السابحة هي التي سموها بالقوة الطاردة ، والله أعلم .

وهذا الفضاء المحيط بأرضنا كما هو محيط بالأجرام الفضائية التي هي سابحة فيه يسمى بالجاذبيات ، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى .

وعلى هذا فإن الجري شيء، والسباحة شيء آخر ، فالجري هو اندفاع الشيء بسرعة . قال في « المصباح المنير » : جرى الفرس ونحوه جرياً وجرياناً، وجرى الماء : سال ، خلاف وقف .اهـ

وأما السباحة ، فهي صفة لحالة الجسم فيما يحيط به من المادة الشفافة المانعة، كالماء في حفظه للجسم السابح ، وكل ماجاء في هذا البحث عن حالة الشمس في الجري ، وعدم الاستقرار والسباحة وكيفيتها ، فإنه يصدق على القمر والنجوم في هذه المنطقة من الكون ، كما تضمنته النصوص الشرعية وأقوال علماء الاسلام .

وهذا البحث تظهر من خلاله الحقيقة القطعية ، بأن النصوص الشرعية في منطوقها ومفهومها الصحيح لاتخالف المحسوسات ، وأن تأويل الألفاظ من النصوص الشرعية في الأحوال الكونية واسع المجال ، وأن العقل والدين كلاهما لايخرجان المرء من دائرة التحفظ من الانسياق وراء أساليب الغرور بما يدركه من فهم أو تأويل قبولاً واعترافاً ، لقوله تعالى : (وفوق كل ذي علم عليم) [يوسف : ٧٦] .

والعلم الحديث يقدر المسافة بين الأرض والشمس في أقرب نقطة بينهما ب (٩١٤٥٠٠٠٠) ميل وفي أبعد نقطة ب (٩٤٥٦٠٠٠٠) ميل، وأما جسم

الشمس ، فقالوا : إن قطرها طولاً يزيد على مليون وثلث مليون كيلو متراً ، وأما حرارتها ، فتبلغ في الخارج منها نحو (٦٠٠٠) درجة سنتغراد أو درجة مئوية ، وتزداد هذه الحرارة كثيراً وسريعاً بازدياد القرب من المركز ، حيث تربو على (٢٠) مليون درجة سنتغراد .

قلت : وهذا فيما يمكن أن يدرك من حرارتها ، وإلا فان ماهو داخل ذاتها لا يمكن حصره .

قالوا : وتمتص الأرض من أشعة الشمس كذا وكذا في كل يوم ، وذكروا ما يمتصه الفضاء بمافيه من الأجرام من هذه الأشعة الشمسية .

وهذا كله يمكن إدراكه بتفاعل الآلات الخاصة بذلك في الأرض وفي الفضاء داخل قذائفهم المتكاثرة .وقالوا عن عمر الشمس ، نحو (٤٠٠٠) مليون سنة ، وهذا من الأمور التقريبية أو الظنية بلا إشكال، والله أعلم .

القمر

قال الله تعالى بعد ذكر الشمس : (والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولاالليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) [يس : ٤٠] .

القمر جرم من أجرام الفضاء يدور في فلك غير فلك الشمس ، وقد مر الكلام على سباحة الشمس ، فهو كهي في هذا الحكم ، وكذلك جميع النجوم كل في فلك يسبحون .

والقمر من أجزاء السماء الدنيا التي يعم مسماها جميع أجرام تلك الأجزاء من الفضاء ، كما قال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) [تبارك : ٥] ويعمها أيضاً مسمى سبع سموات ، كما قال تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقـــاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) [نوح : ١٦ ، ١٧]

وقد سماها رجال العلم الحديث بالمجموعة الشمسية ، لأنها تستمد النور من الشمس كما تستمده أرضنا .

والقمر أعظم الآيات الكونية بعد الشمس فيما ندركه من نوره وزيادة هذا النور ونقصه، وهو أقرب أجرام الفضاء إلى الأرض فيما يعلمه الانسان ، وبه تعرف الأوقات الزمنية ، ويعلم أهل الأرض عدد السنين والحساب بتقدير الله تبارك وتعالى وتدبيره ، وبنظام لا يتبدل ولا يتغير .

ونحن نرى من نور القمر جانباً يزداد تدريجياً ، والذي نراه من نوره ليس هو كل ماينال القمر من أشعة الشمس ، فالقمر يأخذ من الشمس كماتأخذ الأرض ، بحيث إنها لا تغيب عنه ولا يغيب عنها ، غير أن هذه الأحوال المختلفة قد اقتضتها حكمة الله لما لذلك من النفع لأهل الأرض فيما نلمسه ونراه، ولا يمكن بحال أن ينحصر هذا في منفعة أهل الأرض فقط ، لأنه يحتمل أن ينتفع به غير أهل الأرض من المخلوقات الأخرى في هذا الفضاء الواسع ، وفي القمر نفسه ، ويقع الخسوف لنور القمر حينما تكون الأرض في مكان تحول

بين الشمس والقمر ، فيمتنع نور الشمس عن القمر فيما نراه ولا يقع ذلك إلا في نصف الشهر ، حينما تكون الأرض والقمر في وزن واحد مع الشمس، وهو شيء معروف عند أهل الحساب ، فهو واقع ملموس .

كما أن الكسوف يقع مع الشمس حينما يكون القمر في منزلته آخر الشهر ، فقد يكون بمكان يحجب عن الأرض نور الشمس في حين أن أهل الأرض لايرون من نور القمر شيئاً ، والقمر آية الليل ، كما أن الشمس آية النهار .

وقد ذكر الله تعالى القمر في القرآن العزيز في سبعة وعشرين موضعاً متفاوتة المعاني ، ليذكّر الله سبحانه وتعالى خلقه بتلك المنافع التي سخرها لهم في تكوير الليل على النهار ، وتكوير النهار على الليل ، وتحول القمر من حال إلى حال أبداً بنظام محفوظ من النقص والخلل ، ومن العيوب والتفاوت .

قال القرطبي : قوله تعالى:(والقمرَ) يكون تقديره : وآية لهم القمر، ويجوز (والقمرُ) مرفوعاً بالابتداء ، وقوله : (قدرناه منازل) فيه جوابان . أحدهما : قدرناه ذا منازل ، والتقدير الآخر : قدرنا له منازل ، ثم حذفت اللام . والمنازل ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها، ثم أخذ القرطبي رحمه الله تعالى يسرد تلك المنازل، وقد مر ذكرها ... إلى أن قال : فاذا صار القمر في آخرها عاد إلى أولها ، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ، ثم يستسر ، ثم يطلع هلالاً فيعود في قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة

على البروج لكل برج منزلان وثلث .ا هـ .

وقد أطال الكلام على تصوير المنازل والبروج وأحوالها ، والبروج هي بروج الشمس ، وقد مر ذكرها .

وقد مر الكلام فيما نحتاج اليه في هـذا البحث عن القمر ، وحيث كان — فيما يظهر لنا — أقرب أجرام الفضاء إلى الأرض مسافة فقـد جاء فيما قاله رجال العلم الحديث أنه يبعد عن الأرض مسافة قدرها (٧٥١١٥٠) ميل تقريباً فالله أعلم .

وإذا قارنا بين هذه المسافـــة لبعد القمر عن الأرض التي أعلنوا عنها عندما أخذت سفينة الفضاء الامريكية (أبوللو عشرة)بدورانهـاحول القمر أي بتحديد حسي،وبين المسافة التي قطعتها القذيفة الروسية إلى كوكب الزهرة في هذا الشهر (مايو) ١٩٦٩ والبالغة (١٥٠) مليون كيلو متراً قطعتها القذيفةفي مائة وثلاثين يوماً ، نجد أن القمر قريب جداً من الأرض ، ومن هذا نأخذأن كوكب الزهرة هذا الكوكب اللامع يحمل نوراً أعظم بكثير من نور القمر ، لأن القمر لو كان على مسافة الزهرة ، فإننا لانرى له نوراً ، لأننا نراه عنـــد طلوعه يكون أحمر ، لأن بعده عنـا فيما نراه ضعف مساحة الأرض التي تقع شرقي بلادنا ، فكيف لو تضاعف إلى بعد مسافة (الزهرة) ، وهي التي تزيـد على بعد القمر باعداد كبـيرة ، وذكر الروس أن الحرارة تبلغ (٣٠٠) درجة على كوكب الزهرة ، وهذا يدل على أن هنـاك نوراً وحرارة مزدوجة ، وهي

والله أعلم أقرب إلى الشمس من القمر بمسافات كبيرة فالله أعلم

سبع سموات طباقاً

ذكر الله تعالى عن السموات أنها سبع سموات طباقاً في موضعين ، في سورة الملك قوله تعالى: (الذي خلق سبع سموات طباقاً ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) [تبارك : ٣] .

وفي سورة [نوح ١٥ ، ١٦] (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً).

وهذه السموات التي قد حدد الله تعالى عددها بسبع ، وجعلها طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس فيهن أيضاً سراجاً .

وفي ذلك ثلاثة فوائد .

الأولى :أنها سبع سموات ،وهذه المسميات لاتعلم حدودها في جملة الأجرام الفضائية ، لا في نص صحيح ، ولا في حس يعلمه البشر ، ومن قال بذلك ، فإنما ذكره بناءً على الحدس والتخمين ، غير أنه يجب الإيمان بأنها سبع محدودة بعلم الله تعالى .

الثانية : أن الله تعالى جعلها طباقاً . قال العلماء : أي بعضها فوق بعض ، والذي يصح أنها مناطق من الفضاء هي ومافيها من أجرام السماء بعضها فوق بعض،على أن الأجرام متباعدة في رأي العين بعضها عن البعض الآخر .

الثالثة : أن الشمس والقمر فيهن ، أي في منطقه السبع سموات ، ومن

قال : إن القمر في السماء الدنيا، أو إن الشمس في السماء الرابعة بلا نص ثابت ، فإن قوله لا ينبني على هدىً ، بل إن الشمس والقمر فيهن ولهن نوراً وسراجاً، بما في ذلك أرضنا ، كما أنه من الممكن أن تكون الشمس في السماء الرابعة ، والقمر في السماء الدنيا ، ومعنى ذلك أن الشمس متوسطة من تلك الأجرام ، والقمر هو أدناها وأقربها إلينا ، كما دلت على قرب القمر الاكتشافات الجديدة.

قال علماء الإسلام : قوله : (ألم تروا) على الإخبار ، لا المعاينة ، قاله القرطبي .

قلت : ومعنى ذلك كما قال تعالى :(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) والمراد به الإخبار ، لا المعاينة، وآيتا البحث كلها تشير إلى ذلك .

والذي يستنبط من هذا هو الرغبة من الله تعالى بأن يستعمل الناس الأبصار في عظيم صنع الله تعالى لتلك السموات التي يراها الإنسان من فوقه كصف واحد ، وهي سبع فوق بعضها جعلها طباقاً، لا يعلم أعدادها وأبعادها ومافيها من متحرك وساكن وجماد ونبات إلا الله عز وجل ، وهذا التأكيد باستعمال الأبصار في هذه المرئيات الباهرة بتكرار النظر والتفكير فيها، وأنها تحمل وراءها خفايا من عجائب المخلوقات الجسمانية والحيوانية والحكم الربانية بكيفيات هي أكبر مما تتحمله العقول البشرية ، إذ لا تستحق الإحاطة بشيء منها إلا على طريق الإجمال ، لا التفصيل (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) [النمل : ٦٥] وقد مر الكلام في ذكر هذه السموات

السبع وأقوال بعض العلماء بأنها هي الأفلاك ، وردوه بما ثبت من لفظ القرآن العزيز .

النجوم والمصابيح والكواكب

النجم واحد النجوم ، والنجوم هي عموم أجـــرام السماء النيرة ، إلا الشمس والقمر ، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن في ثلاثة عشر موضعـــاً للتذكير والاعتبار واستعمال التفكير السليم بعظيم صنعه في السموات والأرض .

وفي هذا المعنى قال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناهـا رجوماً للشياطين) [تبارك : ٥] فهي من جملة النجوم .

وأما الكواكب ، فانها أيضاً من مسمى النجوم ، وقد ذكرهـــا الله بالإفراد والجمع في خمسة مواضع من القرآن (كأنها كوكب دري) [النور : ٣٥] (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هـذا ربي) [الانعام : ٧٦] (إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) [يوسف : ٤] (وإذا الكواكب انتثرت) [الانفطار : ٢] (إنا زينا السماء الدنيـــا بزينةِ الكواكب) [الصافات : ٦]

قال القرطبي في قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) المصابيح جمع مصباح ، وهو السراج ، وتسمى الكواكب مصابيح لاضاءتها . قوله : (وجعلناها رجوماً للشياطين) أي : جعلنا شهبهـا ، وعلى هذا ، فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها . وقيل : إن الضمير راجـع إلى

المصابيح ، على أن الرجم من نفس الكواكب ، ولا يسقط الكوكب نفسه ، إنما ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوؤه ولا صورته .اهـ.

فاذا كان هذا كلامهم في المصابيح والكواكب ، فان النجوم في السماء تشمل مسميات الكواكب والمصابيح بجملتها وتفصيلها ، غير أن هذه الأسماء هي مشتقة من منافع تلك الأجرام كماصوره رجال العلم .

والنجوم قد ذكرها الله تعالى بالجمع والإفراد أيضاً ، على ماتقتضيه الحكمة من منافعها ، ومايطلب من الناس من التفكير والاعتبار ، وجاءت بنص متباين متفاوت الأهداف والمنافع ، فقال تعالى : (وبالنجم هم يهتدون) [النمل : ١٦] . (والنجم إذا هوى) [النجم : ١] . (والنجوم مسخرات بأمره) [الأعراف : ٥٤] (فإذا النجوم طمست) [المرسلات : ٨] (وإذا النجوم انكدرت) [التكوير : ٢] (فنظر نظرة في النجوم) [الصافات : ٨٨] (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) [الطور : ٤٩] (فلا أقسم بمواقع النجوم) [الواقعة : ٧٥] (جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) [الأنعام : ٩٧] (والنجم الشجر يسجدان) [الرحمن : ٦] (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب) [الطارق : ١ - ٣]

فهذه النجوم على اختلاف الموعظة والتذكر للإنسان بمنافعها تتضمن المصابيح والكواكب والبروج للشمس ، والمنازل للقمر ، وغير ذلك من كل لامع في السماء ، ولا يسمى باسم النجم أو الكوكب أو المصباح إلا لأنه

لامع في رأي العين المجردة . وأما ما لايراه الناس ، فإنه لم يدخل في هـــذه المسميات وإنمـــا هو داخل في معنى قوله تعالى : (ويخلق ما لاتعلمون) [النحل : ٨] .

وهذه اللوامع في السماء فيما يظهر للناس وفيما ظهر أيضاً من نتائج العـلم الحديث، أجرام صغيرة وكبيرة بعيدة وقريبة تكسب نورها اللامع من الشمس ولم يثبت أنـ هناك جرماً في السماء مما نراه بالعين المجردة ، أو توصلت إليه المعلومات الحديثة في علم المراصد أن شيئاً منها هو نار أو ملتهب نوراً بنفسه .

وإذا كان الذي ظهر هو هذا، فإن الشهب التي تقذفها النجوم فيما نراه لابد وأنها وليدة احتكاك في هذه الأجرام الفضائية ، وهـــذا الاحتكاك ينفصل منه الشهاب كما تنفصل الصواعق من السحب بفعـل الاحتكاك ، فإن الصواعق تنزل بصورة الشهاب كقطعة من نار محسوسة يكون لهـا أثر في الأرض كأثر القنبلة المحرقة في غالب الأحيان ، وهـــذا الاحتكاك ليس هو وليد احتكاك أجرام في بعضها ، وإنما احتكاك من اختصاص الجرم بنفسه ، وقد تكلم رجال العلم الحديث عن معنى الشهب النيازك كما يقولون ، وربما أتينا على شيء من ذلك إن شاء الله تعالى .

وتلك النجوم اللامعة في السماء جملة وتفصيلا أحوالها تنبني في معلومات الناس عنها على قاعدتين .

القاعدة الأولى : ماقاله رجال الدين الإسلامي من أنـ هذه الأجرام

الفضائية تدور في السماء من المشرق إلى المغرب، أي تسير على ظاهر مافهمه أولئك العلماء من ألفاظ القرآن، وما أدركته المعقولات الفردية والاجتماعية آنذاك، وقد مر الكلام في هذا كله، وهذا في الكيفيات، وأما الحكم، فقد مر بعض الكلام في أحكامها، كما قاله قتادة رحمه الله تعالى، وقد مر أيضاً، وذكرنا قريباً ماهو من منافعها في الفصول والمنازل والحساب، وما ذلك إلا لأنها أمور قدّرها الله تعالى، وألهم الإنسان أن يمارسها، لأنها من الأمور النافعة في الحياة البشرية فهي من منافعها الملموسة لأهل الأرض، وعلم النجوم علم واسع أخذ منه المسلمون ماينفعهم ولا يخالف المقاصد الدينية ولا العقول السليمة وتوقفوا عند ذلك. وأخذ به المنجمون وعلماء الأحكام ونحوهم بكيفيات حسابية خلطوا فيها عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وكان بامكانهم أن يقولوا مايشاؤون في هذا المقصد لفقدان المحسوس.

وأما القول الذي قررناه، بأن الأرضين التي أثبتها علماء الاسلام كما أثبتها النص من القرآن والسنة فهي في هذه المجموعة الشمسية، وقد مر الكلام في ذلك في ذكر سبع أرضين.

القاعدة الثانية: ماتوصل اليه العلم الحديث، وقال بما يثبت بعضه بعض علماء الإسلام، ككروية الأرض، وجاذبيتها، وما ألمح اليه بعضهم من سباحة الأجرام في الأفلاك ودورانها، وقد كان العلم الحديث ينبني على علوم يغلب عليها الحس، وهي نتيجة المراصد بمناظيرها الهائلة، حيث استمرت على هذا

الأسلوب دراسات هائله من مئات السنين ، حينما توصلوا إلى اختراع المكبرات الثابتة كالمراصد .

ماقيل في دوران الأرض والأجرام الفضائية

ومن النتائج التي أجمع عليها رجال العلم الحديث أن الأرض تدور ،وأن الأجرام الفضائية كلها تدور ، كل يسبح حول نفسه ، وقد مر الكلام على هذا المعنى،فلو ثبتت هذه النظرية بدوران الأرض ، فإن الأجرام الفضائية لاريب أن كل جرم مما نراه في السماء هو دائر حول نفسه ، ولهذا فإن كل مانراه في السماء مختلف الحركة في رأي العين ، حيث إنه ينبني على بعده عن الأرض ، فكلما بعد الجرم عن نظرنا جاءت حركته فيما نراه بطيئة ، كما هو الملموس ، وهكذا تأتي نتائج مانراه في آفاق الفضاء ، بحيث إن كل جرم يكون له دورتان غالباً ، كما للأرض على حد قولهم دورة من المغرب إلى المشرق ، ودورة من الجنوب إلى الشمال بالشتاء ، ودورة من الشمال إلى الجنوب في الصيف ، وهاتان الدورتان من الشتوية والصيفية لاتكونان دورة في نفس الوقت ، كما تدور الأجرام من المغرب إلى المشرق ، وإنما هو اندفاع بكليتها ضمن الدورة اليومية ، وبهذا الاندفاع الدقيق يطول الليل ويقصر ، ويطول النهار ويقصر ، فسبحان من له في خلقه شؤون ، وهذا كله لم يصح لدينا في نص صحيح ظاهر ، ولا في ملموس قطعي .

وحيث كانت هذه الأجرام الفضائية بصورة لاتعدّ ولاتحصى ، كما جاء في العلم الحديث تأكيداً لما يراه الانسان رأي العين ، فإن العلم الحديث قـــد أدرك أن بعض هذه الأجرام هو مشتق من مادة الأرض مما يطابق مافي الآ ية (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً) [الأنبياء : ٣٠] ، الآ ية،وقد مر الكلام في ذلـــك وخاصة الأجرام المشهورة في الفضاء قديماً وحديثاً وهي :

عطارد ، الزهرة ، المريخ ، المشتري ، زحل ، يورانوس ، نيتون بلوتن ، الأرض .

هكذا عدها رجال العلم الحديث ، وهذه هي المجموعة الشمسية على حد قولهم ، وليست هي الكل ، وإنما هي والله أعلم قد عدها المتأخرون كما عدها الأولون ، وإلا فإن رجال العلم الحديث قد عدوا أفراد المجموعة الشمسية من الأجرام (ب ١٠٠ مليون شمس ونجم موزعة على أبعاد خيالية داخل مايشبه القرص العظيم في فضاء السماء الذي يبلغ طول قطره نحو (٦٠٠ الف مليون مليون كيلو ،أي (٦) متبوعة بأربعة عشر صفراً (٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠)

وهذا الذي قاله رجال العلم الحديث ، هو محتمل للصحة في نفس الأمر، غير أن حصول هذا بتحديد كهذا من باب التقريب فقط .

قال ابن كثير في « البداية » :فالكواكب التي في السماء ، منها سيارات ،

وهي المتحيرة في اصطلاح علماء التفسير،وهو علم غالبه صحيح ، بخلاف علم الأحكام ، فإن غالبه باطل ودعوى بمالادليل عليه ، وهي سبعة : القمر في سماء الدنيا ، وعطارد في الثانية ، والزهرة في الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة ، وبقية الكواكب يسمونها : الثوابت ، وهي عندهم في الفلك الثامن وهي الكرسي في اصطلاح كثير من المتأخرين .

وقال آخرون : بل الكواكب في السماء الدنيا ، ولامانع من كون بعضها فوق بعض .

قال : وعندهم أن الأفلاك السبعة ، بل الثمانية ، بما فيها الكواكب الثوابث والسيارة تدور على خلاف فلكه من المغرب إلى المشرق .

فالقمر يقطع فلكه في شهر ، والشمس تقطع فلكها وهو الرابع في سنة، فإذا كان السيران ليس بينهما تفاوت ، وحركتهما متقاربة ،كان قدر السماء الرابعة بقدر السماء الدنيا اثنتي عشرة مرة ، وزحل يقطع فلكه وهو السابع في ثلاثين سنة ، فعلى هذا يكون بقدر السماء الدنيا ثلثمائة وستين مرة . انتهى.

وهذا الذي نقله ابن كثير رحمه الله عن ذكر الأجرام ، وان الأفلاك سميت بها ، وأنها هي السموات التي ذكرها الله تعالى وذكر أنها سبع سموات، أثبته أيضاً شيخ الاسلام ابن تيمية في رسالته « عرش الرحمن » فقال : وقد قال بعضهم : إن الأفلاك غير السموات ، لكن رد عليه غيره هذا القول، بأن

الله تعالى قال : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ٠ وجعل القمر فيهن) [نوح : ١٦، ١٧] وقد أخبر أنه في الفلك . اه .

والأفلاك أو السموات هذه مستديرة على الأرض من جميع نواحي الفضاء .

قال ابن تيمية بعد كلامه الذي مر : واستدارة الأفلاك كما أنه قول أهل الهيئة والحساب ، فهو الذي عليه علماء المسلمين ، كما ذكره أبو الحسين بن المنادي وأبو محمد بن حزم ، وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهم ، أنه متفق عليه بين علماء المسلمين ... إلى أن قال : وكل من جعل الأفلاك مستديرة ، يعلم أن المحيط هو العالي على المركز في كل جانب . اه .

قال صاحب المنار على هذه الجملة من كلام شيخ الاسلام : فما نقله شيخ الاسلام من اتفاق علماء الاسلام على استدارة الأفلاك ، صحيح على كل حال، فان الكواكب كلها مستديرة كُرِّيَّة الشكل ، وأفلاكها التي تدور فيها كذلك ، والعالم كله كُرِّيُّ الشكل ، وكل جرم من أجرامه يسبح دائراً في فلك له مستدير بنظام حسابي مطرد ، كما قال تعالى : (الشمس والقمر بحسبان) [الرحمن : ٥]

وقد مر أن كلام علماء الاسلام رضي الله عنهم الذي أخذوه عن علماء الهيئة والفلك في أن في السماء سبعة أفلاك أو أكثر أو أقل لا أساس له من الصحة ، لأن هذا لا يوجد عليه دليل يستند عليه ، لا من النصوص الشرعية ،

ولا من المحسوس،وإنما الحق هو تقسيم هذه المنطقة التي جعل الله فيها القمر نوراً والشمس سراجاً الى سبع مناطق سماها الله تعالى سبع سموات، وهذه التسمية أيضاً لم تحدد مسمياتها ، ولا يجوز لأحد تحديدها ، ولا اعتقاد شيء من حدود السموات .

قال ابن كثير : القمر في السماء الدنيا ، وعطارد بكذا ،والشمس بكذا، غير أنه لايجوز لنا الحكم بعدم صحته ، لأنه لا يوجد أي دليل على نفي ذلك ولا على إثباته فالله أعلم .

غير أن الحق أن الشمس والقمر في تلك السموات السبع ، لقوله تعالى (فيهن) وقد تقدم الكلام على هذا المعنى في غير مكان .

وتسمية المسلمين تلك الأجرام : عطارد ، والمشتري ، وزحل ... إلى آخرها ، وكذلك تسمية رجال العلم الحديث لها بتلك الأسماء ، حيث تناقلها الناس بهذه الأسماء،ومن غير البعيد اختلافها على كثير من الناس ، وإنما حددوا لها أمكنة في الفضاء ، ونصوا عليها باسمائها ، حتى حدها بعض علماء الاسلام في أمكنتها من السموات السبع .

إذا تبين هذا ، فان علم الفضاء ، وتحديده ، والإشارة الى مسميات من أجرامه ، والتفكير في ذلك ، سواء لعلماء السلف في علم الفلك، أو علماء الخلف في الحاضر ، فان ذلك كله خيال تدور فيه مقاصد التفكير البشري في حلقة مفرغة،وعلى الرغم من أن علماء الخلف في زماننا هذا قد أدركوا المراصد الهائلة،

ونظروا بأعينهم إلى أحوال تلك الأجرام الكونية ، ولاحت لهم أعداد وآفاق لا حدود لها ، فانهم كلما أوغلوا في الاكتشاف ، قوي في أذهانهم أن علم الكون خيال لا حدود له .

ونحن نعلم علم اليقين أن هذا حق لا ريب فيه ، وأن الاكتشافات تمشي إلى غاياتها رويداً رويداً ، غير أنها لا تصل إلى شيء يكتسبه الانسان لحياته المادية والاجتماعيه ، إلا كما تكتسب الإبرة من ماء المحيط ، اللهم إلا من كان مؤمناً يؤمن بالله تبارك وتعالى ، ويأخذ بتلك النتائج تصديقاً وعلماً يستدل به على عظمة الله تعالى وجبروته ، وقدرته وسلطانه ، وقهره الذي لا يقوم له شيء .

المجموعة الشمسية والأرضون السبع

إن الله تبارك وتعالى قد ذكر لنا أنه خلق سبع أرضين ، وهذه الأرضون هي كالسموات السبع ، كما جاء في القرآن ، وسيأتي ذكر السموات السبع العلى ، والله تبارك وتعالى ذكر لنا أنه خلق من فوقنا سبع سموات ، وجعل القمر فيهن نوراً ، وجعل الشمس سراجاً ، وقد مر الكلام على الأرضين السبع وأن الله تبارك وتعالى قال : (سبع سموات ومن الأرض مثلهن) [الطلاق : ١٢] وقد علمت ما ذكره العلماء عن هذا المثل وأنه قد اختلفت فيه مفاهيمهم ، وواضح أن لفظ « المثل » يقتضي استكمال صورة المتماثلين ، والعلماء أثبتوا أن السموات السبع العلى كل واحدة محيطة بالتي تحتها ويأتي.

فإن هذه الأجرام التي نراها من فوقنا بناءً على هذا المفهوم وإن كانت تسمى سماءً ، فإن من الممكن أن يقال : هي من الأرضين ، لأنه ثبت وجود سبع أرضين بما لا يدع للشك مجالاً .

على أننا نقول هذا ، ولا يمكن بحال أن نقول بتحديدها مكاناً ولا جرماً، وإنما الذي وردت به الأدلة الشرعية أن في الوجود الكوني سبع أرضين ، وأنها كالسموات ، والمجموعة الشمسية التي أعرب عنها رجال العلم الحديث هي أقرب ما تكون لهذه المجموعة الأرضية .

والقول بأن الأرضين السبع كل واحدة منها جرم بمفرده لا يصح ، وإنما يجوز أن تكون كل أرض هي مجموعة من هذه الأجرام ، كما أن الله تعالى سمى هذه الأجرام التي لا تعد ولا تحصى سبع سموات ، فكما أن هذه السبع سموات لا تحدد فيما يعلمه البشر بكيف ولا حد ، فكذلك الأرضون لا تحد بكيف ولا حد .

ومما لا شك فيه أن تلك الأجرام الهائلة في أحجامها وما جاء في العلم الحديث عن أوصافها وموادها إنما هي أجسام حية ، والعقل السليم لا ينكر هذا بحال من الأحوال ، وقد مر الكلام في ذلك بما لا يدع للشك مجالاً في الحياة فوق هذه الأجرام كلها أو أغلبها ، لأن الله تعالى لا يخلق شيئاً عبثاً ، وهذه الأجرام قد كان الناس يرونها في هذا الفضاء الواسع بأعداد كبيرة ، غير أنهم لا يعلمون عن أبعادها وأحجامها وأجزائها شيئاً البتة إلا ما كان من باب الحساب

والتقدير بأحوال قد يكون فيها نوع من الحقيقة .

أما اليوم ، فإن وسائل العلم الحديث قد بعثت في النفوس إدراكاً واسعاً عن هذه الأجرام اللامعة في السماء في أبعادها وكيفياتها في الحجم والمادة والحركة والجاذبيات وأجزاء الطبقات واكتساب تلك الأجرام أشعتها من الشمس ، وغير ذلك من الفوائد العلمية المحسوسة .

في عموم الأجرام

لقد أثبت العلم الحديث أن الأجرام السبعة التي مر تعدادها : عطارد ، والزهرة ... إلى آخرها أنها في أمكنة من الفضاء متساوية الأبعاد عن الشمس ، ومسمى المجموعة الشمسية التي قد كان تعدادها كما يقولون : حوالي عشرة ملايين جرم فضائي ، تكون الشمس فيها وسطاً ، كما قال تعالى (وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) [نوح : ١٧]

وقد قال علماء الإسلام عن هذه الكواكب السبعة أو التسعة : إنها السيارة ، وسيرها فيما يراه الإنسان وأمكنه أن يعرف هذا بحسابات دلته على سرعتها في السير وبطء غيرها وتفاوتها ، وإلا فإن الحق في سير الأجرام الفضائية شامل لجميعها على أي حال من أحوال الحركة للأجرام الفضائية كما تقدم في إحدى صور القاعدتين .

ومما ينقل الحقيقة إلى الشك في جميع مقادير الفلكيين في أقوال رجال العلم القديم أنهم يقولون : سبعة أفلاك أو تسعة أفلاك ، وأن هذه الأفلاك

مستديرة في الفضاء ، وكل فلك يدور بأجرامه ، وإذا كانت هذه الأفلاك تدور في أجرامها . فعلى هذا تكون جميع النجوم مجزءة في سيرها إلى سبعة أفلاك ، أي سبع حركات فقط ، غير أن منطقة الفضاء تتفاوت فيها حركات النجوم إلى أعداد لا حد لها فيما تراه العين المجردة وفيما ينظر إليه بالمراصد ، وهذا يدل على أن أجرام السماء ، كل في فلك يدور لوحده ، غير أن مناطقها لا تتعدى سبع مناطق ، وهي السموات التي لا يعلم أحد مما كان اشتقاق هذا المسمى ، إلا أنه قد جاء منصوصاً عليه في القرآن ، فكان بذلك موقف إيمان قطعي بلا حد ولا كيف فيما يعلمه الانسان .

وإذا نظرنا إلى كلام المفسرين عند ذكر النجوم كما مر ذكرها ، وجدناها أقوالاً اجتهادية مبنية على أصول أهل الهيئة والفلك ، فهي على ما كان في هذا الباب من قديم الزمن .

قال القرطبي في قوله تعالى : (والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب) [الطارق : ١ ـ ٣] أقوالاً كثيرة للعلماء ، فقال : إنه زحل ، وقيل : الجدي ، وقيل : كل النجوم ، وقيل : نجم الفجر ، وقيل : إنه الثريا ، وغير ذلك . اهـ .

وقد علمت مما تقدم أن اختصاص تلك الأجرام الفضائية بأسمائها التي تناقلها الخلف عن السلف لا ينبني إلا على أصل واحد ، وهو ما أدركه الانسان من نتائج الحساب عن مواقعها في الفضاء ، وليست هي أكبر ما في الفضاء من أجرام ، ولا هي أضواؤها ، وليس لها أي صفة يتابعها الناس من أجلها ، غير أن

إدراكها بالحساب في باب ما أدركه الناس من بروج الشمس ، ومنازل القمر في مجموعة تلك النجوم النيرة التي كانت الغاية من فوائدها معرفة الفصول السنوية وتعداد منازل القمر التي هي في جملة أيام البروج للشمس ، وكل ما تحت هذه المسميات من المنافع بجانب نور الشمس والقمر ، والاهتداء بتلك النجوم في ظلمات البر والبحر ، وهي بجملتها مابلغ اليه الانسان من منافع تلك الأجرام التي لاتعد ولاتحصى ، والانسان يراها بعينه المجردة ويفكر فيها ، وقديظن الكثير أن منافعها محصورة في هذه المكاسب التي أمكن الانسان إدراكها ، وهو بعيد عن الصواب، وحينما نقول :إن ما أدركه العلم الحديث أيضاً من أحوال تلك النجوم في هذا الفضاء الواسع ،كان بحكم الخيال الذي يراه الانسان متخيلاً حينئذ أنه في حالة هو فيها بين اليقظة والمنام لمايرى مما يُدهش من عظيم ماخلق الله في هذا الكون وأبدع .

وهاهو الانسان يحاول بقوقعاته عبر هذا الفضاء الخضم لعله أن يصل إلى القمر الذي يراه الانسان أقرب جرم إلى الأرض ، وما الأرض بكل ماضمته من ضخامة أجزائها وجرمها بما عليها إلا كذرة صغيرة بجانب أجرام الفضاء .

فلا غرابة ولاتثريب على الانسان في محاولاته الكونية أياً كان نوعها ، وأياً كان دينه واعتقاده ، لأنه بذلك يتوصل إلى أمور تظهر من عظيم قدرة الله تعالى وعجيب صنعه مايزيد في الإيمان واليقين ، لأن الكفر والإسلام في اعتقاد

رجال العلم بمحسوسات الكون لا أثر له في صلب الأمر الملموس والممكن على حد سواء ، بل ربما كان العالم بالطب مثلاً أو في معلومات صناعية أو كونية إذا ظهر على يديه من الحكمة والدلالة على آيات الله وبينانه ومنفعة البشر خيراً وأحب إلى الناس من المؤمن الذي لا يفعل من ذلك شيئاً .

وعلى هذا فلا تأثير على العلوم الكونية مما استفاض من طغيان تلك الأمم الكافرة بالله تعالى ، لأن الطغيان من غريزة البشر ، قال الله تعالى : (كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى) [العلق : ٦ ، ٧]

وإذا تأملنا إلى ماتوصل إليه الإنسان من الاكتشافات وتلك العلوم الجديدة ، علمنا أنها لم تكن إلا بسابق إنذار من الله تعالى ومن رسوله الصادق الأمين ﷺ ، وقد جاء ذلك كله في موضعين من القرآن والسنة .

الأول قوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء قدير) [فصلت : ٥٣] صدق الله العظيم ، وحل وعده ، وظهرت حكمته ، وبرزت آياته في الآفاق بالاكتشافات والمحاولات ، وفي أنفسهم في مجال التشريح والمكبرات النظرية .

الثاني : ماورد في القرآن العزيز عن تلك الأمم المنتجة (يأجوج ومأجوج) [الأنبياء : ٩٦] وماوعد الله عز وجل عن خروجهم ووصولهم إلينا وامتزاجهم بنا من حدوث الانقلابات الحسية والمعنوية التي تظهر على مسرح المجتمعات البشريه هنا وهناك من معجزات باهرة ، وقد فسرت السنة المطهرة

شيئاً من ذلك ، فقد ذكر ﷺ في قصة « يأجوج ومأجوج » قولهم عند تلك المحاولات الفضائية: «قهرنا أهل الأرض ، فهلمّوا نقهر أهل السماء، ثم يرمون بنشابهم إلى السماء » .

وقد أتينا على خبر « يأجوج ومأجوج » ومحاولاتهم الفضائية في كتابنا « دليل المستفيد على كل مستحدث جديد » . والخلاصة أن ماحدث على مسرح الحياة الانسانية من هذه العلوم الجديدة قد أخبرنا عنها القرآن والسنة منذ ١٣٨٩ سنة على لسان رسول الله ﷺ .

وإذا تأملنا هذا الكون ومحاولات الإنسان ، فإننا بذلك نأخذ العبرة والعظة فيما يتوصل اليه الإنسان في معلوماته المحدودة جملة وتفصيلاً ، وخاصة محاولاته عبر الفضاء ومتاهات الكون ، فهي بكلياتها وجزئياتها ضئيلة جداً في جانب ما أودع الله تعالى في مخلوقاته من العجائب والغرائب ، وإذا كنا نعلم هذا علم اليقين ، ونجد الايمان بالله تعالى يزداد في مجال العلوم الكونية التي ظهرت على مسرح الحياة الانسانية ، فلا يهمنا حينئذ كفر من كفر ، وجحود من جحد من أولئك المخترعين المنتجين، كما لا يهمنا شيئاً إنكار من أنكر الممكنات من أفراد المسلمين ،والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها الإنسان في أي زمان ومكان .

إذا علمنا موقف المؤمن البصير مما تقدم حول ماظهر على مسرح الحياة من العلوم الكونية ، فإننا سنأتي بنقولات من حقيقة العلم الحديث عن هذه المنطقة من هذا الفضاء الواسع ، وهي الجزء الثاني على ماسقناه .

ومن الأمور التي تدل على ضعف الادراك البشري لعظيم قدرة الله تعالى أننا نجد الكثير من الناس في مد وجزر حول ماتوصل إليه الانسان في هذه المجموعة الشمسية ، على الرغم من أن الإنسان حتى الآن لم يصل إلى نتائج إيجابية في غالب محاولاته ، ولا يزال في زاوية صغيرة من بحر خضم ، وبكلمة موجزة : قد وصل الآن إلى نتيجة مؤلمة ، وهي أنهم توصلوا إلى ما أمكن من إيجاد سفن فضائية كقواعد في الفضاء لإطلاق القنابل والصواريخ المدمرة لأعدائهم في الأرض هكذا فهم بنتيجة الأخبار .

وكثير ممن شذ بتفكيره ، وعدم إدراكه الممكنات ، يكذب بكل ما جاء من المعلومات السمعية مما أدركته الأجهزة في هذه الصواريخ والأقمار والسفن الفضائية ، ولاعبرة بأولئك ، كما لاعبرة بمن أطلق عنانه في قبول النقولات السمعية بلا قيد ولا شرط ، غير أن البصيرة السليمة هي الحكم في السمعيات والبصريات على حد سواء .

ولقد جاء في بعض الحصر لما أطلقه الغربيون والشرقيون من دول العالم المنتجة من الصواريخ ومن الأقمار الاصطناعية والسفن الفضائية أعداد كثيرة

جداً ، غير أن هذه مختصة باستطلاع الطبقات الفضائية ، وماجبلت عليه من طباع وما أودع الله فيها من أجزاء، وتأثير تلك الطبقات على الانسان وغير الانسان، وهي لاتخلو أيضاً من مناظير تكشف ما أمامها من الأجزاء الكونية .

وفي الجملة ، فالأقمار والسفن مختصة بالأمور السمعية والحسيـــة . أما النظرية ، فغالباً تدرك بالمراصد الأرضية الهائلة التي طوروها لتلك الأغراض السليمة المفيدة فيما صنعت له .

وإذا تأملنا ماتوصلوا إليه ،فإنه لاشك أنه الوصول إلى نتائج صحيحة ، وهم بعيدون كل البعد جحوداً منهم واستنكاراً للمبدإ الصحيح لهذا الكون وابتداعه ، وقد أثبتوا بمعلوماتهم التي يرونها حقاً أن بعض الأجرام الفضائية هي من مادة الأرض التي نحن عليها ، وأنها كانت في بادىء الأمر كتلة واحدة مع أرضنا ،ثم انفصلت عن بعضها ، وهذا ماجاء به القرآن العزيز في قوله تعالى: (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما)الآية[الأنبياء: ٣٠] وقد مر الكلام على هذا المعنى ، وهذا من معلوماتهم التي يقبلها العقل، ويصدقها النقل ، وقد أخبروا عن طباع بعض الأجرام الفضائية ، ومافيها من الجبال والبحار والأنهار ،وماتضمه من أجزاء ومساحات ، وغير ذلك مما يرونه بالمراصد الضخمة من فوق سطح الأرض ، وهذا ممكن لما توصلت اليه صناعة المكبرات والمقربات للأبعاد وتطويرها ، ومايلمسه الناس من نتائج المختبرات الطبية التي وجدت في كل مكان ، وفي الجامعات من المناظير التي تظهر بجلاء أجزاء

السوائل وتشخص المكروبات والجراثيم بسهولة ، وبصورة يلمسها كل أحد يطلب ذلك .

على أنني سأسوق في هذه النبذة القصيرة مايحضرني من كلام رجال العلم الحديث عن الأحوال الكونية وأبعادها وأجزائها وطباعها مايتيسر لي دون عزو إلى اسم شخص أو كتاب .

وما ذلك إلا أن لسان الحال يقول: (صدّق أو لاتصدق) والفكر سيأخذ مأخذه في كل منطق يبدو في صفحات الدراسات البشرية .

قال أحدهم : وقد أصبحت مسألة احتلال الكواكب القريبة منا ، والداخلة في نطاق مجموعتنا الشمسية ليست مجرد فكرة خيالية تجيش بخواطر الكتّاب والروائيين ، بل سيرى القارىء أنها حقيقة علمية قد لايمضي زمن طويل على تحقيقها ، وليس بالعجيب أن يجد الانسان له سبيلاً إلى الكواكب، ففي بعضها ظروف تشابه في طبيعتها كافة ظروف الأرض التي أنجبت الحياة وساعدت على تطورها ، وعلى ظهور الانسان ، ولامبرر لافتراض وجود الحياة على وجه الأرض فقط ، بل بالعكس قد يكون مصدر الحياة على الأرض في أبسط صورها مكاناً آخر في السماء ، أي قد تكون الجراثيم الأولى الحاملة للحياة قد تسربت إلى الأرض في زمان سحيق من تاريخها مخبأة بين ثنايا الشهب، أو مختلطة بالأتربة الكونية التي تقبل بلا هوادة من أعماق الفضاء ، ولماذا لايكون الأمر كذلك ... ألم تزدهر هذه الحياة أصلا في البحر ، ثم

غزت الأرض ، ثم كان منها البشر .اه .

قلت : يفهم من بعض هـــذا السياق عقيدة الدهرية في حقيقة الحياة البشرية على الأرض ، وإن كان صاحب هذا الكلام من الأمـة الاسلامية على حد مسماه .

ولا ريب أن عقول كثير من الناس تطغى عليها الدهرية الفاسدة وإن كانوا في مجموعة من تسمّوا بالمسلمين ، فأولئك جهال بنواميس الحياة البشرية التي جاءت بالنصوص الشرعية ، ولا تخالفهـا العقول السليمة ، فلا عجب من الهالك كيف هلك ، وإنما العجب من الناجي كيف نجا .

وما أورده الكاتب أول كلمته هذه ، فإن مصدرها التفرس في مستقبل تلك المحـاولات الفضائية ، ولئن قضت المقادير الربانية بأن يصل رجال العلم الجديد بقواهم العقلية والمادية التي دفعت بها إرادة الله عز وجل إلى ميـادين المغامرات في هذا الفضاء الواسع ، فإننا نقول : إن هذا من الممكنات ، والله على كل شيء قدير ، والكل في قبضته ، وتحت سطوته وقدرته وتقديره ، ولسنا نستنكر شيئاً من محاولة الانسان أياً كان نوعها ومكانها وزمانها في نطاق الإحاطة بشيء من مخلوقات الله عز وجل في الأرض والسماوات ، ولكننا نرد الأقوال التي يتحذلق بها غلاة المتنطعين بدهريتهم حيث يتجاوزون به الحق إلى الباطل ، ويضعون العلم الذي يدل الانسان على بارئه العلي القدير موضع التجاهل لما هو الحق الالزامي لبني الانسان .

إن العلم الحديث أثبت أن الفضاء له حالات تخالف حالة فضاء الأرض وما حولها ، والتوغل في الفضاء ينقل الإنسان من حال إلى أحوال .

فأحوال جاذبية الأرض تخالف الطبقات التي فوقها مما يلي أدنى الأجرام الفضائية ، وكل جرم له جاذبيته التي يسبح بها . والمنطقة التي تسمى بالمجموعة الشمسية على وجه العموم ، تتناسب في طباعها الفضائية تقريباً .

أما أحوال الفضاء فوق تلك المنطقة ، فإنها تنقل الحياة إلى كيف آخر ، وسيأتي قريباً .

فالطبقات الفضائية الدنيا فوق الأرض مشحونة بالأجزاء الكهربائية التي جعلها الله تعالى فاصلاً بين تلك الأجرام الكونية مع بعضها ومع الأرض، حتى كان اختراقها بسهولة غير ممكن إلا بما يلائمها من المركبات الصلبة مما تكون تلك المركبات في مأمن من المواد التي تذيب الأجزاء الصلبة ، وبدون ذلك فإن تلك الطبقات المشحونة بتلك المواد الكهربائيـــة تمنع الاتصال ، وحتى الموجات اللاسلكية ، فإنه لايمكنها اختراق تلك الطبقات .

وكانت المراصد التي قـــد ركبت على سطح الأرض لرصد الأجرام الفضائية على الرغم من ضخامتها ورصدها لأجزاء هائله في الفضاء ولكثير من الأجرام بحيث تراها بارزة بما فيها ، غير أنها لاتتمكن من معرفـة ما تحتوي عليه بصورة ظاهرة لما يلاقونه من اهتزاز تلك الأجرام ، فيحل هذا الاهتزاز بمجهوداتهم غالباً ، غير أنهم لاييأسون بحال أو بعارض ، فتلمح لهم لحظات في

بعض الأوقات ، فيلمسون ركوداً نسبياً يمكنهم من خلاله أخـــذ شيء من أحوال تلك المرئيـات الفضائية ، وهكذا شيئاً فشيئاً حتى يتمكنوا من حقائق إيجابية .

وهذا الاهتزاز الذي يحسون به،ماهو إلا من موج الأثـير في طبقـات الفضاء ، فمن هذه الأمواج ماتميزه العين المجردة ،كالضوء ، ومنها ماتدركه حاسة اللمس ،كالحرارة ، ومنها ماله تأثير على الخلايا الحية النباتية والحيوانيـة ، مثل الاشعاعات الشمسية، والأشعة الكونية عموماً ، مما يعلمه الانسان بالاكتشاف، ومما لا يعلمه ، لأن قولهم هذا هو مما توصلوا إلى اكتشافـه من أمواج الأثير ، والأكثر منها لم يصلوا اليه ، وخاصةماهو حول الأجرام الفضائية جملة وتفصيلا، لأنهم لم يصلوا إلى شيء من ذلك في الاكتشافات الذاتية .

وحيث تمثل المجموعة الشمسية نجوماًتعد بالملايين حسب الأمور النظرية بتلك المراصد الأرضية الهائلة ، فإن تلـــك المراصد أثبتت أن هناك مجرات متعددة مختلفة الأشكال والأحجام في أعماق الفضاء الفسيح ، فوق هذه المجموعة الشمسية تظهر متباعدة إلى أبعاد كبيرة .

ونراهم يقولون : إن البديهة تشير إلى أنها عوالم أخرى لا حصر لها ، بل ولا طائل لمعلومات الانسان تحتها ، ولا سبيل له اليها ، وحتى أضواء الكثير منها يلزمها آلاف بل ملايين السنين لتصل إلى سطح الأرض أو إلى حدود مجرتنـا أي المجموعة الشمسية ، وقد لاتصل بتاتاً .

وهذا العلم الذي ذكروه ،هو من العلوم النظرية التي توصلت اليها المراصد العظيمة ، وهم يرونها لامعة ، وهـذا الذي دفعهم إلى أن يقولوا بشك بوصول نورها إلى الارض .

وهذه أمور نعلم علم اليقين أنها من الممكنات التي هي جزء من قـدرة الله تعالى التي لاتحد بحدود ، فهي جزء قليـل من واسع ملكه (ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) [البقرة : ٢٥٥]

الجاذبيـــات

لقد كان من أمر الجاذبيات الكونية المحيطة بكل جرم من أجرام هـذا الكون مدلولات لها أبلغ الأثر في تقوية الإيمان بالصانع الأعلى جـل جلاله ، لأن تلك التصميمات التي اختارها الله عز وجل لهذه الأجرام في هذا الفضاء الواسع من تكييف الجاذبيات التي أحاطت بكل جرم في مكانه ، حيث أعطته مناعة هي من القوة والمنعة بصورة كافية لحمل هذا الجرم ، صغيراً كان أو كبيراً ، فهي مخلوقة له على قـدر ، وقد مر الكلام على ذلك في صفة السابح ، وقد كانت الجاذبية لأرضنا هذه قد اكتشفها بعض العلماء من العرب والمسلمين من قديم الزمن ، وكانت محل تفكير ، لأنهم قد عرفوا أن الأرض كروية معلقة في الفضاء ، فعلموا من هذا أن هناك جسماً لطيفاً قد أخذ مكانه من حول الأرض ، وقد أخذ يتفاعل معها بتقدير الله تعالى ، حتى بقيت باتزان كامل لايتبـــدل ولايتغـــير ، وقد مر مانقله القرطبي عن بعضهم في أحوال الجاذبية وكيفية

تماسك الأرض . والذي يفهم من أقوال رجال العلم الحديث أن الجاذبيات نوعان :

نوع عام ، ونوع خاص .

فالعام هو المركز ، وهو الشمس ، فإن لها جذباً عاماً لجميع المجموعة الشمسية ، لأن عموم هذه المجموعة تدور من حولها ، ومنها أرضنا هذه .

وهذا لو قلنا بصحته وقبوله لوجدناه من الممكنات . وأما قوله : تدور من حولها ، فإن هذا يعني أن أمكنة تلك الأجرام ومواقعها من هذا الفضاء حول الشمس ، واقع باتزان ، فكل واحد من تلك الأجرام يدور في مكانه ، وتكتسب أجزاؤه حظها من أشعة الشمس كما تكتسب أرضنا، وليس المعنى أنها تدور حولها كما تدور المحالة حول المحور الذي في وسطها ، وإنما كل جرم له مكانه من الفضاء ، غير أن الجذب آخذ مأخذه ، هذا هو معنى قولهم : إن هذه المجموعة تدور حولها.

ورجال العلم الحديث يسمون المجموعة الشمسية هذه ، بجرة واحدة من مجرات الفضاء .

قالوا : والكواكب التي تتبع شمسنا أجرام غير ملتهبة ، فالكواكب وأقمارها تعكس ضوء الشمس الساقط عليها ، كما تعكس المرآة الضوء بدرجات متفاوتة تتوقف على طبيعة سطوحها .

وهذا ظاهر معلوم يراه الإنسان رأي العين في هـــذا الفضاء الفسيح

الذي جعل الله للانسان فيه العبرة والعِظة (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وماتغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) [يونس : ١٠١]

أما النوع الثاني من الجاذبيات ، وهو النوع الخاص بالأجرام التي كل واحد على حدة، فقد سماها رجال العلم الحديث (بالقوة الطاردة المركزية) لأنهم يقولون : إن جاذبية الشمس لتلك الأجرام تتعادل مع القوة الطاردة لكل جرم بنفسه ، وهذا الذي أظهر الله عليه الانسان من علم الكون وطبائع الفضاء ، وكيف كانت الوسائل التي خلقها الله تعالى لتتماسك بها تلك الأجرام في هذا الكون الواسع ، حيث كان كل جرم فيها معلق في فضاء لايلتصق بأي محسوس ، وإنها من أكبر الأدلة القطعية على أن لها صانعاً جباراً عظيماً هو أعظم من كل شيء .

فهل هناك أحد من البشر له عقل يميز به الحقائق الكونية يقول : إن هذه الأجرام قد صنعت نفسها ، وصنعت لنفسها هذه الجاذبيات الخاصة والعامة، ووضعت نفسها في أمكنتها من هذا الفضاء الواسع كما يقول الدهرية، لقد أبعد النجعة من قال ذلك ، وشقي من كفر بالله وأنكر الحق وهو يرى ويلمس هذه الآيات البينات التي تخضع لها جميع الحواس تعظيماً وإجلالاً ، ولكن مثل هؤلاء كما قال تعالى:(وماتغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون)

ومن وجه آخر نقول : إذا كانت الحيرة والارتباك هي التي تلازم فهم كثير من إخواننا في استنكارهم كل ماظهر على مسرح الحياة من المسموعات جملة

وتفصيلا عن أحوال الكون ، مما دلنا دلالةقطعية على عظمة الجبار عز وجل ، كإنكارهم الجاذبيات ، وما أشبه ذلك ، فلا ريب أن من أنكر مثل هذا فهو غير سليم في مفهومه في منطوق العقل والشرع ، ولا يبرأ الانسان في إعراضه عن التماس مايزيد في إيمانه ويقوي من يقينه في المعلومات الكونية المسموعات والنظريات وفي الحس والمعنى ، غير أنه لايمكن الدفع بالمفاهيم البشرية إلا على ضوء الادراك في مصادر التفكير الذي به الأخذ والرد فقط .

جو الأرض

ومن عجائب صنع الله تبارك وتعالى الكيفيات التي وضعها تعالى بالفضاء الذي على سطح الأرض لتتمتع تلك المخلوقات الحيوانية بحياة مستقرة إلى أجل مسمى .

ولاريب أن جميع الأجزاء الكونية التي تحمل أجساماً حية فيها كما في هذه الأرض من الأجزاء التي تصلح الحياة ، ويجوز أن تتغير بمواد أخرى ، فهي لابد وأن تكون صالحة لحياة تلك الأجسام التي خلقها الله عليها ، فجو الأرض الخاص بها يقولون: إنه يمتد إلى أكثر من (١٠٠٠) كيلو متر ، وهو ينقسم إلى قسمين ، قسم مداه (٥٠) كيلو متراً، ويسمى : جو الأرض السفلي ، وقسم مافوق ذلك ، ويسمى : جو الأرض العلوي .

وأما جو الأرض العلوي ، فهو في الغالب لايعلم عنه حقيقة كافية ، فقد استعملت الوسائل لاكتشاف طباعه كالأقمار الاصطناعية والصواريخ ، وحتى

الآن لم يصلوا إلى معلوماته الحقيقية النهائية .

وأما جو الأرض السفلي ، فهو قد شحن بخليط من غاز الأوكسجين والآزوت بنسب متفاوتة من حيث الحجم ، وتختلط معها نسب أخرى بنسب قليلة متفاوتة .

وأساس الحياة كلها على وجه الأرض هو غاز الأوكسجين ، وإذا نظرنا إلى ماقاله العلماء من اكتشاف الحقيقة لمركبات الهواء الفضائي ، علمنا الحكمة الجبارة التي قداستكملت معاني الحياة ، فتطور منها الوجود الانساني والحيواني على اختلاف صوره وطباعه ، وعرفنا أن هذا الوجود قد تماسك بطباع جزئياته التي خلقها الله عز وجل لشأن عظيم .

فالانسان قد اكتشف هذه الأجزاء في فضاء الأرض ، وربما كان فيها أجزاء أخرى لم يصل أحد إلى اكتشافها حتى الآن .

وهذه الأجزاء بالإضافة إلى غاز الأوكسجين ، والآزوت ، مثل بخار الماء وثاني أوكسيد الكربون ، والآزون ، وغاز الأرجون ، والكرتبون ، والإيدوجين ، والهيلوم ، فهذه تسعة أجزاء منها ماهو ثابت وعنصر أساسي ، ومنها مايقل ويكثر ، ومنها ماهو ثابت النسبة كالثلاثة الأجزاء ، قالوا : والأوكسجين يذوب منه أجزاء في الماء ، وبذوبان هذا تستمد منه الحياة الحيوانات المائية ، وكذلك النباتات ، لأن الحيوانات المائية تستمد من مذاب الأوكسجين التنفس داخل الماء .

وذكروا من تفاعل هذه الأجزاء وكمياتها في جو الأرض كلاماً طويلاً لايتسع له المقام .

وذكروا من طباع الجو حينما نرتفع في الفضاء ابتداءً من ٣ كيلومترات فما فوق أحوال مهلكة عندما يعدم الراكب أنابيب الأوكسجين للتنفس ، وإذا ارتفعنا إلى عشر كيلو مترات ، فالوسيلة المثلى للحياة أن نكون داخل غرف محكمة الإغلاق يحتفظ فيها الضغط بقيمته ، أو بنسبته عند سطح الأرض ، فلو انفجرت هذه الغرفة ، وانعدم هذا التحفظ الملموس بمواد الحيـــاة ونحن في مسافة ١٥ كيلو متراً لايمكن أن يظل الإنسان واعياً لمدة تزيد عن (٣٠) ثانية فقط ، وأقلها (١٥) ثانية ، وكلما كان في مكان أرفع ، فإنها تقل المدة في وجود الحياة ، وكلما قل عن هذه النسبة زاد في وقت حياته عن هذا المقدار المذكور .

ويقولون : وعلى ارتفاع (٢١) كيلو متراً عند مايفقد غرفته التي توفرت فيها مواد الحياة ، فإنه يمكن أن يغلي الماء في درجة حرارة الانسان العادي ، قالوا : ويتحول الدم فجأة إلى سحابـــة حمراء تنبثق من سائر الجسم ، قالوا : والاشعاعات الشمسية تمتصها الأبخرة المائية على وجه الأرض ، وبخار الماء هو من المواد التي تركب منهـا جو الأرض ، وذكروا منافع الإشعاعات الشمسية في مناطق الأرض المختلفة الحرارة والبرودة ممـا جعل الله تعالى للناس بذلك مصالح ملموسة .

والأجزاء في طبقة الأرض الهوائيـة تنقسم إلى قسمين ، فالأوكسجين

مثلاً لازم لحياة مملكة الحيوان في البر والبحر ، أما الآزوت وثاني أوكسيد الكربون ، فهما يلزمان مملكة النبات ، أما الماء فهو ضروري لهما على السواء .

وهذه الاجزاء التي في فضاء ما فوق سطح الأرض ثابتة بحكم علم اليقين، فهي من عجائب صنع الله تبارك وتعالى ، ومن نتائج القضاء والقدر الذي حكم بوجود المخلوقات في البر والبحر .

السماء الزرقاء

إننا نرى من فوقنا سماءً زرقاء قدجعلها الله تبارك وتعالى جمالاً للناظرين في هذا الفضاء الواسع .

وان من المستفيض،كما أنه من الملموس عند رجال العلم الحديث،أن ما بين الأجرام الفضائية هو فضاء ومناطق هوائية ، كما أن ما بيننا وبين تلك الأجرام التي نراها في الآفاق كالشمس والقمر والنجوم فضاء غير ذي مادة صلبة .

فالذي ثبت عن طبيعة هذه الزرقة التي نراها من فوقنا أنها أجزاء صغيرة من الذرات ، قد جعلها الله تعالى في مكانها اللائق بها من فضاء الأرض المحيط بها ، وجعل الله عز وجل تلك الأجرام النيرة من ورائهـــا كالشمس والقمر والنجوم تعكس علينا من تلك المنطقة زرقة جميلة جذابة .

وثبت في العلم الحديث أن من تجاوز تلك المنطقة الهوائية من جو الأرض يفقد تلك الزرقة .

ومما يدل على ذلك أيضاً مايحدثه الله تعالى في الآفاق من ظهور مايسمى

بـ (قوس قزح) ذي اللون الأخضر والأصفر والأبيض، فهو يظهر في مناطق من السحب الخفيفة يعكسه ضوء الشمس، ولا يكون إلا بالسحب الخفيفة الشفافة ، فسبحان من خلق كل شيء فقدره تقديراً .

الأقمار الاصطناعية

الأقمار الاصطناعية هي رصد الظواهر الطبيعية في الأجواء الكونية التي تصل اليها ، وكانت الأقمار الاصطناعية السابحة في طبقات الفضاء وفي جاذبية خاصة في المدار الذي تصل اليه تلك الأقمار الاصطناعية ، قد قدرت سرعة هذا القمر في مداره بـ (١٥٠٠٠) ميل في الساعة ، والمدار الذي يصل إليه القمر ويدور فيه بهذه السرعة لايمكن أن يصل إليه القمر الاصطناعي بدفع صاروخ واحد ، وإنما بدفع صاروخ كبير تنطلق منه على ارتفاعات متتالية صواريخ أخرى عديدة ، على أن هذا القمر الاصطناعي هو كرة في داخله مولّد يدور من تلقاء نفسه يدفع به تلقائياً ليأخذ السرعة اللازمة .

فإذا كان ارتفاعه في مسافة (٢٢٠) كيلو متراً فوق سطح الأرض ، فان القمر لايستطيع البقاء اكثر من يوم واحد .

وأما إذا كان ارتفاعه (٤٢٠) كيلو متراً، فمن المقدر أن يظل يسبح حول الأرض سنة كاملة ، وتصل أغلب المعلومات العلمية التي يجمعها القمر الصناعي بواسطة اللاسلكي ، وذلك بارسالها من أجهزة مركبة فيه تقبلها محطات خاصة على سطح الأرض لتأخذها أول فأول .

صواريخ الفضاء

الصواريخ هي في مسماها أرضية وفضائية ، ونحن الآن بصدد الكلام عن الصواريخ الفضائية الجبارة ، فهي في عموم أحوالها أعظم وأضخم بكثير من الصواريخ الأرضيه .

قالوا : وأقدم صاروخ استخدم في العالم هو الصاروخ الصيني المعروض في المعرض العسكري في (بكين) ، وقد صنع هذا الصاروخَ ضابطٌ صيني بحري منذ (٩٦٩) سنة ، ولا ريب في أن تطور الصناعة الجديد قد طور صناعة الصواريخ إلى حدود هي من عجائب الزمان ، فهي تصنع من معادن خاصة ، وسبائك تقاوم درجات الحرارة العالية ، وتحمل داخلها عقولاً ألكترونية ، وعدسات فلكية ، وعيوناً كهربائية ، يباشرها علماء الأرض ويديرونها من سطح الأرض .

العقل الألكتروني

يكون العقل الألكتروني عادة في المقدمة على كثب من أنف الصاروخ ، وهذا العقل الصناعي جهاز يتألف من مجموعة ضخمة جداً من الصمامات الكهربائية والمقاومات والمكثفات ونحوها ، يوصل بينها أسلاك دقيقة كأنها الشعر ، وهي تبدو في مجموعها كأنسجة المخ ، وتقوم الصمامات الألكترونية والمكثفات مكان الخلايا المخية ، وتؤدي الأسلاك عمل الأعصاب .

ويعمل هذا العقل بمؤثرات الضوء والحرارة والجاذبية ، والمجالات

المغناطيسية ، والزمن والحركة من حيث الاتجاه والسرعة ، وكافة أمواج الأثير وبهذا الجهاز يمكن الصاروخ أن يتلمس اتجاهه عبر الفضاء بواسطة النجوم والكواكب ، لأنها توجه مناظر فلكية صغيرة من أنف الصاروخ إلى مجموعة من النجوم ، ويظل مركزاً عليها خلال تحركه ، ويمكن أيضاً أن تصدر الأوامر من الأرض أو من أي مركز آخر إلى ذلك العقل بواسطة أمواج الاثير المختلفة الطول والصفات ، ومحركات الصاروخ آلات صغيرة ، إلا أنها من القوة بحيث تستطيع تسيير أساطيل من السفن عابرة المحيطات ، ويجري اختبار هذه الصواريخ وراء حواجز مسلحة بالحديد ، يبلغ سمكها عدة أمتار ، وتندلع من هذه المحركات ألسنة من اللهب تصحبها أصوات صاخبة لا يمكن تحملها ، ونغمات وصفير حاد ينفذ إلى القلب والمخ في صورة خناجر حادة . أما اللهب فيتغير لونه بتغير نوع الوقود المستخدم .

وانطلاق مثل هذه الصواريخ إنما هو نتيجة طبيعية لاندفاع الغازات من مؤخرته ، وتتم هذه الصورة بأعظم أحوالها في أعماق الفضاء ، وانبثاق الغازات هي التي تحدد قوة الصاروخ وسرعة اندفاعه في الفضاء ، فيضغط الغاز داخل مخازن أو أسطوانات قوية الجدران جداً ، يتسرب منها الى مخازن ضيقة المنافذ ، ونظراً لسماكة تلك الجدران يكون وزن الصاروخ عادة كبيراً ، وكلما كانت الحاجة إلى الوقود أكثر كبرت غرف المخزن وعظم وزنها ، وتأتي هذه كلها لطول مسافة الصاروخ في الفضاء ، أما طول جسم الصاروخ ، فتصل بعض الصواريخ إلى (٤٦) قدماً . ووزنه إلى (١٤) طناً عندما يملأ

بالكحول المشتعلة والاوكسجين السائل .

وتقدر السرعة اللازمة للصاروخ أو السفينة للتخلص من جاذبية الأرض عند سطحها بنحو (٢٥) ألف ميل في الساعة ، وكلما ابتعد الجرم المنطلق عن الأرض ، خف خطر الجاذبية ، فعلى ارتفاع (١٠٠٠) ميل مثلاً تقل السرعة اللازمة للنفاذ إلى الفضاء الكوني عن ذلك كثيراً ، والصاروخ نوع من النفاثات ، يحمل كل المواد اللازمة للحركة ، ويستعمل غالباً الوقود السائل في محركاته ، مثل البترول ، والبارفين ، والكحول كمصدر للطاقة ، يجوز استخدام الطاقة الذرية كمادة مشتعلة في تسييره ، وأول ماحدث من استعمال الصواريخ الحديثه لأقطار الفضاء الصاروخ (ف ٢) الذي أخذه الأمريكيون من الألمان ، وقد صنعه الألمان لضرب الجزر البريطانية ، ولما استحوذ عليه الأمريكيون استخدموه في رصد وتسجيل كثير من خصائص الطبقات العليا ودراستها ، ففي عام١٩٤٥ أعدت البحرية الأمريكية قاعـــدة لاطلاق الصواريخ المجهزة بأجهزة معينة لرصد الطبقات العليا ، فوصلت إلى ارتفاع شاهق ، وأطلقوا هذا الصاروخ سنة ١٩٤٦ ، فوصل إلى ارتفاع نحو (٢٠٠) كيلو متراً عن سطح الأرض.

الشهب

قال عنها العلم الحديث : إن مما يعكر صفو المجموعة الشمسية بحالة تكاد تكون مستمرة ، تلك الأجسام المادية الصغيرة المختلفة الحجوم ، المعروفة باسم الشهب ، ثم النيازك ، وأغلبها كتل من المعدن أو الصخر ، وقد تصل سرعة

تحرك بعضها إلى ٤٥ كيلو متراً في الثانية الواحدة ، وهي السرعة اللازمة لخروج أي جسم من نطاق المجموعة الشمسية بأسرها ، وإن شهاباً واحداً وزنه جزء من ألف جزء من الغرام الواحد ، عندما يتحرك بهـــذه السرعة تعادل قوة انطلاقه القوة التي تصحب انطلاق رصاص البنادق العادية ، وإن حجم مثل هذا الشهاب قد لايزيد عن حجم حبة رمل ، ومع ذلك فخطره المباشر إذا أصاب الانسان لايقل عن خطر الاصابة بقذيفةنارية ، وتهوي آلاف الملايين من مثل هذه الشهب إلى جو الأرض العلوي ، ولكنها سرعان ماتحترق أو تتبخر نتيجة الحرارات العاليةالتي تتولد إثر احتكاكها بالهواء ،ولذلك قلما تصل إلى الأرض، ولقد سقط قديماً أحد الشهب في أمريكا ، وأحدث هوة عميقة جداً بلغ قطرها أكثر من ميل ، وزاد عمقها على (٢٠٠) متراً، وتناثر بعد اصطدامه هذا أجزاء بعيدة المسافات من حافة الحفرة ، كما سقط شهاب عظيم في سنة ١٩٠٨ في سهول سبيريا وسبب تلفاً عظيماً في دائرة نصف قطرها نحو (٤٠) كيلو متر ا ، وعلى ماصح ، فإن الغلاف الجوي للأرض يحمي الأرض من أخطار هذه الشهب ، إلا عندما يكون الشهاب كبيراً ، كما حصل في سبيريا وفي أمريكا .

وهذه الشهب في مجموعها مصدر من أكبر مصادر الأخطار على المسافر عبر الفضاء ، أي خارج جو الأرض ، وهذا كله يشهد لما جاء في القرآن العزيز حيث ذكر تعالى الشهب في القرآن فقال : (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس) [الرحمن : ٣٥] فهي مختلفة المادة والنوعية بنص القرآن العزيز .

وهي آية من آيات الله تعالى يرسلها على من شاء من خلقه، وقدمنا الكلام في أنها تنفصل من النجوم، والنجوم على ما هي عليه في قول رجالات العلم الشرعي، فسبحان من له في خلقه شؤون .

الفضاء وتغير الزمان بالمكان

من الأحوال الكونية التي توصل اليها العلم الحديث مما له شأن كبير في نفس المسلم مما أحاط به البشر ، ظاهرة تغير الزمان بالمكان ، وطالما كان هذا في طي الغيب ، وقد نزل به القرآن العزيز بصريح لفظه حيث قال الله عز وجل: (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) [الحج : ٤٧] .

هذه الآية الكريمة قد تأولها المفسرون رضي الله عنهم من سلف المسلمين وخلفهم أربعة تأويلات .

قال القرطبي : قال ابن عباس ومجاهد : من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض .

وقال عكرمة : يعني من أيام الآخرة .

وقيل : المعنى : وإن يوماً في الخوف والشدة في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا .

وقال الفراء : هذا وعدلهم بامتداد عذابهم، أي يوم من أيام عذاب الآخرة كألف سنة .

هذه أربعة أقوال فيما تأولها علماء السلف ، والكل صحيح مقبول ،لأنه محتمل لمضمون الآية الكريمة .

والتأويل الخامس : هو معني تغير الزمان بالمكان ، حيث إن يوماً من أيام السموات العلى كألف سنة من سني الأرض مما نعد ونلمس ، وقد يفهم المرء من لفظ الآية أنها قد تضمنت الوعيد الشديد فقط بالمعنى الذي تأول به الآية أهل العلم في القولين الأخيرين ، غير أن تفسير ابن عباس ومجاهد لمعنى الآية ، لايدل على الوعيد، كما هو ظاهر ، فعلمنا بذلك أن الآية من مقاصد التأويل ، فقد قال فيها علماء السلف تأويلهم،ونحن الآن نأخذ من تأويلها أيضاً معنى لما جاء في المحسوسات البشريه عن الأحوال الكونية .

ولقد أثبت العلم الحديث أن الزمان يتغير بالمكان ، والمعنى : إن الناس أو بصورة أصح : إن الذي يصعد في الفضاء الأعلى وذلك ابتداء من اجتياز الرحلة لجاذبية الأرض ، فإنهم يجدون كل شيء يتحرك بنفسه إذا لم يكن مثبتاً بالسفينة الفضائية أو مايماثلها ، فكل جسم حي ، أو جماد غير مثبت ، فإنه يبدأ بالحركة وبالتغير من مكانه ، فجميع ماهو داخل السفينة يتبعثر ويتعذر المشي على الركاب ، إلا أنهم يتحركون بسحب أجسامهم سحباً على جدران السفينة ، أو على السقف أو القاعدة ، وقد يلتصقون بالجدران أو بالسقف .

وبالجملة فان كل شيء قد فقد منه التوازن الاعتيادي في جاذبية الأرض .

أما الوقت وإدرا كه،فان ساعاتهم التي كانو يحملونها معهم من الأرض ، لايجدون لتوقيتها معنى ، لأن الأشياء التي تتحرك حركات بـــدون اتزان ، تتطور بحركاتها مع الزمن الذي أخذ يتغير بتغير المكان .

ويضربون لذلك مثلاً فيقولون : لو أن قطاراً يسير بسرعة الضوء ، فإنه لايمكن بحال أن يفقه أهله فكرة الزمان ، إذ يتحرك كله بالنسبة اليهم إلى مكان ، فمثلاً إنك تنظر إلى عقارب الساعة لتحسب الوقت ، ومعنى ذلك أن عقارب الساعة تسير بسرعة الضوء ، فهي وأنت والقطار على حـــد سواء ، تسيرون بسرعة الضوء أبد الدهر ، فلا تحس بزمن يمضي عليك ، كما لاترى من الساعة مضي زمن .

ويقولون : إن هذا الاستمرار بتغير الزمان بالمكان يمتد في الفضاء حتى تمتد أيامه امتداداً باهراً .

وهذه الظاهرة تبدأ بعد أن يتجاوز المسافر المجموعة الشمسية ، وتنفصل من رابطتها وحدوها ومجرتها بأسرها ، إذ لايكون هناك أيام محدودة بطلوع الشمس وغروبها ، وإنما يلمس الوقت بالتباطىء الحسي ، والعلم الحديث يثبت هذه الظاهرة التي يطول بها الزمان بارتفاع المكان في الفضاء الأعلى ، فتكون الساعة هناك كأيام من أيام الأرض ، ثم تكون كشهور ، ثم تكون كسنين ، وهكذا حتى تنتهي إلى أن اليوم الواحد الذي نعده اثنتي عشرة ساعة تقريباً ألف سنة من سني الدنيا على وجه الأرض ، وهكذا كلما ارتفع المكان

اتسع الزمان .

غير أن هذه الظاهرة لايصل إليهــا الانسان إلا بقوة يسير بهـا في الفضاء الخارجي بسرعة الضوء ، وهي (٣٠٠) ألف كيلو متراً في الثانية الواحدة .

فالتوصل إلى هذه القوة يستبعد أن يتوصل إلى اختراعها الانسان ، وقد قرر ذلك أكثر رجال العلم الحديث وقالوا : إنه من ضرب المحال .

وهذا كله يثبت لنا أن هناك سموات غــير هذه المجموعة الشمسية فيما يسميها العلم الحديث ، وقد سماها الله سبحانه وتعالى سبع سموات .

وإذا نظرنا بعين الاعتبـار إلى ماقالوه من تحرك الأجزاء التي تبقى غير موثقة في سفن الفضاء بعد تجاوز جاذبية الأرض ، فلعل هذه الظاهرة تكون عقبة في طريق السفن الفضائية كلما ارتفعت بمحاولاتهــا في الفضاء فوق تلك المناطق ، لأن هذه الظاهرة تتضاعف إلى حدود تجعل الأجسام المنطلقة تتفتت من شدة الضغط الخارجي ، بالاضافة إلى السرعــة المذهلة ، التي يرونها لازمة لمثل هذا الفضاء البعيد .

ولا ريب أن هذا الذي أظهر الله عليه عباده من طباع الفضاء ، هو من عجائب صنع الله عز وجل ، بل هو ظاهرة أطلع الله عليها عباده تعجيزاً وإرغاماً للجبلة القاسية للاعتراف بالعجز والتقصير ، وضعف هذا الجنس البشري أمام هذا الكون الواسع .

ولايمكن بحال أن يقول العقل السليم : إن ما أدركة الانسان من علوم الكون هو بادرة قوة وقهر ومقدرة خارقة ، وإنما الحق أن يقال : ماهو كله بما أوتيه من قوة حسية أومعنوية إلا كنقطة من ماء في البحر المحيط الهائل، غير أن ما أوتيه الانسان كل الانسان بمثابة سبيل معبد ليضع المسلم في قرارة نفسه إيماناً بالله تعالى يزيد بكل حركة أو سكون في دنيا الانسان (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء قدير) [فصلت : ٥٣] .

خاتمة لهذا البحث

نتائج العلم الحديث الصحيحة الثابتة الحسية والمعنوية التي ظهرت على مسرح المعلومات البشرية ، ماعلمنا منها ومالم نعلم ، ماظهر وما سيظهر ، لاتخرج بحال عن حقائق قطعية .

الأولى : أنها بمجموعها من نتائج القضاء والقدر ، ومن أخرجها عن هذا الأصل ، فإنه جاهل فاسد في باطنه وظاهره .

ثانياً : أن لا يغيب عن بال أحد من الناس مامر في القاعدة الرابعة أول الكتاب وهي : أن النصوص الشرعية لاتخالف ماثبت ملموساً من المحسوسات والمعنويات النظرية والسمعية ، وأن من قال بمخالفتها لشيء من ذلك، فإنه جاهل أحمق فاسد العقل والدين .

ولذلك نقول : إننا نؤمن إيماناً قاطعاً بهذا ، وان أولئك البشر الذين

علموا من أحوال الكون وأجرامه وطباعه وأبعاده ، فإنهـــا معلومات ثابتة لديهم وإن لم تكن ثابتة عندنا ، فإنها بمجموعها لا تتنافى مع النصوص الشرعية، فهي إما أن تكون مما صرح بمعناها لفظ النصوص ،وإما أن تكون مما سكت عنه النص ، بحيث إنها مما لم يرد بمنطوق ولا مفهوم صحيح مخالفتها ، وهـذا هو الحق الذي ندين الله تبارك وتعالى به،ويجب أن يدين به كل مسلم .

ثالثاً : أن أكثر ماظهر على مسرح المجتمعات من نتائج العلم الحـــديث والاكتشافات الفضائية ، ومحاولات الوصول إلى شيء من أجرام الفضاء خاصة ما علمناه من هذا العلم ، إن ذلك كله من الممكنات ، ولم يأت فيها شيء يخالفه نص بمنطوقه أو بمفهومه الصحيح ، بل كلها عند التأمل والتفكير السليم لا تخالف النقل والعقل بحال ، وكل ماكان من الأمور الممكنة عقلاً وشرعاً ، فانه محتمل الوقوع باذن الله ، والله على كل شيء قدير .

وليس معنى ذلك أننا نؤمن بما جاء به أولئك الرجال من العلم الحديث بلا قيد ولا شرط ، وإنما العكس ، وإذا كان الحق أن القاعدة فيما قاله رجالات السلف والخلف من علماء الإسلام أن كلاً يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، فكيف الحال بأولئك الكفرة الفجرة ، وإنما نأخذ بهذا المبدإ الذي أتينا عليه ، لئلا يفهم الملحدون من الناس أن أولئك الرجال بما أمكنهم باذن الله من إدراك بعض العلوم الكونية قد أتوا بجديد على منطوق القرآن العزيز والسنة المطهرة ، أو على مفهومها المفهوم الصحيح السليم .

كما ينبغي أن يعلم أن من تحدى فهمه للممكنات ، فتصدى لإنكار ماجاء به العلم الحديث من ذلك واستنكره ورده جملة وتفصيلا مستدلاً على ذلـــك بمافهمه هو من النصوص الشرعية ، فإن ذلك كله محـدود بفهمـه فقط ، لا من قبيل حقيقة النصوص الشرعية، لأنهالاتخالف المحسوسات،ولاتحيل الممكنات، وعلى هذا ، فإن المخالفة قدجاءت من جهة المفاهيم البشرية المتباينة ، ولا عبرة بمثله ، وقصارىما هنالك أنه اجتهادفي هذا المقصد ، والله ولي التوفيق .

الثالث من الأجزاء الكونية

هذا بحث يختص في ذكر السموات العلى التي تحيط بالمخلوقات والتي مر ذكرها في جزئي الكون ، وقد ذكر الله تعالى السماوات بالاجمال والافراد في مائتين وثمانين موضوعاً من كتابه العزيز ، كما مر ذكره .

فهذه السموات العلى سبع سموات ، واحدة فوق الأخـــرى ، وبينهما مسافات ، وفوق هذه الكرسي ، وفوق الكرسي عرش الرحمن عزوجل ، وكل واحد منها محيط بما دونه إلينا من المخلوقات،هكذادلت الأدلة الثابتة،وعلى هذا الأساس نورد الأدلة الكافية إن شاء الله تعالى ، وقد تقدم أن هـــذه السموات العلى لايجوز الاجتهاد والمبالغة في تأويل النصوص الواردة في أحوالها وأوصافها ، مما يلوح للمرء من المفاهيم والآراء ، وإنما الحق أن يكون إثبات ذلك بحدود النصوص الصريحة من القرآن والسنة أو الآثار النيرة أو تأويل من من أول من علماء السلف إذا كان ظاهر الدلالة ، وعلى هـذا الأساس ، فـان

السموات العلى تتباين مع ما دونها من المخلوقات الكونية مادة وكيفاً، والله اعلم.

المادة

ثبت أن السموات العلى خلقت من بخار الماء، فهي أول ما خلق الله تعالى، وقد مر الكلام في ذلك أول البدإ في ذكر الكون.

وأما ماسواه، فانه خلق من الماء، حيث إن الله قد جمده وسواه أرضاً، ثم فتقها فصارت أجزاء لا يعلم عددها وحدها إلا الله تبارك وتعالى، وقد مر الكلام في ذلك بما فيه كفاية، فعلمنا بما ثبت من النقل الصحيح أن مادة السموات العلى هي بخار الماء. أما عرش الرحمن عز وجل، فلم يرد نص عن مادته، لأنه قد خلق من قبل، فالله اعلم.

عدد السموات وكيفها

قال الله تبارك وتعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزّلُ الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) [الطلاق : ١٣]

وقد مر ذكر الآية وما قاله العلماء في تأويلها في ذكر سبع أرضين أول الكتاب.

قال القرطبي في هذه الآية: ولا خلاف في السموات أنها سبع بعضها فوق بعض، وقد دل على ذلك حديث الإسراء وغيره. انتهى.

قلت قد أثبت القرطبي أنه لا خلاف بين العلماء في أن السموات سبع ، بعضها فوق بعض ، ودليلهم حديث الإسراء ، وهو واضح أنه يصف السموات العلى التي هي مقر الملائكة والملكوت ، والتي تتباين مع تلك الأجرام التي نراها من فوقنا والتي قد جاء وصفها في القرآن، كما قال تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) [نوح : ١٦ ، ١٧] فلا تحتاج إلى اتفاق العلماء، فتبين بهذا أن هذا الاتفاق من علماء الإسلام كان على كيف السموات العلى .

● وقال البيضاوي والخازن في قوله تعالى : (ومن الأرض مثلهن) أي بالعدد انتهى .

وهذا يفيد مخالفة السموات العلى للأرضين السبع في الكيف ، لا في العدد ، وهذا ظاهر من إثبات علماء الإسلام لكيفية السموات العلى ، بأنها محيطة بالمخلوقات واحدة بعد واحدة ، وأما الأرضون ، فلا ريب أنها أجزاء مجزأة لما مر تصحيحه من أحوال سبع أرضين ، ويكفينا دليلاً على ذلك ما كان محسوساً من أرضنا ، لأنها جزء قليل في فضاء واسع .

وحيث إن السموات العلى هي مقر الملائكة ، فإنه لم يرد في الأخبار ولا في الآثار ما يدل على أن في السموات العلى مخلوقات حية غير الملائكة .

ولما كانت عالية ومحجوبة عنا ، فإنه لم يرد أي نص شرعي يتضمن الدعوة من الله تعالى أو الرغبة منه عز وجل أن يحاول خلقه في هذه الأرض أن يعلموا

عنها أي شي في مجال الحسيات والنظريات على حد سواء ، لأن إدراك شيء عنها في مقتضى هذه الأمور ، ضرب من المحال ، لذلك فإن البشر كل البشر بعد محمد ﷺ تنحصر معلوماتهم في السمعيات عن تلك المنطقة من الكون .

ومن الأدلة السمعية من ألفاظ القرآن التي تدل على ماشرحناه كثيرة جداً نأتي على بعضها .

منها قوله تعالى : (إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت) إلى قوله تعالى : (وإذا السماء كشطت) [التكوير : ١ ـ ١١] فيؤخذ من سياقه عز وجل أنه تعالى ذكر ما حل بمنطقة الشمس والنجوم من التكوير والانكدار ، ثم ذكر عن السماء بأن نصيبها في ذلك الوقت هو الكشط ، فدل ذلك على أن هناك سماءً غير السموات السبع التي جعل الله فيهن القمر نوراً وجعل الشمس سراجاً ، وهي مجموعة النجوم من فوقنا ، وأن تلك السماء التي كان نصيبها الكشط تغاير صورة المنطقة الشمسية ، ولأن الكشط لايكون إلا للمحيط الأعلى ، كما قال القرطبي عند ذكر هذه الآية : قوله تعالى : (وإذا السماء كشطت) قال: فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره ، وكشط البعير كشطاً : إذا نزع جلده ، ولا يقال : سلخته ، لأن العرب لاتقول في البعير : إلا كشطته. وقال في قوله تعالى : (وإذا النجوم انكدرت) [التكوير : ٢] وروى الضحاك عن ابن عباس قال : تساقطت ، وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض .اهـ.

وهذا يدل على أن السموات العلى هي فوق منطقة النجوم التي نراها .

ومنها قوله تعالى :(إذا السماء انفطرت • وإذا الكواكب انتثرت) [الانفطار : ١ — ٢]

قال القرطبي : أي تشققت بأمر الله لنزول الملائكة ، كقوله تعالى : (ويوم تَشقّق السماء بالغمام ونُزّل الملائكة تنزيلاً)[الفرقان:٢٥]وهذا يدل على أن السموات العلى هي المعنية بذلك ، لأنها هي مقر الملائكة .

ومنهاقوله تعالىفي[سورة الرحمن ٥-٧] (الشمس والقمر بحسبان.والنجم والشجر يسجدان والسماء رفعها ووضع الميزان) فإنــــه عز وجل لما ذكر الشمس والقمر والنجوم والشجر في مخلوقاته ، قال بعد ذلك : (والسماء رفعها) في هذا السياق مايدل على أن الله تعالى رفع السموات العلى فوق تلك المنطقة التي ذكر فيها الشمس والقمر والنجوم،وقد نقل ابن كثير أن الراجح من أقوال العلماء أن الله تعالى يعني النجوم التي في السماء .

قال البيضاوي في تفسيره : (والسماء رفعها) أي جعلهـا مرفوعة محلاً ومرتبة ، فإنها منشأ أقضيته ومتنّزل أحكامه ، ومحل ملائكته . ونقل النسفي في تفسيره معنى ماقاله البيضاوي .

ومنها قوله تعالى : (وكل في فلك يسبحون) [يس : ٤٠] قال القرطبي في تفسيره بعد أن ذكر كلام بعض العلماء عن المراد بالفلك هنا : والأصح أن السيارات تجري في الفلك ، وهي سبعة أفلاك ، دون السموات المطبقة التي

هي مجال الملائكة وأسباب الملكوت ... إلى أن قال : قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجوم والشمس والقمر ، وهي بين السماء والأرض ، ثم قال : وقيل : الفلك موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه

وقال البغوي في تفسيره بعد أن ذكر كلاماً عن الفلك : وقال آخرون من أهل العلم : الفلك موج مكفوف دون السماء ، تجري فيه الشمس والقمر والنجوم .اهـ.

قلت : وهذا يؤيد ماجاء بلفظ الخبر في حديث أبي هريرة الذي سيأتي قريباً أنه قال ﷺ لأصحابه : « هل تدرون مافوقكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ ، وموج مكفوف » ثم ذكر السموات من فوقها .

ومنها قوله تعالى : (ومايعلم جنود ربك إلا هو) [المدثر : ٣١]

قال القرطبي : قال الأوزاعي : قال موسى: يارب مَنْ في السماء ؟ قال : ملائكتي ، قال: كم عددهم يارب ؟ قال : اثنا عشر سبطاً ، قال : كم عدة كل سبط ؟ قال : عدد التراب ، ذكره الثعلبي .اهـ.

وهذا القول يدل على أن السموات العلى سكانها الملائكة فقط ، كما جاء في الخبر عند الترمذي عن النبي ﷺ : « أطت السماء وحق لها أن تئط، مافيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى » ذكره القرطبي عند تفسير الآية .

وفي « الفتح الكبير » فيما رواه ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أ ّطت السماء وحق لها أن تئط ، والذي نفس محمد بيده مافيها موضع شبر إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبح الله ويحمده » .

ومن الأدلة القطعية أيضاً على أن منطقة الشمس والقمر غير السموات التي هي مقر الملائكة ومصدر الملكوت ، أن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه المنطقة التي جعل القمر فيهانوراً والشمس سراجاً ، وحددهابأنها سبع سموات ، أما السموات العلى ، فإن نورها يخالف تلك المنطقة .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية بعد أن ذكر حديث أبي موسى الذي سيأتي: قال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولانهار ، نور السموات من نور وجهه . اهـ .

قلت : وهذا الوصف لايتطرق إليه ابن مسعود رضي الله عنه اجتهاداً .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : « إن الله عزوجل لاينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع اليه عمل الليل قَبْل عمل النهار ، وعملُ النهار قَبْل عمل الليل ، حجابه النور ، لوكشفه لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه » رواه مسلم وابن ماجه .

قلت : ولو لم يكن من الأدلة الصحيحة التي تثبت أن هناك سبع سموات مطبقة من وراء تلك المخلوقات المجزأة في الفضاء أجزاء إلا هذا الحديث لكفى ،

وهذه الصورة التي قد تضمنها الحديث هي من صفات الجبار عزوجل التي أجمع عليها أهل السنة والجماعة .

ونور ذاته المقدسة لايقوم لها شيء من خلقه الذي هو فيما بيننا وبين حجابه ، فالسموات العلى نورها من نور الله تعالى ، بينما خلق لخلقه الأدنى نور الشمس والقمر ، وهكذا إذا كان هناك مجرات أو مجموعات من الأجرام التي لا نرى لها نوراً لبعدها ، فان لها نوراً كما شاء سبحانه وتعالى .

والذي ثبت فيما ذكره أكثر أهل العلم أن أحداً من البشر لا يمكن بحال أن يرى الله عزوجل في الدنيا ، حتى رسول الله ﷺ .

وقد جاء في « صحيح مسلم » أن أبا ذر سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال ﷺ : «نور أنّى أراه ؟» وفي رواية: « رأيت نوراً » .

وهذا ينفي رؤيته ﷺ لذات الله عزوجل ، وقد قال سبحانه وتعالى عن ذاته : (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) [الانعام : ١٠٣]

قال القرطبي : واختلف السلف في رؤية نبينا ﷺ ربه ، ففي « صحيح مسلم » عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ماهنَّ؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست

فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل : (ولقد رآه بالأفق المبين) [التكوير : ٢٣] (ولقد رآه نزلة أخرى) [النجم:١٣] فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال : «إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عِظَمُ خَلْقه ما بين السماء إلى الأرض»، فقالت: أولم تسمع أن الله عز وجل يقول: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ...) الآية [الأنعام : ١٠٣] أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : (وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسلَ رسولاً فيوحيَ باذنه ما يشاء إنــه علي حكيم) [الشورى : ٥١] ... الحديث .

قال القرطبي : وإلى ماذهبت اليه عائشة ذهب ابن مسعود ، ومثله عن ابي هريرة ، وقال بانكار الرؤية جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين ، وعن ابن عباس أنه رآه بعينيه ، هذا هو المشهور عنه ، وحجته قوله تعالى : (ما كذب الفؤاد ما رأى) [النجم : ١١] ثم ذكر القرطبي من قال بقول ابن عباس ، وعد جماعة من العلماء ، وقالوا : إنه من الممكنات . وقال الآخرون : إنه ليس من الممكنات في الدنيا ، كما روي عن مالك بن أنس ، قال : لم ير في الدنيا ، لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني ، فاذا كان في الآخرة رزقوا أبصاراً باقية رأوا الباقي بالباقي .

قال القرطبي بعد أن ساق كلام مالك هذا ، قال القاضي عياض : وهذا

كلام حسن مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة .

قال القرطبي : وقال جماعة منهم أبو العالية والقرظي والربيع بن أنس : إنه إنما رأى ربه بقلبه وفؤاده ، وحكي هذا عن ابن عباس أيضاً وعكرمة . وقال أبو عمر : قال أحمد بن حنبل : رآه بقلبه ، وجبن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار . انتهى .

قلت : وقوله ﷺ : «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الانبياء» فيه دليل على أن الأنبياء قد وهبهم الله تعالى مادة في أبصارهم وأسماعهم وإفادتهم غير ما خلق الله تعالى فيما سواهم من البشر ، لأنهم يبصرون ويسمعون ويعون في إفادتهم مالم يدركه سائر البشر ، ومن الممكنات أن تلك القوى يمكنها النظر إلى وجه الجبار عزوجل في الدنيا ، غير أنه لم يرد نص يدل على هذا لا يحتمل التأويل ، والأدلة ظاهرة بعدم الرؤية ، فالله أعلم وأحكم .

ومن الأدلة ماورد في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة، وقد مر نصه في ذكر الأرض قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «هل تدرون مافوقكم؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال: «فإنها الرقيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف، هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ خمسمائة عام » ثم قال: « هل تدرون مافوق ذلك؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن فوق ذلك سماءين بعد مابينهما مسيرة خمسمائة عام.. » حتى عدّ سبع سموات.. الحديث ، وقد مر ذكره والكلام عليه

في الصفحة (١٢٠) .

والشاهد هنا من الحديث أنه ﷺ ذكر مايراه الناس من فوقهم ، وسماه الرقيع ، وذكر المسافات بينها وبين أرضنا ، ثم ذكر مابينها وبين السموات العلى التي عدَّها سبع سموات ، وهذا ظاهر الدلالة على أن هناك فوق هذه المجموعة من الأجرام المجزءة في الفضاء سبع سموات مطبقة .

ومن الأدلة المثبتة حديث الإسراء برسول الله ﷺ من بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى ما فوق سبع سموات ليرى من آيات ربه الكبرى ، ولينال شرف الصعود إلى مقر الملائكة ومصدر الملكوت ، ويكلمه الله تعالى ليس بينه وبينه حجاب ولا واسطة .

وقد أسري بجسده الطاهر ، وهو الثابت الذي تلقته الأمة بالقبول ، ولم يرد أي قول يناهض هذه الصورة .

قال القرطبي : ثبت الإسراء في جميع مصنفات الحديث ، وروي عن الصحابة في كل أقطار الإسلام ، فهو من المتواتر بهذا الوجه ، وذكر النقاش من رواية عشرين صحابياً ، قال : وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه الإسراء بالجسد وفي اليقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقدس ، وصلى فيه ، ثم أسري بجسده ، وعلى هذا تدل الأخبار والآية ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة ، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة .

ولو كان مناماً لقال تعالى : بروح عبده ، ولم يقل: (بعبده) [الاسراء :]١
وقوله تعالى : (مازاغ البصر وماطغى) [النجم : ١٧] يدل على ذلك ، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ومعجزة .

إلى آخر كلام القرطبي رحمه الله، ومقارناته بالحقائق والشواهد الظاهرة الدالة على أنه كان بجسده الطاهر يقظة لا مناماً .

قلت : ومن أعظم الأدلة الدالة على أنه قد عرج بـــه إلى السماء بجسده الطاهر ، أنه قد انتهى به العروج إلى العلو إلى سدرة المنتهى فقط ، ولو كان مناماً لما كان وقف دون العرش ، كما أنه لم يثبت عنه أنه قد رأى الله عز وجل ، بل قال : « نور أنّى أراه » عندما سأله أبو ذر رضي الله عنه، ولو كان المعراج مناماً ، لما امتنعت رؤيته لله عز وجل ، لأنه ثبت أنه رآه في المنام كثيراً .

قال القرطبي : وكانت عائشة ومعاوية رضي الله عنهما يقولان : إنما أسري بروحه ، فأما عائشة فكانت صغيرة لا تعرف عن هذا شيئاً ، وأما معاوية، فلم يكن قد أسلم بعد في زمن الإسراء.... إلى أن قال القرطبي رحمه الله : وفي نصوص الأخبار الثابتة دلالة واضحة على أن الإسراء كان بالبدن ، وإذا ورد الخبر بشيء هو مجّوز في العقل في قدرة الله تعالى ، فلا طريق إلى إنكاره .

قلت : وهذه الجملة من كلام القرطبي رحمه الله تعالى ، وهي أن النص إذا ورد بشيء مجّوز في العقل في قدرة الله تعالى ، فلا طريق إلى إنكاره، ثم إن ذلك قاعدة من القواعد التي ينبغي تأملها في مجال التأويل ، وهـذا يدل على أن

الإسراء والمعراج بجسده ﷺ يقظة لامناماً ، مجوّز في الشرع والعقل معاً ، ودلت عليه النصوص الشرعية ، وهو من الممكنات التي لا يوجد أي فهم يصرفه عن صورته الصحيحة .

وأحاديث الإسراء والمعراج كثيرة في الصحاح والسنن ، وهي بمجموعها لاتختلف في أن رسول الله ﷺ عرَج به إلى السموات العلى جبريل عليه السلام، فكان جبريل يستفتح عند كل سماءٍ ، فيفتح لهما بابها ، فيدخلان منه حتى عد سبع سموات ، ولم يرد أنه ﷺ ذكر في السموات كائنات حية إلا ما كان فيها من الملائكة أو الأنبياء والمرسلين ، كما عدهم ﷺ ، وحيث لقيهم في كل سماءٍ ، وكلمهم وكلموه ، ورحّبوا به ، وقد وضع الله سبحانه وتعالى أرواح أولئك الأنبياء والمرسلين فيما شاء من الأجسام تكريماً لهم ، وهي أجسام مؤقتة إلى البعث والنشور .

قال الله تبارك وتعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) [الإسراء : ١]

وقد ساق القاضي عياض رحمه الله تعالى في كتابه « الشفا في تعريف حقوق المصطفى » الأدلة التي تثبت أن الاسراء والمعراج كانا بجسده الطاهر، وأبطل حجة من زعم أنه كان مناماً بأدلة يطمئن لها قلب المؤمن ، ولله الحمد والمنة ، فمن أراد ذلك ، فليراجع كتاب « الشفا » صفحة ١٤٩ من الجزء الأول.

وحيث إن أحاديث الاسراء والمعراج أحاديث متواترة مشهورة ، فلا حاجة لسرد شيء منها هنا،وهي في كتب التفسير والسير ، والله الموفق .

السموات العلى كرة مستديرة

قال الله تعالى : (وسع كرسيه السموات والأرض) [البقرة : ٢٥٥]

قال القرطبي : الذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق بين يدي العرش ، والعرش أعظم منه ، ثم قال : وروى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر قال : قلت : يارسول الله أيّ شيء أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آية الكرسي » ثم قال : « يا أبا ذرّ ، ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة» أخرجه الآجري وأبو حاتم البستي في « صحيحه » ، والبيهقي وذكر أنه صحيح .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في « الرسالة العرشية » : والحديث له طرق،وقد رواه أبو حاتم ابن حبان وأحمد في « المسند ».

وقال مجاهد : ما السموات والأرض في الكرسي ، إلا بمنزلة حلقة ملقاة في أرض فلاة ، وهذه الآية منبئة عن عظم مخلوقات الله تعالى ... إلى أن قال : وعن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ سمع تسبيحاً ليلة أسري به في السموات العلى : سبحان الله العليّ الأعلى ، سبحانه وتعالى .

وذكر ابن كثير في تفسيره حديث أبي ذر ، أخرجه ابن مردويه وزاد : والأرضون السبع ، قال : وقال ابن جرير :قال أبو ذر :سمعت رسول الله ﷺ

يقول:« ما الكرسي في العرش الا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض »

ففي هذا كله دليل على أن السموات العلى كرة مستديرة، وكذلك الكرسي من ورائها، ومن وراء الكرسي عرش الرحمن عزوجل، وهو فوق العرش، وكل من السموات العلى، والكرسي، والعرش كرة مستديرة، لوصفه ﷺ السموات بحلقة في أرض فلاة، فتكون الحلقة مجوفة داخلها الأرضون السبع، وأرض الفلاة محيطة بتلك الحلقة، وهذا وصف كامل للكيف لتلك المخلوقات فالأرضون كمح البيضة، والسموات العلى كبياض البيضة، محيط بصفارها من كل جانب، وهكذا الكرسي، ثم العرش، ولا يؤوده الجبار حفظهما أي لا يعجزه ولا يثقل عليه، وهو العلي العظيم.

قال ابن كثير في « البداية »: وقد حكى ابن حزم وابن المنير وابو الفرج ابن الجوزي وغير واحد من العلماء الإجماع على أن السموات كرة مستديرة، وقد تقدم الكلام في إجماعهم على أن الأفلاك كرة مستديرة، وهم يعنون بالأفلاك ما نراه من فوقنا من المجموعة الشمسية، وهي السموات بلفظ القرآن العزيز، كما قال تعالى: (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً. وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) [نوح: ١٦، ١٧] وقد تقدم الكلام على الآية.

وذات الجبار عزوجل فوق العرش، بائن من خلقه (ليس كمثله شيء

وهو السميع البصير) [الشورى : ١١] (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) [الحديد : ٣]

والعرش له صفات وردت بالقرآن والسنة ، وقد جاء ذكر العرش مستوفى في نسخة صنفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، فلا حاجة لزيادة بحث بذلك .

والجبار عزوجل فوق عرشه، وقد ورد شيء عن صفاته في القرآن والسنة ، وهي لا تستكمل صفاته عزوجل، لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ومذهب أهل السنة والجماعة الإيمان بما جاء بالنصوص الشرعية من ذلك والإعراض عن تفصيلها ، ومن تعرض لتفصيلها فلا يلومنَّ إلا نفسه ، فانه ينتهي به الأمر إلى إحدى حالتين : إما زيغ في العقل ، وإما زيغ في العقيدة ، وخروج عن الحق ، وقد مر الحديث في التفكر . قال ﷺ :« تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره » .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية ، فما وصف الله به نفسه وسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه ،ولم نتكلف من علم ماسواه، لا نجحد ماوصف، ولا نتكلف معرفة مالم يصف. انتهى.

قال الله عزوجل :(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) [الزمر : ٦٧]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية بعد أن ذكر هذه الآية :وفي «الصحيحين»

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» .

وساق أحاديث كثيرة في الصحاح بهذا المعنى.

وقوله تعالى: (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) [الزمر : ٦٧] قد مر في سبع أرضين ماقاله علماء الاسلام أن المراد في قوله تعالى: (والأرض جميعاً) الأرضون السبع، ومفهوم لفظ الحديث بتسمية الأرض بالإفراد لايخالف معنى الآية، لأن لفظ الأرض بمثل هذه المعاني يقتضي الأرضين السبع، كما يأتي كثيراً في القرآن لفظ السماء وهو يعني السموات، وقد مر ما قاله العلماء في ذلك.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ساق الأحاديث: ففي هذه الأحاديث الصحيحة المفسرة لها (يعني للآية) المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول، ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة الى عظمة الله تعالى أصغر من أن يكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما تدحى الكرة. انتهى.

إذا تبين هذا عن صغر المخلوقات كلها في قبضة الله تبارك وتعالى، وأخذنا بعين الاعتبار مامر من قوله ﷺ: « حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » أدركنا بايمان قطعي، أنه عزوجل ليس كمثله شيء، وأنه تعالى هو العليّ بقدره، القاهر لعباده، الغالب لكل ماسواه،

وأنه العظيم الأعظم ، له الأسماء الحسنى ،والصفات العلى ،هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم

مصادفة تاريخية

من المصادفات التاريخية أن هذا الكتاب الذي كان تسويده بالمدينة المنورة في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٨٩هـ أوشك على الانتهـــاء في يوم الأحد ٦ جمادى الأولى، وهو اليوم الذي كان يحاول فيه الأمريكيون النزول على سطح القمر ، فلأهمية هذا الحدث التاريخي عند أهل الفكر والاهتمام في الحوادث الكونية، رأيت من الأهمية بمكان ذكر ما وصلت اليه النتائج الصحيحة في هـذه الرحلة الهـامة .

أقول : نزلت السفينة الأميريكية المسمات « النسر » بعد أن انفصلت من السفينة«أبو للو ١١»على سطـح القمر ليلة الاثنين ٧ جمـادلى الأولى سنة ١٣٨٩ هـ الموافق ٢١ تموز سنة ١٩٦٩ م،وفي الصباح نزل الرجلان الأمريكيان ، ومشيا على سطح القمر وأخذا تراباً بمغرفة،وحجارة بالملقط ، وجعلوه في سفينتهم،يقدر وزنه حوالي خمسين كيلو غرام،وهم يرتدون ملابس خاصة تقاوم الحرارة ،لان نزولهم كان نهـاراً ، وهـذه الملابس تتكون من (١٥) طبقـة متنوعـة المواد غالية الثمن جداً .

وأقاما على سطح القمر ساعتين وعشر دقائق فقط ، ولم يواجهـــا أي صعوبة ، ثم رجعا إلى السفينة وبقيت السفينـة هناك (٢٢) ساعـة تقريباً ، ثم

أقلعت والتحمت في السفينة « أبو للو ١١ » بطريقها إلى الأرض .

وقد بلغت مسافة مـا بين الأرض والقمر « ٢٥٠،٠٠٠ » ميل ، قطعتهـا السفينة في « ٦٠ » ساعة .

وتبلغ الحرارة على سطح القمر نهاراً « ٣٢٠ » درجة فهرينهايت، وليلاً تبلغ البرودة « ٢٢٠ » درجة فهرينهايت تحت الصفر .

ولقد وجدوا في مكان النزول تربة متماسكة ، لونها رمادي ، وعليهـا ذرات من الرمل ، وحجارة متناثرة، ورأوا في القمر تلالاً وهضاباً .

ثم إن جاذبية القمر تعدل قوتها سدس الجاذبية الأرضية ، وهذا والله أعلم يدل على أن الجاذبية تكـون قوتهـا على قدر عظم الجرم .

ويقل وزن الانسان على سطح القمر بمقدار السدس عما هو عليه من قبل. فإذا كان وزن الانسان على سطح الأرض (٧٥) كغ يصبح (١٢،٥) كغ على سطح القمر .

هذا بعض ماظهر من النتائج لتلك الرحلة التاريخية التي مكّن الله الإنسان من بلوغها ، وقد أخذتها جميع المحطات التلفزيونية من المحطـات الأمريكية والمراصد في دول العالم ، ونقلتها جميع المحطات الاذاعيـة ، ونشرتها جميـع الصحف العالمية، ومع هذا فان بعض الناس يستنكرون هذا الحدث ولا ريب أن قبول هذا ورده يترتب على قدر الوعي والادراك الفكري في وضع المستحيلات والممكنات ، وقد تكلمنا على هذا البحث في مواضع من هذا الكتاب .

قال الله عزوجل:(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) [طه:٥٥] هذا نص من الله تعالى في حكمه النافذ أن الانسان خلق من الأرض وفيها يموت ، ومنها يبعث في اليوم الآخر ،والذي حدث الآن هو أن الانسان قد وصل القمر ، فلو أن إنساناً مات هناك ، فماذا يقال في حكمه مع ما اقتضته الآية الكريمة ؟

الجواب أن ماحدث من نزول الانسان على سطح القمر ، وما جاء به العلم في نتائج هذه الرحلة عن أحوال القمر ، تدلنا دلالة واضحة أن جسم القمر هو من الأرض التي فتقها الله تعالى كغيره من الأجرام التي نراها من فوقنا ، وهي المجموعة الشمسية ، وقد مر الكلام على سبع أرضين والنظرية التي أوردناها بأن هذه المجموعة هي الأرضون السبع ، لأن الله سبحانه وتعالى يقبض تلك الأرضين السبع يوم القيامة كما قال في كتابه : (والأرض جميعاً قبضتُه يوم القيامة) [الزمر : ٦٨] ويجعلها كتلة واحدة كما قال تعالى:(يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) [الأنبياء : ١٠٤] وقد مر الكلام على هذا كله فليراجع ، وعلى هذا يتبين لنا الحكم في أن من مات على القمر أو على غيره من الكواكب الأخرى التي نراها من فوقنا ،فكأنما مات على هذه الأرض ، وهو داخل تحت حكم الله تعالى فيما تضمنته الآية ، ولا يخرج عمامضى به القضاء

والقدر ، فسبحان من له في خلقه شؤون،لا إله غيره ، ولا رب سواه .

وهذا مااقتضى إيراده في هذا الكتاب مما يتعلق في موضوع الأجزاء الكونية ، بين النقل والعقل التي هي من نتائج القضاء والقدر ، وسنتوسع فيه إن شاء الله إن أتيحت لنا الظروف فيما بعد في كتابنا « العبر في نتائج القضاء والقدر » والله تعالى نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه الفقير الى مولاه عبد العزيز بن خلف العبدالله
٨ جمادى الأولى سنة ١٣٨٩ هـ . الموافق ٢٢ تموز سنة ١٩٦٩ م.



الفهرس

تم الكتاب